اللغة فى الثقافة والمجتمع

مع دراسة ميدانية للمصطلحات والكلمات
العامية فى ثقافة الشباب الفرعية

دكتور
محمـود أبو زيـد

دار الكتاب
للطباعة والنشر والتوزيع

محمود أبو زيد

اللغة فى الثقافة والمجتمع

مع دراسة ميدانية للمصطلحات والكلمات
العامية فى ثقافة الشباب الفرعية

دار الكتاب
للطباعة والنشر والتوزيع
٨ شارع حسن خليل — ميدان العزيز بالله

المقدمـــــة

هذا الكتاب موضوعه اللغة Language والدراسة العلمية للغة، ولكـــن ليس بالمعنى الذى يهدف اليه اللغويون من وراء المصطلح أقصد علم اللغــــــة Linguistics أو اللغويات فى عمومها كما يحب البعض أن يطلق عليها أحيانـا وانما بالأحرى من زاوية خاصة لاتعتبر اللغة ظاهرة اجتماعية فحسب، ولكن ظاهرة انسانية بالدرجة الأولى وبهذا الشكل فإن الدراسة خليقة بأن تثير العديد مـــن المشكلات المتعلقه بكل العلاقات التى يمكن تصور قيامها بين اللغة وكل من الثقافة والمجتمع على حد ســـواء..

وليس من شك فى أن هذه المشكلات تنبع أساسا من طبيعة التصور الذاتـــى للموضوع على هذا النحو.فعلى الرغم من شيوع هذا الفهم لمصطلح علم اللغة بيـن جمهور العلماء والباحثين منذ منتصف القرن الماضى على أنه الدراسة (العلمية) للغة فالملاحظ أن هذا الفهم مازال عرضة لكثير من النقاش بسبب الاختلاف فى التفاسيـر التى يخلعها العلماء على بعض الألفاظ مثل لفظ "العلم" Science ولفـــظ "علمى" Scientific ،وبالتالى خصائص تلك (العلمية) ومتضمناتها والغاية مـن ورائها وهى أمور تنطوى جميعها على جانب ذاتى بلا جدال .

ومع ذلك فسوف يلحظ القارىء فى هذه المحاولة التى نقدمها لدراسة اللغة انهـا تنطوى على بضعة أمور :

الأول هو أننا فى دراستنا للغة وان كنا سوف نأخذ بوجه عام بالتقسيم الثلاثـــى الاصطلاحى الذى يقسم مجال علم اللغة الى مايعرف بالدراسة الحركيه أو الديناميـة أو التطورية (التاريخية) Diachronic فى مقابل الدراسة الساكنة أو الثابتـة أو المتزامنة Synchronic، والدراسة النظرية Theoretical فى مقابـل الدراسة التطبيقية Applied، ودراسة الوحدات الصغرى Microlinguistics فى مقابل الوحدات الكبرى Macrolinguistics، إلا اننا نصدر فى ذلـــك كله عن موقف معين يسعى الى التضييق بقدر الامكان من نطاق الدراسة ،وذلـــك بالتركيز أساسا على دراسة الوحدات الكبرى (الماكرو) ولكن من خلال الاهتمام بصفـة

خاصة بالدراسة الاجتماعية للغة أو مايعرف بالسسيولغويات أو علم اللغة الاجتماعى Sociolinguistics من ناحية ، والانثربولوجيا اللغوية Anthropolo-gical Linguistics من ناحية ثانية وهما نسقان علميان ينظران الى اللغة لاعلى انها مجرد ظاهرة فردية متعلقة بالاشخاص ، ولكن باعتبارها ظاهرة اجتماعية انثربولوجية لايتحقق وجودها ولا وظائفها وتأثيراتها إلا فى المجتمع وفى الثقافة ، خاصة وأن علم الاجتماع اللغوى Sociology of Language ، وهو أحد الفروع المتميزة فى علم الاجتماع التى تهتم بدراسة الحقائق المرتبطة بالعلاقة بين اللغة والتنظيم الاجتماعى ، يركز أصلا على الطريقة التى يؤثر بها البناء الاجتماعى فى اللغة وفى الاختيار اللغوى ، على حين تهتم الانثربولوجيا اللغوية أساسا باستجلاء كافة العلاقات بين اللغة والثقافة ، والكيفية التى تحدد بها البناءات اللغوية المعينة شكل ومحتوى الثقافة التى تنتمى اليها هذه البناءات اللغوية سواء أكانت ثقافات أصلية وعامة أو ثقافات فرعية أو حتى ثقافات هامشية ، وكله يشارك ، كما هو واضح ، فى الفرضية الاساسية القائلة بأن اللغة تنهض فى مقدمة العوامل التى تقوم وراء التركيب السكانى وتوزعات الافراد فى داخل المجتمع.

أما الامر الثانى فهو أن هذا الموقف الذى أشرنا اليه ينبغى ألا يفهم منه إننا نسعى الى أن نفصل فصلا تعسفيا بين المجالات والنطاقات الرئيسية والفرعية فى دراستنا السسيوأنثربولوجية للغة ، أو حتى الى شئ مثل هذا فيما يتعلق بالفروع اللغوية المختلفة التى اهتمت ببحث جانب أو آخر أو مظهر أو آخر. فذلك خليق بأن (يفتعل) من المشكلات والمتناقضات ماقد لايكون له أى أساس. وانما ربما كان الأصح من ذلك أن نقول بأن مدخلنا فى هذه الدراسة وان كان مدخلا يتسم بشئ من الذاتية ، فهى ذاتية يضمها إطار أوسع من الشمول والتكامل . وبهذا المعنى فلا نعتقد أننا نكون قد ابتعدنا عن تلك الاهتمامات الرئيسية والمنهجية العامة التى اختطتها العقول الكبيرة الرائدة من أمثال فردينان دوسوسير Saussure وادوارد سابير Sapir وكلود ليفى ستروس Levi - Strauss وفرانز بواس Boas وليونارد بلومفيلد Bloomfield ونوام شومسكى Chomsky وغيرهم ممن يرجع اليهم فضل السبق فى الميدان . فالصلات والعلاقات قائمة ، كما انها تبدو فى كثير من الاحيان متداخلة ومتشابكة وربما أيضا غامضة بين مختلف

المجالات والنطاقات ،وبالتالى مختلف الفروع والتخصصات٠

ويترتب عليه انه اذا كانت ثمة علاقات وثيقة بين كل من علم الاجتماع وعلـم النفس والانثربولوجيا ٠٠٠الخ،فان الشيء نفسه نجده أيضا بين علم الاجتماع اللغوى وعلم النفس اللغوى والانثربولوجيا اللغوية على السواء كما أن المجتمع لئن كـان بناءا ونظما ،فإن الثقافة نسيجه كما انها هى قوامه وعموده الفقرى كما يقولون ٠

والواقع أنه من هنا بالذات كان الكل المركب من الارتباطات والعلاقات البينية والمتداخلة هو الأجدر ــ فى النهاية ــ بالدراسة وبالتعامل معه وبمحاوله فهمـه وفى هذا فلا يمكن ان نفصل ما قد يوصف بأنه ساكن وثابت عما قد يوصف بأنـه دينامى ومتطور،أو عزل الجوانب النظرية عن الجوانب التطبيقية ،أو تلك التى تمثل الوحدات الصغرى عن الكبرى ،فكلها ينتظمها سياقات اجتماعية وثقافية واحـدة والأثر والتأثير متبادلان ، وكل هذا كاف لأن يوجد الكثير من المسائل والقضايـا المتعلقة بطبيعة اللغة وبنائها ووظائفها ،اضافة إلى مشكلات المعنى والدلالة ومـا يطرأعلى كل هذا من تغيرات وتحورات تخضع لها اللغة خلال حياتها فى الزمـان والمكان ٠

والأمر الثالث هو أن هذه الدراسة وان كانت سوف تهتم بالطبع بتناول المناقشات والتحليلات النظرية التى تعبر عن وجهات نظر العلماء والباحثين فيما تعرض له من قضايا ،فقد آثرنا أيضا أن نفرد فيها حيزا لدراسة ميدانية نسعى عن طريقها الى اختبار طبيعة الروابط بين هذا النظر والتطبيق ٠كما تحاول بتحليلاتها الخاصةبالواقـع أن تكشف عن الديناميات التى تقوم بين النظم والأنساق اللغوية وبين الانسان أثنـاء معايشتهما معا لموقف كلامى أو وجودهما فى مجتمع كلامى واحد ٠

ولكن بالنظر الى استحالة أن يكون النسق اللغوى أو الظاهرة اللغوية فـى عمومها موضوعا للدراسة الميدانية،فقد سعينا إلى تضييق نطاق دراستنا هـذه وتحديدها فى ظاهرة واحدة هى ظاهرة التضاير اللغوى ٠وحتى فى ذلك فقد ضيقنـا من حدود البحث فاقتصر على دراسة اللغة العامية والمصطلحات الدارجة كنمط مـن الأنماط اللغوية التى تسود فى ثقافة الشباب الفرعية٠

ونحن ندرك بالطبع ما قد يعنيه مثل هذا التضييق والتحديد من إغفال لكثير من الجوانب التى قد تكون مرتبطة بظاهرة التغاير والتفاضل اللغوى ٠ولكن نظـرا لامكانات الباحث الفرد من ناحية، ولأن هذه الجوانب بالغة التشعب والتعقيـد بحكم طبيعتها من ناحية ثانية فقد فرض علينا ذلك هذا الموقف ٠وان كنا فى الوقت نفسه نتطلع إلى أن تكون الظاهره موضوعا لبحثأو كتاب بأكمله٠وقد يكون فى هـذه الحقيقة ذاتها ما قد يثير حمية الآخرين ويحفزهم٠وربما فى هذا بالذات تكمـن القيمة الحقيقية للعلم٠ ٠أى علم٠

الباب الأول

اللغـــــة والاتصـــــــال

الباب الأول

اللغــــة والاتصـــــال

الفصل الأول

بيولوجيا الاتصال بين الانسان والحيوان

التساؤل البسيط الذى طرحه بلاك Black فى مقدمته الضافية لكتابـــه القصير الممتع"تيه اللغة" The Labyrinth of Language(١) عمـا يميز الانسان ــ حقيقة ــ عن غيره من سائر الحيوانات ،أو بتعبير آخر،الأسباب أو الخصائص التى جعلت الانسان انسانا ، أو هو ماهو عليه الآن من ناحية،ومـــن الناحية الثانية،اجابته القصيرة التى اختزل بها مسيرة (ربما) ملايين السنين وهــو يجيب على ذلك بأن الانسان هو الحيوان الوحيد القادر على النطق والكـــلام Homo Loquens ،لم يكد يمر وقت طويل حتى عاد تشارلس باربـر Barber (٢) يردد السؤال نفسه ،ولكن ليجيب فى هذه المره إجابة بـدت من وجهة نظر البعض اكثر تحديدا، وذلك بتأكيده ان"اللغة" أكثر منها أى شىء آخـر هى التى تميز الانسان عن بقية عالم الحيوان .

وقد لايجادل أحد فى صحة الاجابة التى انتهى إليها كل من بلاك وباربر فهـــى تتفق تماما مع القناعة العامة التى أمكن لجماهير العلماء والباحثين فى علم اللغـــة وفى التاريخ الطبيعى أن يتوصلوا اليها .فالانسان هو الكائن الوحيد الذى ينتمـــى بمعنى من المعانى إلى ذلك النموذج الفيزيقى الذى يطلق عليه فى العاده اســـم الانسان العاقل Homo Sapiens الذى مثل بذاته نوعا متميزا لامثيل له حتى بين أسلافه من النماذج البشرية الأخرى التى ظهرت مع بواكير التاريخ.

---

(١) Black, Max., The Labyrinth of Language, A Pellican Book . 1972. p.2

(٢) Barber, Charles.L., The Story of Language, The English Language Book Society-London. 2nd Printing 1975. p.1.

ومع ذلك فان الملاحظة التى ينبغى ألا نتجاهلها تشير الى أن هذه الاجابـــة لاتعدو فى آخر الأمر أن تكون تقريبا لنتيجة أكثر منها محاولة لاثبات أمر مـــا ،أو للكشف عن الأسباب أو العوامل التى أدت الى هذه النتيجة ،أو حتى مناقشة هــذه الأسباب .ولذا فقد كان من الطبيعى أن يظل التساؤل قائما يتحدى عقـــــول الباحثين ويحفز تفكيرهم وخيالهم.

ولكن كل هذا قد يبدو ـ بدوره ـ وكأن لاطائل أبدا من ورائه،فالاستمرار فـى التأكيد على أهمية اللغة قد أصبح من وجهة نظر الكثيرين أمرا أشبه بالخبط فــى الهواء أو بالطرق ـ كما يقولون ـ فوق باب مفتوح.أقصد ان هذه الأهمية التـــى نسبغها على اللغة،والتى من أجلها اعتبرت اللغة المميز الحقيقى للانسان عن غيــره من الحيوانات ،لم تعد فى ذاتها مسألة جدل أو خلاف وذلك لسبب بسيط ولكنــه جوهرى وهو اننا جميعنا ننتمى إلى الاسرة أو العائلة البشرية،وبوصفنا أعضاء فــى هذه العائلة،فاننا دون غيرنا من المخلوقات والكائنات نمتلك تلك الخاصية الفريــدة أعنى خاصية الكلام،والقدرة على الحديث وعلى الاستمتاع والتفاهم والتعبير والاتصال مستخدمين فى كل هذا الأصوات الكلامية بالذات،التى نمت وتطورت حتى أصبح لهـا معانى ودلالات محددة أى أصبح لدينا لغةباختصار شديد.

المشكلة إذن مازالت قائمة.وقد عبر مونو Monod عن مدى صعوبتها بقوله"كلما سألت نفسى عن الكيفية التى تأتى بها للانسان أن يصبح انسانا ، تأكد لى باستمرار ان هناك"ثقافته" من ناحية.ومن الناحية الثانية"فطرتة"وكلاهما من الوضوح بمكان، ولكن عندما أتساءل ،بعدها،عن الحدود الوراثية أو الفطرية للثقافة،وعن ذلك الجزء أو المكون Component الثقافى فى هذه الفطرة،أجدنى انتهى دائما إلـــى أننا لانعرف شيئا عن كل هذه الامور.وذلك، بكل أسف، لانه لاتوجد مشكلة أعمق أو أشد إثارة للحيرة من هذه المشكلة" (١) .

(١) Jacques Monod"Quoted throgh"Massimo Piattellipalmarini",ed,Language and Learning(The Debate between Jean Piaget and Noam Chomsky.Harvard University Press.1980.

ولايختلف الكثيرون مع ماذهب إليه جاك مونو . فنحن في الحقيقة مازلنا نجهل إلى أبعد الحدود الكثير جدا من الحقائق المتعلقة باللغة ، وبخاصة تلك الحقائق المرتبطة بأصلها وبنشأتها . أو حتى الطرق التى سلكتها وتطورت فيها عبر آلاف السنين .

وكما يقول باربر فاننا لانكاد نعرف على وجه التحديد متى ظهرت اللغة ، ومتى بدأ الانسان "ينطق" لأول مرة . فكل هذا مازال يمثل ميدانا يخضع لغير قليل من الظن والتأمل والتخمين . وان كان الأرجح فى رأى العلماء ان اللغة ترجع من حيث النشأة إلى أبعد مراحل التاريخ الانسانى، اى ربما الى مايزيد على مليون من السنين[1].

وفى اعتقادى ان هذا الاعتراف الواضح بجهلنا بحقيقة اللغة هو ما ينبغى أن يمثل نقطة البداية ونحن نحاول ارتياد هذه الناحية ، لانه على الاقل سوف يساعدنا على أن نتلمس تدريجا وعلى حذر مخاطر الطريق وما تمتلئ به من انزلاقات .

ومع أن علماء اللغة أنفسهم ومعهم نفر غير قليل من سائر التخصصات التى اعتبرت تقليديا وثيقة الصلة بدراسة اللغة كالانثربولوجيا اللغوية على سبيل المثال ،

= والجدير بالذكر انه يرجع الفضل الى الاستاذ "مونو" فى الاعداد لهذا اللقاء الذى جمع بين بياجيه وتشومسكى وتحول الى مايشبه المهرجان العلمى بسبب عدد ضخم من العلماء والباحثين فى مختلف الفروع العلمية وثيقة الصلة بعلم اللغة ، والذين جاء وا من مختلف الجامعات والمعاهد ومراكز البحث العلمى من أوربا والولايات المتحدة الامريكية ليحضروا هذا اللقاء التاريخي الذى انعقد فى عام ١٩٧٥ بالقرب من باريس اثناء رئاسة Monod لمجلس ادارة مركز رويامونت لعلم الانسان
TheCentre Royaumont pour une Science del"Homme.

(١) Borber, Op-cit-p.23.

والاجتماع اللغوى وعلم الحياة وعلم النفس وحتى علم الآثار وما قبل التاريخ لم يعودوا يشغلون انفسهم بهذه المشكلة اكتفاء منهم بما يضمه التراث من فرضيات اصبحت بسبب سيطرتها على العقول بمثابة المسلمات أو الرواسي الجامدة Streotypes ، وبخاصة من حيث تقريرها ان اللغة الانسانية لابد وان تكون قد تطورت عن بعض أشكال الاتصال الأشد بداءة Forms والتى تقترب أو حتى تماثل بعض نظم التواصل الاشارى التى استخدمتها بعض الانواع الحيوانية الأخرى .وكان المنتظر أن تساعد مثل هذه الفرضية فى إجلاء حقيقة أصل اللغة،فان الشيء الغريب ان شيئا من ذلك لم يحدث لانها ـ على العكس من ذلك ـ لم تفعل أكثر من أنها ألقت بنا فى قلب المشكلة الاكثر عمقا وتشعبا والمتعلقة بالنظرية البيولوجية العامة فى التطور .

وقد لاتكون بنا حاجة الى تأكيد أهمية هذه الناحيةولكن المهم هو ان أصحاب هذه الفرضية التطورية قد رتبوا عليها ان الاهتمام بدراسة الحيوانات العليا ، مما يساعد إذن فى التعرف ليس فحسب على الأصول المبكره للغة الانسانية ،ولكن أيضا فى تكوين فكرة واضحة عن الوضعية التى كان عليها الانسان نفسه فى تلك المرحلة التى يطلق عليها المرحلة القبللغوية Pre-Linguistic stage .

على أن هذا كله من الناحية الأخرى ـ ينبغى ألا يفهم منه ان مثل هذه النظرة الى اللغة كانت أمرا جديدا بالمرة أو انها لم تشغل بال العلماء والباحثين من قبل فى مختلف العصور . وقد يكون صحيحا ان الدراسة العلمية المنتظمه للغة بهذا المعنى لم تظهر إلافى وقت متأخر نسبيا وبخاصة فى تلك الدراسات والبحوث التى أجراها امثال لينبرجLenneberg ومارشال Marshall وكذلك تلك الدراسات التى قام بها ماركس Marx والتى لخص لنا فيها وان يكن بشكل جيد وواضح ـ الأسس البيولوجية للغه فى كتاب حمل نفس العنوان "تاريخ الأسس البيولوجية للغة(١) .

---

(١) للوقوف تفصيلا على ملامح هذا الاتجاه يمكن الرجوع إلى:

Lunneberg,E.H.,"ABiological Perspective ofLanguage,"
In Lunneberg E.H.(ed,),New Directions in the study of=

ولكن الشيء الجدير بالملاحظة مع ذلك هو انه فى خضم هذا الكم المتراكم من الكتابات التى اهتمت بالبحث عن أصل اللغة ،قد ترددت باستمرار تلك المحاولة التى سعت بالحاح واصرار عنيدين الى اقامة نوع من المطابقة أو الموازاة Parallels بين صفات وملامح اللغة الانسانية وأنظمة الاتصال المختلفة التى تستخدمها الانواع الحيوانية الأخرى ،وذلك بهدف الكشف عن العمليات والخصائص التى مكنت من عبور الهوة التى تقوم بينهما فى ضوء ومصطلحات ومفاهيم النظرية الفسيولوجية والبيولوجية الحديثة.

والواقع ان كتابات دارون Darwin بصفة خاصة كانت بمثابة نقطة تحول أساسية فى هذا الاتجاه فقد.شجع نشر كتابه الشهير "أصل الانواع" The Origin of species فى عام ١٨٥٩ الدارسين على أن يعتقدوا فى إمكانية شرح وتفسير كل من شكل ووظيفة الحيوانات الراقية (العليا) فى حدود القانون الطبيعى Natural Law (١). ولم يمض وقت طويل حتى بدأ هذا الاتجاه النشوئى يحتل مكانة ملحوظة ضمن المجهودات التى سعت الى تفسير أصل اللغة ونشأتها ،فظهرت بحوث شليشر Schlecher التى تؤكد ما للمقولات

Language,Cambridge, Mass,: M.I.T.Press.1968.pp.32-44 =

وكذلك كتابه بعنوان : Biological Foundations of Language.N.Y. Wiley-1967.

بالاضافه الى كتاب مارشال وماركس المتخصصة مثل :

Marshall.J"Psychological Linguistics: Psychological Aspects of Semantic Structure"In Meetham,A.R.(ed), Encycbpaedia of linguistics,In Formation and control. London:Pergamon 1969. Marx.O.,"the History of the Biological Basis of Language. in Lunneberg.1967.

(١) Lyons,J.,New Horizons in Linguistics. Pellican Book 1973 - p. 229.

الدارونية من دور في التطور ،وانطوت على كثير من النظرات الثاقبة التي تمد هـذه المقولات والافكار التطورية الى نطاق اصل اللغة وتطورها،وان كان دارون نفسـه قد عاد في عام ١٨٧١ (١) فأكد ان امكانيه النطق الواضح لاتقوم في ذاتها كدليـل قاطع أو حجة لايمكن تفنيدها في وجه الاعتقاد القائل بأن الانسان نفسه قد تطـور هو أيضا عن بعض الاشكال الادنى والاكثر بساطة.

بيد أن المثال المباشر الذي يمكن أن نسوقه في هذا المضمار ،أقصد مـن حيث دلالته البيولوجية الخالصة،كان اعلان بروكا Broca الذي اذاعه في عـام ١٨٦٣ (٢) اي في العام نفسه الذي نشر فيه شليشر كتاباته عن نظريات دارون وآرائه.حيث أعلن بروكا انه اكتشف في المخ الانساني ما أطلق عليه"مركز اللغـة" Language Center .

والواقع ان إحدى الملاحظات الذكية والواعية التي لاحظهـا بروكا كانت تتمثـل في أن المرضى المصابين بتلف أو باصابه في تلافيف الثلث الامامي من النصف الايسر للدماغ ،عادة ما يعانون من عجز شديد في قدرتهـم على النطق والكلام ،وذلـك الى الدرجه التي لايستطيعون معهـا سوى التلفظ ببعض الكلمات المبتسرة أو بعدد قليل من الجمل البسيطة النمطية المتصلبة.

ولقد خلص بروكا من هذا الى ان هذه المنطقة الامامية والتي ترتبط ارتباطـا تشريحيا بالغ الدقه والحساسية بباقي أجزاء القشره المخية Motor Cortex هي التي يرجع اليها بصفة رئيسية القدرة على التحكم في النطق واخـراج الاصوات.كمـا انها هي التي تمثل القاعدة او المرتكز للغة المنطوقة الواضحة.

وما من شك في ان هذا المدخل البيولوجي في دراسة اللغة قد لقي ترحيبـا

---

(١) Darwin ,C.,The Descent of man.,London: J.Murroy.1871.

(٢) Broca,P.,Locolisation des fonctions Cérébrales. siegedu Langage Articulé"Bulletin of social Anthropology.4-p.200

وقبولا واسعين وبخاصة بعدما أقدم دارون على نشر مؤلفه "التعبير عن الانفعال عند الانسان والحيوان" Expression of the Emotion in Man and Animals والذى ضمنه ملاحظته بصدد المشابهات بينهما فى هذه الناحية. وذلك بالاضافة الى بعض الأعمال الرائدة لعدد من أطباء الاعصاب الاكلينيكيين الذين حاولوا فى بحوثهم أن يتعقبوا خطوات بروكا وأن يحصروا ويصفوا بعض الجوانب النوعية للقدرات اللغوية وامكانيات النطق فى مناطق محددة من المخ. وهى الاعمال التى أدت على أى الاحوال إلى بلوره ما أصبح يعرف بالنظرية البيولوجية فى اللغة Biological theory ، وهى النظرية التى ركزت أساسا على إقامة الصلات والروابط العضوية بين حالة وسلامة أجزاء المخ ومناطقه المختلفة ومظاهر التخلف أو القصور ، أو عدم النضج ، أو الاستواء اللغوى.

ومن التسرع أن نقول ان هذا التصور الخاص (بالتموضع) المحدد والدقيق للمكان والوظيفة لم تثر فى وجهه أية معارضات او خلافات . فقد يكون صحيحا إلى أبعد الحدود ان اللغة ـ أية لغة ـ هى ما هى عليه بسبب تلك الطبيعة النوعية التى تتكشف فى النطق "بصفة خاصة وأكيدة، وان هذا يستلزم بالضروره أن تتم دراسة اللغة فى ضوء معرفتنا بالطبيعة الفسيولوجية والبيولوجية للتكلم والسماع.

ولكن الصحيح أيضا ان كل هذا لم يمنع البعض من أن يلاحظ بذكاء ان "وضع أو حصر الاصابه التى تدمر الكلام ، ووضع أو حصر الكلام هما فى ذاتهما أمران يختلفان تماما"[١] وهى ملاحظة فتحت الطريقة امام الكثير من البحوث النظرية والعملية التى سعت ليس فقط الى مجرد تطوير أو تعديل وجهة النظر البيولوجية ولكن أيضا إلى العثور على مدخل أو مداخل أخرى تكون أقدر على التعامل مع المشكلات اللغوية الاكثر تعقدا وخطورة.

---

(١) Jackson ,J.H., On the Nature and Duality of the Brain. Medical Press and Circular. 1874.PP.1,19.

(٢)

ولاجدال فى أن هذه الجوانب جميعها خليقة بأن تثير مزيدا من الاعجاب والتقدير.كما ان دراستنا للحيوانات الراقية قد يكون فيها ما يساعد بالفعل على التعرف على الصورة التى كان عليها الانسان فى تلك المراحل التى سبقت قدرته على نطق الاصوات الدالة أى اللغة.

ومع ذلك فان الحقيقة التى نبهت اليها مختلف البحوث والدراسات الوصفية التى تمت على أيدى العلماء وبخاصة الانثربولوجيين اللغويين هى انه لاوجود لما اطلق عليه البعض وصف اللغات البدائية Primitive التى اعتبروها الاصل الذى تطورت عنه لغة الانسان الحديث،وذلك لان هناك بالفعل العديد من اللغات المعقدة تتكلمها كل الشعوب والجماعات المتحضرة وغير المتحضرة أو تلك التى لم تتفتح عيناها بعد إلا على أبسط أشكال التكنولوجيا وأشدها سذاجة وبداءة. فما من مجتمع معروف مهما بلغت درجة بداءته إلا يوجد به نظام لغوى متشعب العناصر ومحكم التركيب.فالبوشمان Bushman فى غرب افريقيا ،وكذلك قبائل استراليا الاصليين وهم الذين يمثلون اكثر الشعوب تأخرا يستخدمون فيما بينهم لغة لابد سوف تثير اندهاش عالم اللغة نظرا لاحتوائها على قدر من الالفاظ وعلى درجة من الرمزية لايقلان عما يشاهده فى استخدمات الرجل الفرنسى المثقف(١).

وبالمثل فانه يمكن القول بانه بينما تخضع اللغات لغير قليل من الآثار التى تتم بفعل التطورات والتغيرات التاريخية فليس هناك ما يدلل أو يشير الى أن مثل هذه التغيرات قد تمت على نحو جعلها أكثر تعقدا بأى معنى من المعانى.

ونحن لانجادل فى أن مثل هذا النوع من الدراسات يحتاج إلى وقت طويل كى تتأكد نتائجه بشكل نهائى .ولكن مع تسليمنا حتى بصحة كل هذا وبأن الوقت الذى أتيح لاختبار ماتوافر لدينا من معلومات هو وقت قصير وغير كاف بالفعل ،فان الشىء المؤكد هو انه لايوجد بين أيدينا أى سجل تطورى أو ثقافى عن الكيفية

(١) Sapir ,E,Lanquage . Harcourt Brace. N.Y.1921.pp 21-3.

التى تطور بها الاتصال الذى كان قائما بين أشباه البشر، الى أن تم تشييد واقامة الانماط الاتصالية التى يعرفها ويمارسها الانسان الحديث.

والواقع ان الكثير جدا من الشواهد الحفرية التى عثر عليها فى أماكن كثيرة عن حجم وشكل الفك والجمجمة فى الرئيسيات العليا المتميزة لاتمدنا إلا بأقل القليل من المعلومات عن أشكال الاتصال الأولى التى كانت سائدة بين هذه الأنواع البشرية المبكرة.

ولكن فى الوقت الذى نجد ان هناك العديد من الأنواع التى يمكن القول بأن سلوكها الاجتماعى قد تم تنظيمه بوساطة الاشارات الاخبارية in formative فاننا لانجد أمامنا أى كائن آخر سوى الانسان قد تفرد بازدياد القدرة العقلية التى مكنته من تكوين الصيغ والتعابير شبه اللغوية التى أخذ يتصل عن طريقها بالآخرين.

ومعنى هذا الانسان وحده من دون غيره من المخلوقات جميعها هو الذى امتلك تلك القدرة على التعبير عن الاشياء وعن الافكار والمعانى واستخدم فى ذلك نسقا من الاشارات الرمزية وساعده على ذلك ان خصائص هذه القدره البنائية مما يقع ولو بشكل جزئى فى داخل إطار النظريات الخاصة بتلك الصياغات المتعلقة بظواهر الدلالات والأصوات والتراكيب العامة ، كماينظر اليها العلم الحديث.

والواقع انه على الرغم من أن بعض الاشارات التى نجدها لدى بعض الحيوانات يمكن القول بأنها تتمتع بما قد يشبه البناء، الا انها بناءات ظلت مع ذلك خالية من أى معنى رمزى ، وبذا فقد ظلت هناك تميزات فاصلة بين الانسان وبين غيره من الكائنات بما فى ذلك القردة العليا والشمبانزى .وفى مقدمة هذه التمييزات تلك القدرة التى اختص بها الانسان على النطق وعلى الكلام ، وعلى الافصاح بالتعبير الوجهى واللفظى (الصوتى أو اللغوى) عما يريد، الأمر الذى يرجع الى تميز تركيب المخ الانسانى بطريقة جعلته ملائما لهذه العمليات وسواء كان ذلك من حيث البناء، وبالتالى تعقد الوظائف ، بسبب ما أصبح ينفرد به من خصائص عضليه وشوكية وعصبيه.

وقد لايكون بمقدورنا أن نحدد على نحو دقيق متى حدث ذلك بالضبط أو أن

نصف بدرجة من اليقين كيف كانت خصائص اللغه الانسانية الأولى. وقد يتمادى البعض فى هذا التحرز والتردد فيذهب الى حد تقرير اننا مازلنا نجهل حتى نوع المخ الذى كان يمتلكه الانسان أول ما نطق تلك الاصوات الرمزية الدالة . ولكن المتفق عليه عموما هو ان اللغه بهذا المعنى الذى أشرنا اليه توا لابد أن تكون قد ظهرت فى الوقت الذى بدأت فيه البواكير الاولى للثقافة .

ويترتب على ذلك فى الحقيقة واحدة من النتائج بالغه الاهمية (والتى ينبغى الالتفات اليها منذ الآن ريثما نعود اليها بالتفصيل بعد ذلك) وهى انه طالما كان هناك نوعا من التوازى أو المصاحبه أو الملازمه بين الثقافة وبين الكلام أو اللغة وذلك الى الحد الذى جعل العلماء يقررون ان اللغه والثقافة هما شىء واحد إلى حد بعيد، ولما كانت الثقافة ـ أيضا ـ شيئا اجتماعيا، أو هى بمعنى أدق نتاج اجتماعى فيلزم أن تكون اللغه ذاتها نتاجا اجتماعيا كذلك، والا أصبح من العسير تماما ان نفسر حتى أبسط مظاهر التعاون بين الافراد والجماعات منذ أول مابدأ الانسان يقيم مجتمعاته الانسانية، ولعل فى هذه الحقيقة ذاتها ما يدلل بما فيه الكفاية على انه كان من المستحيل أن تقوم مثل هذه المجتمعات الانسانية مالم نكن نحن انسانيين أو اجتماعيين بمعنى أدق . والا كان سلوكنا قد اقتصر على ذلك المظهر الحيوانى ولم يكن ليتعداه إلى أى مظهر آخر غيره .

(٣)

انتهينا توا الى أن الانسان يتميز عن باقى الحيوان بقدرته على نطق الأصوات الدالة أى بامتلاكه اللغة . ولكن هذا التقرير لايعنى فى ذاته ان الكائنات الحية الأخرى لاتتصل أيضا فيما بينها، أو انها تتخاطب وتتفاهم، أو حتى انها تمتلك ما يمكن أن يوصف بأنه نوع من الادراك .

وليس من شك فى أن القضية على هذا النحو الذى نطرحها به تبدو أكثر تعقيدا لانها تضعنا على مستوى آخر من مستويات التحليل يختلف اختلافا بينما عما كنا نتحدث فيه حتى الآن . لأنه قد يخيل إلى البعض هنا ان الأمر كما سرنا فيه يعنى أو على الأقل، مما يتيح نوعا من المقارنة والتقدير .

ولاجدال في أن هناك من الظواهر الطبيعية ومن المخلوقات سواء كانت حيوانات أو حشرات ما يصدر عنه العديد من الاصوات التي وصفها البعض بأنها نوع من اللغة، ونهب في ذلك إلى حد القول بأن للحيوانات بدورها لغتها الخاصة أو بالأصح لغاها التي تتخاطب وتتفاهم وتتصل فيما بينها عن طريقها • ومثلها الحشرات تماما •

وقد لايكو ن ثمة اعتراض على ذلك فنحن نعرف ان مختلف الظواهر والمخلوقات تصدر عنها ، كما قلنا، الكثير من الأصوات . فالمحيطات على سبيل المثال تزمجر وتهدر والرياح تصفر والحيوانات تزأر ، كما ان بعضها قد يرق الصوت الصادر عنه ويخف إلى حد الهمس والمناغاة •

كذلك فنحن نعرف أيضا ان الطيور ينادي بعضها على البعض بأصوات تخرج من باطنها . كما نعرف ـ أكثر من ذلك ـ ان الحيوانات تتصل بوسائلها الخاصة وتدرك ما قد ينتاب بعضها من حالات الخوف أو الانفعال أو الاهتياج أو الراحة والفرحة والسرور • كما انها تنقل الانتباه من موضوع إلى موضوع آخر وتتصرف وفقا لهذا . مثلما نشاهد بين الرئيسيات عموما والقردة العليا بصفة خاصة التي يقوم بينها نوع من الاتصال الصوتي الذي يفهمه أفراد النوع •

ذلك كله لم يعد أمرا جديدا على أحد، خاصة بعدما أثبتت البحوث أن معظم فصائل الحيوان تشترك مع الانسان في قدرتها على التعبير "الطبيعي" عن الانفعالات سواء كان هذا التعبير تعبيرا بصريا أو تعبيرا سمعيا •

ولكن الذي يعنينا في هذا كله هي تلك الحقيقة التي أسفرت عنها هذه الدراسات والبحوث، وهي ان هذه الاصوات جميعها (التي قلنا ان الحيوان قادر على إصدارها) ولئن كانت مفيدة ولاشك ولازمة لبقاء النوع في ذاته ، كما انها قد تمثل من الناحيه الأخرى مادة مفيدة أيضا في موضوع يعتبر من أهم الموضوعات واكثرها متعة لما تلقيه على عالم الحيوان من أضواء، إلاأن هذه الاصوات جميعها التي تصدر عن الحيوان ، ومعها مختلف الاشارات الحيوانية ، تظل مع ذلك ومهما كانت المتعة

التى قد يستشعرها المرء من دراستها ، شيئا مغايرا تماما للكـــــــــــــلام الانسانى Human Speech •

ويترتب على ذلك بالضرورة أمر على غاية من الأهمية وهو أن الفكرة القائلة بـأن تحليل تلك الصرخات والأصوات التى تنطلق من الطيور والحشرات والحيوانـــــات وبصفة خاصة من القردة العليا ،وسواء أكانت أصواتا محذرة أو منبهة٠٠الخ ســـوف يكشف عن وجود نوع من المشابهة أو حتى المماثلة سواء من حيث الوصف والتكوين أو الغايــه والغرض، مع ما يصدر من الانسان من أصوات ،إنما تبدو فى آخر الأمر أعنى هذه الفكرة ــ فكرة غير عملية وغير مقبولة بالمرة ، لأن هذه الاصوات تختلــف من حيث مادتها ومن حيث طبيعة عناصرها عن مادة الكلمات والجمل والتعابير التى تتكون من الاصوات الانسانية الأولية•

كأن هناك اذن هوة سحيقة بالفعل تفصل تماما بين عالم الانسان وبين عالـــم الحيوان،أو بين الانسان وبين الحيوان بتعبير أدق ٠ولقد كان على العلماء كـــى يواجهوا هذه الحقيقة أن يبحثوا عن بدائل آخرى أو وسائل أخرى يحاولون بهـــا عبور هذه الهوة•

وعلى الرغم من أن البحوث العديدة التى أجراها علماء الحيوان وعلماء اللغـــة والمتخصصون فى دراسة وظائف الاعضاء ، قد أثبتت أن تفاهم الحيوان والحشـــرات قد يتم بأكثر من وسيلة ،إذ قد يكون ذلك عن طريق الضوء أو اللون أو الشـــم أو اللمس٠٠٠ الخ ٠

وعلى الرغم أيضا من حقيقة ان هذه التجارب والبحوث قد قطعت شوطا طويــلا واستخدمت فيها القردة العليا على اعتبار انها أرقى وأذكى بكثير من غيرها ،وربما أشـد قربا أيضا إلى الانسان ، فان ما انتهت اليه هذه البحوث من نتائج لم يكن أمـــرا مشجعا على الاطلاق ،أو حتى كافيا لأن يزيل بعض الغموض الذى يحيط بالمسألـة كلهـــا ٠

وصحيح ان القردة العليا (فى إحدى التجارب) قد نجحت بعد الكثير من المحاولات

والتعليم والتدريب، في ان تقوم ببعض الافعال النمطية البسيطة ۰كما نجحت ـ اكثر من هذا ـ في أن تستخدم بعض الادوات التي وضعت معها في اقفاص التدريب والتي دربت على كيفيةاستخدامها أو على الاقل شاهدت الكيفية التي استخدمت فيها هذه الأدوات۰و مع أن هذا في ذاته يكشف ولاشك عن قدر من الذكاء في هذه القردة إلا أن الشيء المثير حقا هو أن هذه القردة التي تعتبر من أذكى الحيوانات لا تستطيع ليس فقط ان تنطق او تتكلم ،ولكن مجرد أن تبتكر وسيلة جديدة أو أداة جديدة كي تستخدمها في تطوير حياتها۰

وعلى الرغم من أن الشمبانزى مثلا مشهورة بولعها الشديد بالضجة والضجيج وسماع الاصوات واصدارها ،فقد اثبتت التجارب التي أجريت لدراسة ميكانيزم اللغة الانسانية عن طريق اختبار قدرات الشمبانزى انها لاتميل بطبيعتها (أى الشمبانزى) إلى اللغة ،بمعنى انه لايوجد لديها ميل (طبيعى) لأن تزيد الكلمة أو الكلمتين بالغتي البساطةوالتي ألحت الجهود الشاقة والمضنية في أن تجعلها تتعلمها بعد حين ۰ناهيك عن عدم وجود القدرة لديها لمتابعة التدريب والتحصيل ،علاوة على عدم قدرة ذاكرتها على الاستيعاب والاحتفاظ لوقت طويل[١]۰

ولاخلاف في أن الانماط العضلية اللازمة لصياغة الكلمات والالفاظ أمرا بالغ الصعوبة۰ومع أن البعض قد حاول أن يتمسك بذلك لتفسير عجز هذه الحيوانات فأن هذه الصعوبة لايمكن ان تكون بحال الصعوبة الوحيدة التي حالت دون تمكن هذه الحيوانات من تطوير ماقد يكون لديها من قدرة على إصدار الاصوات۰

وفي ضوء هذا المنطق يبدو أن المبرر الوحيد لهذا النقص الذى عجزت بسببه هذه الانواع عنولوج مرحلة تطورية جديدة ،انما يتمثل في أنالانسان باعتباره نوعا متميزا ومختلفا بالمرة، يمتلك ولاشك قدرات فطرية تتسم بالمرونة الكافية وبالامكانات المناسبة لتطوير تلك الاصوات التي صدرت عنه أول ما صدرت .بل وأن يكسب هذه

Kellog,W.N.,Communication and Language in the Home(١)
raised Chimpanzee · science ·1968 ·102.pp.423 -27

الاصوات خاصة الرمز والتجريد ٠وهذه فى الحقيقة هى النقطة الفاصلة التى تباعد بين الانسان وبين الحيوان ٠ونتيجة لذلك فقد ظلت كل المحاولات التى سعت الى الكشف عما قد يكون هناك من مشابهات بين الصوت الانسانى والاصوات الحيوانية الأخرى أشبه ما تكون بسجل حافل بكل صور التعثر والفشل ٠

(٤)

ولكن الانتهاء الى مثل هذا الموقف الذى انتهينا اليه لايحل المشكلة التى نحن بصددها ، وهى عن الكيفية التى تمكن بها الانسان من تكوين الاصوات الانسانية ،أو الكيفية التى نطق بها الانسان أول مره بتعبير آخر ٠

وواضح من ذلك ان المسألة كلها تكتنفها العديد من الصعوبات ٠وحتى إذا نحن قلنا ـ مع القائلين ـ بوجو د اقتناع عام لدى العلماء بأن اللغة قد نشأت مع الانسانية فى قدمها أو انها وجدت مع الانسان نفسه منذ اكثر من مليون عام،فان هذا بدوره لايعتبر حلا للمشكلة أو حتى اجابة على السؤال الذى صيغت فيه المشكلة ٠

وعلى هذا الاساس فقد حاول بعض العلماء أن يقتربوا من المشكلة فى ضوء تصور مخالف يمكننا التمييز فيه بين نوعين من الاتجاهات ٠فمن ناحية رأى البعض من هؤلاء ان النظرية اللغوية أو نظرية اللغة ينبغى الا تكون من الاتساع او الشمول بالقدر الذى يغطى كافة صور الاتصال الحيوانى وبخاصة تلك الصور الاشارية من هذا الاتصال ، على حين ذهب البعض الآخر ـوهذا من الناحية الثانية ـ الى أن تضمين هذه النظرية مختلف المعارف والمعلومات المتبادلة بين الانواع الحيوانية المختلفة (ومن بينها الانسان نفسه)هو أمر مشروع للغاية بل وقد يكون أمرا ملحا ومن المرغوب فيه كذلك(١) ٠

Sebeok,T.A,"Goals and Limitation of the study of (١) animal communication"In Sebeok,T.A(ed.),Animal Communication,Bloomington, Indiana University Press,1968, pp.34 - 7.

وبالنظر الى ما لمسه البعض من أن أى من الموقفين (أو الاتجاهين) السابقين لم يستطع ان يقدم لنا حلا للمشكلة ،فقد حاول فريق ثالث ان يصيغ القضية كلها بطريقة مغايرة تمثلت فى احد التساؤلات الرئيسية التى مؤداها : ما هو إذن ذلك العنصر او المقوم الذى ينطوى عليه ذلك الادعاء القائل بأنه فى الوقت الذى (تتواصل) Cammunicate العديد من الحيوانات بعضها مع البعض الآخر ،فان الانسان العاقل وحده هو الذى(يتكلم) Talk مع الآخرين ؟

وبتعبير آخر ،لماذا اذن ؟ أو ما هو السبب الكافى(اذا ما صح ان نستخدم هذا التعبير)الذى يجعل الحيوانات (دون الانسان) تتواصل ،على حين تمكن الانسان(دون الحيوانات)من ان ينطق ويتكلم؟ .

والحقيقة ان القضية بمثل هذه الصياغة تضعنا فى صميم مشكلة الاتصال الحيوانى بكل جوانبها المعقدة.ومع أن جمهور الباحثين يعترفون بهذه الصعوبه إلا انهم تمكنوا على أى الاحوال من التوصل الى إحدى الملاحظات التى فتحت لهم الطريق فى هذه النوعيه من البحوث .فقد لاحظوا دائما مدى الصعوبة فى ان يحصروا مفهوم الاتصال أو يربطوه بأى شىء غير ذلك التفاعل المحتمل أو الذى يمكن حدوثه بين الكائن العضوى وبين بيئته المباشرة.ولئن كان الامر هكذا فيصح إذن أن نعتبر أى موقف مما قد يكشف عن وجود استجابات مشابهة ،مضمونا اتصاليا بالمعنى الواسع لهذا المصطلح.

والواقع ان معظم الفصائل أو الانواع الحيوانية تشارك فى مثل هذا السلوك الاتصالى الذى اشرنا اليه بشكل أو بآخر. فعلى سبيل المثال نجد أن بعض القشريات تستجيب بطرق معينة لأنواع بذاتها من الاشارات التى تحدد مقدما نوع الاستجابة طبقا لما تنطوى عليه الاشارة من مظاهر عدوانية أو غير عدوانية.

ويذكر لنا هازلت وبوزيلت ان سرطان البحر crab على سبيل المثال يستجيب بطريقة انتقائية Selective للاشارات المختلفه الأمر الذى يمكن

ترتيبه وتصنيفه وفقا لدرجه العدوان النسبية المتضمنة فى الاشارات [١] .

واذا كنا قد ألمحنا من قبل الى ان معظم فصائل الحيوان تشارك الانسان فى القدرة على التعبير الطبيعى البصرى والسمعى ، فقد أثبتت التجارب ان القردة على سبيل المثال تحدث أصواتا عالية ، وضجيجا متزايدا كما تظهر فوق وجهها العديد من التعبيرات عندما تكون منزعجة أو غاضبة . وليس هناك ما يمنع ـ منطقياوواقعيا من أن نعتبر كل هذا جزءاً أو جانبا من "لغة"القردة طالما ان القردة الأخرى تفهم هذه الاصوات وتميز هذه التعبيرات وتدركها وتستجيب لها .

ولقد كان المعتقد دائما ان الاسماك لاتتواصل فيما بينها ولكنها تحيا حياة يلفها الصمت المطبق حتى إننا كثيرا ما كنا نصف الانسان بأنه صامت كالسمك . ولكن ثبت مؤخرا عدم صحة هذا الاعتقاد وخطأ التصورات المرتبطة به . فقد أمكن للعلماء وللباحثين أن يلاحظوا من تجاربهم العديدة التى اجريت على الاسماك ان ذكور بعض الانواع تسارع الى حماية مناطق غذائها ومعيشتها ضد أى عدوان خارجى إذا ما لمحت اللون الأحمر الذى ينبعث من بعض الاسماك الأخرى .

والمهم فى هذا ان العلماء قد استنتجوا من ذلك (طبعا فى ضوء العديد من التجارب المتكررة والشواهد التى أمكن ملاحظتها بدقة) ان هذا اللون الاحمر بالذات يثير فى هذا النوع من الاسماك استجابة دفاعية عندما يكون الزائر الغريب فى حزام منطقتها كما استنتجوا ايضا ان هذا التفاعل ينطوى على وظيفة سوية وعادية ما دام غرضه هو العمل على ابقاء الحيوانات الاخرى الغريبة بعيدا عن مناطق الغذاء أو التكاثر التى تقطنها هذه الانواع [٢] .

---

(١) Hazlett,B.A & Bossert,WA., A Statistical Analysis of the aggressive Communications systems of some hermit crabs.Animal Behaviour.1965.13.pp.327-73

(٢) انظر فى ذلك بوجه عام، Tinbergen,N.,The study of Instinct. London:Oxford University Press.1951.
وكذلك مقالته التى نشرها فى Quarterly Review of Biology
بعنوان : Derived activities;their causation, biological

كذلك كان المعتقد بالنسبة الى الاسماك ايضا انها نوع من المخلوقات التـي لا تسمع .ومع ذلك فقد أثبتت التجارب خطأ هذا الاعتقاد وأوضحت بما لايدع مجـالا للشك ان الاسماك تستطيع ان تسمع جيدا .بل انها تستطيع ان تميز بين نوعيـة وطبيعة الاصوات التى تسمعها .

وصحيح ان صوت الاسماك يختلف عن صوت الثدييات كما يختلف ايضا عن صوت الطيور من حيث انه ذات طبقة واحدة بمعنى انه لايعلو أو ينخفض كما هو الحـال بالنسبة إلى هذه الانواع .ولكن صحيح أيضا ـ بصدد هذه الناحية بالذات ـ أنـه (الصوت) مختلف الايقاع والتردد وكأنه أشبه بالاشارات التلغرافية .أى أنه قـد يكون ذا تردد عال أو تردد منخفض ،وهـذه الترددات ـ وذلك هو المهم ـ تسمعها الاسماك الأخرى فى النوع الواحد وتستجيب لها تماما مثلما نسمع نحن الدقات التلغرافية فندرك مضمونها ونستجيب من ثم لهذا المضمون .أو كأن الامر كله اشبه مايكون أيضا "باللغة" التى تنطوى عليها دقات الطبول عند كثير من الشعوب والجماعات البدائيـة وحيث يختلف الايقاع باختلاف المعانى التى يراد التعبير عنها .فهناك ـ على سبيـل المثال لا الحصر ـ دقات للحرب ودقات للفزع وللخوف ودقات للفرحة والنشـوة والسرور . . . . . الخ .

ومع أنه يصعب كثيرا توضيح الفوارق الدقيقة بين التعابير المختلفه التـى يستخدمها الانسان ، وبين تلك التى تستخدمها الحيوانات ما إذا كانت هذه الفـوارق هى فوارق فى النوع أو إنها مجرد فوارق واختلافات فى الدرجة فإن الشيء الـذى يعنينا هنا هو أن البحوث التى أجريت على القردة العليا،وهى كما اشرنا من قبـل من أذكى الحيوانات ، قد اكدت أن التعابير والاشارات السمعية لاتعتبر شيئا مألوفا وعاديا فى حياتها هى وحدها فحسب ،ولكن ايضا بالنسبة الى أنواع كثيرة مـن الطيور . فالكثير من الصرخات تحمل معانى التحذير والحث على الفرار .كمـا أن هناك من الطيور مايصدر أصواتا تحمل معنى الغزل والنداء وهذه يوجهـا الذكـور

Significance ,Origin and emancipation during evolu- =
tion" 1952 .27 pp.1 - 32

الى الاناث وبخاصة فى مواسم التزاوج والتكاثر.

واذا كان البعض من العلماء[١] قد ذهب فى تفسير ذلك الى القول بأن هـــذا المظهر السلوكى مما يمكن وصفه بأنه سلوك اجتماعى ،فاننا نجد شيئا مشابها لذلك لدى أنواع عديدة من الاسماك وغيرها أيضا من الكائنات .

ولئن كشفت الدراسات الحديثة عن ان الاشارات الكيميائية Pheromones أو اللغة الكيميائية بتعبير آخر تنطوى على غير قليل من هذا السلوك الذى سبقت الاشارة إلى بعض ملامحه.

فمن المعروف ان هناك بعض أنواع من النمل (التى يطلق عليه اسم Fire Ants) تطلق رائحة معينة اثناء عودتها الى شقوقها ومنافذها التى تختزن فيها الغذاء الذى جمعته .وهذه الرائحه تمكن النمل الآخر من تتبع المسيرة ،وان كانت (الرائحة) تضيع بعد وقت مما يجعل الغريب يضل الطريق الى اماكن الطعام[٢] .

ومع انه لايوجد لدينا الا معلومات بسيطه عما يعرف بلغة النمل عموما ،فان المعروف ان ثمه إشارات لمسية لدى هذا الكائن الغريب الدقيق حيث يحدث عندما يستفز مثلا أو يستثار بمؤثر قوى انه ينقل انفعالاته إلى غيره من الرفاق بواسطة تلامس قرون الاستشعار.كذلك نجد ان النمل الابيض المعروف باسم "الارضة" تأخذ جنوده فى ضرب الجدران الخشبية لمسالكها وممراتها برأسها ضربات

---

(1) Marler,P.,"Communication in Monkeys and Apes In Devore,I.(ed),Primates Behaviour: Field studies of Monkeys and Apes.N.Y.Holt Rinehart &Winston. 1965.

(٢) Bossert,W.H & Wilson,E.O.,"the Analysis of Olfactory Communication among Animals"Journal of theoretical Biology(J.Th.Biol.),1963.5.p. 449.

إيقاعية معينة ، فتثير هذه الضربات أو الخبطات غير ها من النمل •

وتعتبر لغة النحل من تلك اللغات اللمسية Tactile الاشارية التـــى يقال ان حل رموزها والتعرف على معلولاتها قد تطلب اضعاف الجهـود التيبذلت لحل رموز اللـغة الهيروغليفية •

ولقد لاحظ العالم الالمان فون فريتش Von Fisch [١] أن أســـراب النحل اثناء عودتها الى خلاياها تقوم بأداء بعض الرقصات بالغة التعقيد •وفى ضوء ملاحظاته المثابرة اكتشف فون فريتش انللنحل لغة رقص كما ان له لغة رائحة•كما اكتشف أيضا انه (النحل) قادر على ان يخبر وان يعلم غيره (من النحل طبعا) بوجود الـغذاء على بعد أو مسافه معينة ، بالاضافه الى بعض المعلومات عن نوعيــة الـغذاء وطـعمه ومذاقة وذلك وفقا لنوع الحركة أو الرقصة التى ترقص النحلة بها •

وكما قلنا وصف فريتش نوعين من الرقص عند النحل •هما الرقص الدائرى والرقـص الاهتزازى Waggle •وقد كان المعتقـد قديما ان الرقصه الدائرية وهـــى التى تدور فيها النحلة دورات متعاقبة ومتلاحقة وسريعة تعنى ان هناك مصــــدرا للرحيق على حين كان المعتقد ان الرقص الاهتزازى يعنى وجود مصدر لحبـــوب اللقاح•

ولكن فى ضوء المعلومات والملاحظات التى توافرت عند فريتش فقد تأكد له أن نوع الرقص انما يعنى اساسا البعد بوجه عام عن مصدر الغذاء••فاذا كان الرحيق الـــذى اكتشفته النحلة على مسافه أقل من ٥٠ مترا من الخلية فان النحلة تطير فى دوائـر صـغيرة حيث تتجه إلى اليسار ثـم الى اليمين ، وتأخذ فى تكرارا هذه الحركة الـــى ان يشاهدها النحل الآخر ، فيشترك مع النحلة فى الرقص بنفس الطريقة •وبهـــذه الوسيلة يدرك بقية النحل ان هناك كمية من الرحيق بالقرب من الخلية •

---

(١) Frisch,Von., Bees: Their Vision,Chemical Sence and Language.Ithaca:Correll University Press.1956.

كذلك فقد تأكد لفون فريتش ان حركة الرقص تحمل أيضا الى النحل نوعية الرحيق الذى تم العثور عليه وذلك عندما يشم ما علق بجسم النحلة عند اقترابه للمشاركة في الرقصة ٠وقد لاحظ فريتش انه كلما كان الرحيق اكثر وأحلى وأشهى اتسمت الرقصة بالسرعة والحيوية وبطول المدة٠

وبالرغم من الطرافة التى تعكسها ولاشك ملاحظات فون فريتش لحياة النحل ـ وسلوكياته ،الا ان هذه الملاحظات لم تسلم مع ذلك من الانتقادات التى وجهت اليها وبخاصة على ايدى فينر Wenner الذى ذهب الى انه وان كان قد يتفق معه عموما فيما ذهب اليه من وصف لبناء الرقصات وتشكيلاتها الخاصة ،الا انه يختلف معه فيما استنتجه من معانى حاول تقريرها وتعميمها ، بمعنى ان هذا البناء لا يعنى بالضرورة انه العامل الاساسى الذى يحدد سلوكيات النحل (١).

ولعلنا لم نذكر سوى بعض الامثلة القليلة عن هذه الاتصالات الاشارية الاخبارية المتبادلة ،ولكن المؤكد هو ان هنالك الآلاف من الامثلة التى يزخر بها هذا العالم الحيوانى المحيط بنا (٢).

Wenner, A.M., "Honey Bees" In Sebeok, T.A (ed.) (١) Animal Communication. Op·cit. pp. 89-110

(٢) كذلك فان لغة التفاهم والتخاطب بين الحشرات قد تكون عن طريق الصوت كما اشرنا فللحشرات اعضاء تلتقط الذبذبات الصوتية وهذه تشبه الاذان بالنسبة الى الانسان مثلا وان كان بينهما خلاف كبير اذ تستطيع اذن الانسان تسجيل نحو ثلاثين الف ذبذبة فى الثانية بينما اذن الحشرة تسجل اصواتا ذات ذبذبات اقل من ذلك بكثير من الصعب علينا ان نسمعها ٠فبعض ذكور حشره النطاط مثلا ترى وهى تحك ارجلها فى اجسامها فلا تسمع لذلك صوتا ٠ولكننا نشاهد هذه الاناث تهرع نحو الذكور بعد هذه العملية مما يدل على ان هذا الاحتكاك قد احدث اصواتا سمعتها الاناث وفهمتها ولم نستطع نحن ٠ ومنذ اكثر من مائتى عام شغل احد علماء الحشرات الايطاليين نفسه بدراسة اصوات البعوض وعرف ان ذلك الصوت يحدث بواسطة ذبذبات اجنحة البعوضة وتوصل الى حقيقة هامة هى ان قرون الاستشعار لاتعدو ان تكون آلة تلتقط البعوضة بها الذبذبات الصوتية٠

ولانريد الاستطراد فى هذا طويلا ولكننا نضيف ان الرائحه فى بعض تجمعات الاسماك ايضا كثيرا ما تكون هى اللغة التي يتفاهم السمك بها بدلا من الصوت كما انه كثيرا ما يحدث هذا التفاهم ايضا عن طريق اشارات بصرية بين نوعين من الاسماك وتحمل تلك الاشارات معنى الدعوة للتعاون لمصلحة الاطراف المتفاهمة حيث تقوم=

ومع ذلك فان النتيجة التى يمكن استخلاصها من استقراء التراث المتعلق بهذه الناحية ،هى ان ذلك التغاير المتكثر فى وظائف وبناءات وكذا العمليات الفسيولوجية الاساسية والميكانيزمات التى تتم بها هذه الاستجابات وهذه التغذية الاخبارية هى التى تجعل من الصعب تماما القطع بامكانية أن تحيط أيه نظرية واحدة فى السلوك الحيوانى بكل ماهنالك من مظاهر اتصالية.

ومهما يكن من أمر هذه الصعوبة فان الشىء الذى يتعين توضيحه هو أن الفوارق والاختلافات الرئيسية بين الاشارات الحيوانية وبين السلوك اللغوى إنما ينبغى البحث عنها فى تلك الاشكال النمطية أو المنمطة التى تتصف بنوع من الطبيعة الجامدة التى نجدها فى الحيوان ، علاوة على ان هذه الاشارات انما هى مسألة محكومة ومحددة بمختلف المحددات والقيودات الخارجية.

وعلى مايذهب Tiubergen فان هذه المؤثرات والقيود هى التى تثير أو توقظ بطريقة آلية وميكانيكية بحته ردود الفعل الداخلية التى تظهر فى السلوك الحيوانى. وهى ردود أفعال وتتمثل وظيفتها الاولية فى تأمين حياة الكائن والحفاظ على الظروف المواتيه التى تساعد على بقائه.

والواقع ان كل هذا يختلف تماما عن الطبيعة الذاتية للغة .فالانساق اللغوية أو النظم اللغوية قادرة بذاتها وبحكم طبيعتها البنائية على التعبير عن مختلف المواقف والقضايا والوضعيات .كما انها تسمح بالانتقال من موضوع لآخر آيا كانت طبيعة هذا الموضوع دون ما حاجة إلى المثيرأو المؤثر الخارجي.

واذا كانت هذه النتيجة تتفق مع ماسبق تأكيده من وجود فوراق أساسية بين الاتصال الحيوانى والتكلم الانسانى أو اللغة الانسانية ،فذلك لأن اللغة هى من ذات طبيعة الانسان ، ومن جوهر تكوينه وخصائصة المميزه له كانسان .وذلك ما لم يتوافر بأى وجه من الوجوه لأى كائن آخر من الكائنات.

= إحداهما بعملية تنظيف للسمكة الاخرى فتستفيد إحداهما بالتخلص من الطفيليات الضارة بينما تستفيد الاخرى ايضا باستخدام هذه الطفيليات كغذاء لها.

وفى ضوء كل هذا فلانكون مبالغين اذا قلنا ان اللغة إنما تعنى الانسانيـة وان الانسانية لاتعرف الا باللغة ..اما لـغة الحيوانات وما يصدر عنها من أصوات تنبعث من بطنها أو من فمهـا كالصيحات والصرخات والهمهمات فلا تتم جميعها إلا باعتبارها مسألة غرزية وفطرية وباعتبارها حركات تلقائية تتألف فى معظمها من اشارات مباشـرة ولكنها لاتدل المخاطب على شيء ما بمعنى انها ليست رموزا تشير أو تهدف الى أمـور يمكن ادراكها ،أو أمور غير مباشرة .أو هى بتعبير آخر ردود أفعال انعكاسيـــــة تماما كتلك التى تحدث فى المواقف المحددة وبسبب مثيرات معينة .

وكما ذهب آندرو Andrew فان كل الاصوات التى تصدرها الحيوانات بما فيهـا الرئيسيات العليا انما ينبغى إذن أن يتم تفسيرها فى ضوء مصطلحات الطـــرق المستخدمه فى التعبيرات الوجهية والحركية والمؤثرات والتأثيرات العضلية التى تصاحب المؤثرات الموقفية المحدده .فهذه الاصوات هى إذن نتاج جانبى by-product لمختلف الحركات الجثمانية والايماءات والاشارات التى يتحول بناؤها الى نمط روتينى جامد لابد وان يحدث اذا ما تكرر وقوع المثير (١) .

(٥)

النتيجة الاساسية التى يمكن أن نخرج بها من ذلك الاستعراض السابق هى أن السلوك الاتصالى الحيوانى لايمكن القول بانه لغة بذلك المفهوم الذى خلعناه علـى اللغة فى سياق حديثنا .ولكنه على أحسن الفروض نوع من الاشارات الاخبارية التى تخضع لحتمية المثير وحتمية الاستجابة حتى ان تشكك البعض فى صحة ذلـــك استنادا إلى ان هنالك بعض الحيوانات التى تعرف الكذب ومن ثم فقد تكـــون استجاباتهـا مضللة وهو ما اعتقدوا انه قد يتضمن نوعا من القصد .

---

(١) انظر فى ذلك مقالته الضافية: Andrew,R.J.I.,Trends in the Evolution of vocalization in the old world of Monkeys and Apes-Symp- Zool·Soc·Lond. 1963-10.pp.99-101.

وعلى الرغم مما قد يبدو فى هذا الاعتراض من مسحة منطقية ،فانها مسحة زائفة مع ذلك لان الاعتراض برمته مع الواضح انه لايرقى الى مستوى الحجة التى تجعلنا نسلم بأن الاشارات الحيوانية لاتشبه اللغة الانسانية لامن بعيد ولا من قريب.

وقدلاتكون هناك ضرورة لان نسوق الامثلة للتدليل على ذلك.ولكن هناك مع ذلك مثال يعتبر من أطرف ما قيل فى هذه الناحية يسوقة لنا Lorenz (١) وهو يحكى كيف ان كلبه قد حاول ان يخفى حقيقة انه اخطأه واعتبره أحد الغرباء لا سيده.فما كاد لورنز – والحكاية هنا على لسانه – يفتح الباب بمفتاحه حتى انطلق كلبه فى نباح عال بينما يندفع نحوه .ولكن حالما تعرف الكلب على أن الزائر هو سيده بدا عليه التردد وتوقف للحظات لم تطل ليندفع الكلب متسللا من بين ساقيه متجها الى البيت المقابل حيث تعود على الصياح والنباح كلما رأى الجار.وكان تصرفه يبدو وكانه انما كان يقصد ذلك الجار منذ البداية. وقد يكون فى مسلك الكلب ما يعكس نوعا من الاتصال ،ولكن الواضح انه لايمكن تشبيه هذا المسلك باللغة او القول بانه حتى يشبه اللغة (٢) .

وعلى ذلك فنحن لو سلمنا بأن دراسة الاشارات الحيوانية لاتلقى بالضوء على اللغة الانسانية كما هو واضح أو على الكيفية التى نشأت بها وتطورت، فكيف يكون السبيل إذن الى تلمس هذه الناحية؟

وقد لانكون هنا بصدد معالجة هذه الناحية التى تتعلق بالاكتساب اللغوى بمعناه الاصطلاحى، ولكن من المهم القول مع ذلك بأن هناك كثير من الشواهد التى توحى بوجود مصدرين يمكن اللجوء اليهما لتوضيح هذه الناحية المتعلقة بالسؤال.
أما المصدر الاول فهو الذى اكد عليه Buhler (٣) فى كتاباته وفى بحوثه ويتمثل

(١) Lorenz,K.,Man Meets Dog.London:Methuen.1954

(٢) Ibid.p.p.216-217

(٣) تعتبر كتابات وبحوث كارل بوهلر من الكتابات الرائدة فى هذه الناحية وبخاصة من منظوره الخاص الذى ربط فيه بين نشأة اللغة والمراحل التى يمر فيها الطفل .وان كانت معظم كتاباته حول الموضوع لم تتم ترجمتها عن الالمانية حتى الآن ربما لأن غالبيتها كان فى الدوريات العلمية المهتمة بهذه النواحى أساسا.

في الاهتمام بنطق الطفل وكيفية استخدامه للاصوات الكلامية وذلك على اعتبار ان الطفل يقدم لنا الفرصة الوحيدة لملاحظة اللغة في مراحلها الاولى والمبكرة تماما .

أما الاتجاه الثاني فيتمثل فيما قد يوجد في النطق والكلام من عيوب وأخطاء واضطرابات . وهو الاتجاه الذي تزعمه رومان جاكوبسون وبخاصة في الاربعينات من القرن ، على إعتبار ايضا ان هذه العيوب هي التي تقدم الفرصة الفريدة التي تمكن من ملاحظة اللغة في مظاهرها "المتفككة والمتحللة"[١] .

ومع ان الدراسات اللغوية الحديثة المعنية بنمو اللغة وبتطورها سواء لدى الأسوياء أو غير الأسوياء أو حتى لدى المتخلفين قد تطورت بشكل ملحوظ عما نجده في هذين الاتجاهين الاكلينيكيين السابقين ، وبخاصه في العقدين الاخريين[٢] ،

فقد ركزت غالبية هذه الدراسات على كيفية اكتساب العناصر الاصطلاحية والانماط والتراكيب اكثر منه التركيز على المقولات التصورية والعلاقات التي توجد بين هذه التراكيب، بمعنى ان هؤلاء قد افترضوا مسبقا ان نوعية القضايا التي يعبر عنها الاطفال والطرق أو المظاهر الكلامية التي يتم فيها هذا التعبير تشابه تماما مانجده لدى البالغين ، وهو افتراض لم تتأكد صحته حيث أثبتت العديد من التجارب والبحوث أن الارجاعات السلوكية إنما تكتسب لأنها وظيفة لتفاعل معقد بين المبادىء والعناصر الفطرية في الكائن والعملية التعليمية التي تتدخل الظروف البيئية المعينة في تحديد محتواها بشكل ملحوظ وهو ما عززته على اي الاحوال واحدة من أهم الملاحظات التي لاحظها لينبرج Lenneberg الذي اكد ان اللغة عند الطفل إنما تنمو وفقا لجدول أو لحساب أو بيان محدد نسبيا ، حيث تنعدم تدريجا وبشكل منتظم تلك الصرخات وانماط الصياح ليظهر ما يشبه لغة المناغاة ومن بعدها البأبأة Babbling ثم الكلام الاكثر اكتمالا ، وكلها عمليات تتم وفق ميكانيزمات

---

(١) Jackobson, R., Kindersprache, Asphasie und Allgemeine Lantgesetze, Uppsala. (Eng. Trans., child Language, Aphasia and phonological Universals. the Hague: Mouton 1969.

(٢) McNeill, D., The Development of Language In Mussen. p. A. (ed.), Carmichael's Manual of child psychology. N. Y. Wiley . 1969.

منتظمة ومحددة تظل لها فاعليتها حتى وان تعرض الطفل لبعض ما قد يؤخر نطقه الواضح السليم [١].

ومهما يكن من امر فان الذى لاجدال فيه هو ان كل ما سبقت الاشاره اليه من صيحات وصرخات وهمهمات وما الى ذلك مما تصدره الحيوانات والطيور من أصوات انما تفتقر كلية إلى نوع البناء اللازم لتوليد اللغة الانسانية .

وصحيح ان هناك العديد من البحوث التى أمدتنا بثروة هائلة عما يتعلق ببيولوجيا اللغة بداية من تلك النوعية من الدراسات التى اهتمت بتشريح أعضاء النطق والكلام بغرض استجلاء وظيفتها ، إلى محاولة فهم الارتباطات التى تقوم بين مختلف الاصوات اللغوية ، أو حتى أية أعراض أو اصابات مما يعتقد أن لها علاقة بالمخ . ولكن المؤكد مع ذلك انه على الرغم من كل هذا الكم المتراكم من المعلومات فقد ظلت تلك الاصوات الحيوانية عند ذلك الحد (الحيوانى) لاتتعداه ولاتتجاوزه والسبب هو ان الانسان مزود بالعقل الذى هو سر خاص به وحده [٢] .

وهذا يعنى ضمن ماينعنيه الاعتراف بعجز الدارسين وبفشلهم في التوصل -حتى الآن - إلى نظرية بيولوجية للغة قادرة على الاقناع ، وكأنما كل مظاهر التقدم المعرفى فى هذا المجال لم تفعل اكثر من انها اضافت الى حدود جهلنا الشديد .

---

(١) Lenneberg.E.H.,"Speech development:its anatomical and physiological concomitiants ·In Carterette, E.C.(ed.),Brain function:vol.3. Berkeley and Los Angeles:University of california Press.1966.

(٢) Lunneberg.,Bi:ological Foundations of Language.Op.cit.P.89-29.

الفصل الثاني

النطق الانسانى واصدار الأصوات

الانسان هو إذن الكائن الوحيد القادر على النطق والكلام ٠وبشكل اكثر عمومية هو الكائن الوحيد من دون الكائنات الحية جميعها الذى يستطيع أن يستخدم الرموز على اختلاف انواعها كالكلمات والصور والاعداد ٠٠٠ الخ،كما انه هو وحده الذى يستطيع قفز وعبور أية مسافه تقوم بينه وبين الآخرين وأن ينقل اليهم افكاره ومشاعره ورغباته واتجاهاته ،وأن يشاركهم فى الوقت نفسه معتقداتهم وتقاليدهم وتراثهم وكل معارفهم وكافة ما تشتمل عليه ثقافتهم ٠

بمعنى آخر الانسان هو الكائن الوحيد الذى يستطيع الادراك والفهم وهذا بالضبط ما يجعله عرضة ـ فى الوقت نفسه ـ لأن يسىء الفهم أيضا وأن يقع فى الخطأ، ولكن لانه (انسان) فان لديه القدرة على أن يختزن التجربة وعلى أن يتعلم منها وأن يستوعب دروسها ٠وعلى هذه القدرة تتوقف كل منجزاته وكل مظهر من المظاهر التى نطلق عليها لفظ الحضارة ٠فبدون هذه القدرة التى هى من ذات تكوينه كما قلنا ـ كان من المستحيل أن يكون هناك تخيل أو فكر او معرفة من أى شكل أو لون (١) ٠

والواقع ان الفكر والاتصال والثقافة وكذا المجتمع قد تم نسيجها جميعا بواسطة اللغة٠ وان كان هذا النسيج قد تمت حياكته بطريقة جعلته يبدو غريبا وفى الوقت نفسه حساسا بدرجة مدهشة حتى ليتأثر تأثيرا بالغا بأية قلقلة أو مثير (٢) ٠

ومع ذلك فان وجود هذا النسيج وبقائه ،او وجود اللغة بتعبير آخر ،انما يتوقف فى النهاية على مدى القدرة المدربة التى تتمتع بها الكائنات البشرية لانتاج تلك الاصوات المميزة التى يمكن التعرف عليها مباشرة سواء بذاتها أو عن طريق،

---

(١) Black,M.,Op.cit.P.2.

(٢) Ibid:P.12

الآخرين .أما هذا المزيج المعقد من الخبرات والمهارات فلا بد وان يتعلمه كل طفل منذ تلك اللحظات الاولى التى يبدأ فيها بالتفاعل مع وسطه الاجتماعى المباشر.

واذا كنا قد انتهينا فى الفصل السابق الى ان لغة الاشارات والصرخات والهمهمات التى تصدر عن الحيوانات لاتلقى بالضوء على الكيفية التى تتم بها عملية النطق الانسانى أو عمليه الاكتساب اللغوى Language Acquisition كما انها لاتفيد بشيء ذى قيمة فى التعرف على أصل اللغة والكيفية التى نشأت بها لدى الانسان ،فتكون نتيجة ذلك انه يلزم إذن البحث عن أرضية مغايرة تماما .

والواقع إنه لأجل الوصول الى فهم سليم للغة الانسانية فينبغى ان يظل واضحا فى الذهن تلك الأسبقية المطلقة Absolute Primacy للكلام(١) عن أية ناحية أخرى،وقد مثلت هذه القناعة نقطة تحول ملموسة فى البحوث اللغوية،فقد لوحظ ان غالبية العلماء والباحثين حتى من بين أولئك الذين كانوا يميلون فى دراساتهم للغة الى عدم الاخذ أو التسليم بالمبادىء أو الغايات النهائية، قدأصبحوا اليوم اكثر اتفاقا بيما بينهم على أهمية أن تبدأ الدراسة العلمية الجادة للغة بهذا التسليم بأسبقية الكلام(٢) .

ومع ذلك فلم يكن الامر على مثل هذا النحو المغالى فيه من التبسيط والسهولة، ولكنه قوبل فى الحقيقة بكثير من الاعتراضات التى انبنت على القول بأن الكلام والكتابة قد يبدوان من وجهة نظر معينة على إنهما كشف لشيء واحد أو وجهين لعملة واحدة بالضرورة.

وبالرغم من ان هذا قد يبدو صحيحا فى ظاهره ،الا انه ينطوى على نوع من المغالطة التى يتعين الالتفات اليها ، لانه حتى مع التسليم بأن الكلام والكتابة هما

---

(١) The New Encyclopaedia Britannica.1986.P. 575.

(٢) Black,M.Op.cit.P.5.

من غير شك وسيلتان ضمن وسائل الاتصال ،فأن هناك كما اوضح ذلك تشارلس هوكيت[1] باصرار متزايد أولوية مطلقة للكلام وهى أولوية من الوضوح حتى ان البعض قد سلم بها دون ما مناقشة ،وبخاصة فى ضوء تلك التفرقة الحاسمة التى قررها فردينان دوسوسير عندما اكد على أن هناك تمييزات فارقة وجوهرية بين الكلام أو لغة الفرد La Parole وبين اللغة Le Langage أو النسق اللغوى المعيارى بتعبير أدق .

فالكلام بالنسبة إلى دوسوسير هو الاحداث المنطوقة فعلا من المتكلم الفرد،أى انه نشاط فردى يتم عن طريق الافراد المتكلمين أنفسهم وليست الجماعه كجماعة ولذا فهو يخرج من مقولة الظاهرة الاجتماعيسة التى وصفها دور كايم بالعموية وبالشيوع وبالجبر والحتمية ،وذلك كله على خلاف اللغة Le Langage التى ينبغى ان تؤخذ بالمعنى العام والمطلق فهى"كلام" ينقصه التكلم أو هى الجماع الكلى للعادات اللغوية التى تسمح للفرد بأن يفهم وان يجعل الآخريين يفهمون[2] . وبالنظر الى هذا الاساس المشترك للغة (بهذا المعنى) بين الفرد والجماعة أو المجتمع فهى مما يصعب ايضا إدراجه كليه تحت الظواهر الاجتماعيهبالتعبير الدوركايمى لاشتمالها على العوامل الفردية .التى نسبها دوسوسير الى الافراد المتكلمين .

وفى هذه الحالة يتبقى اللسان La Langue أمام دوسوسير وهو الذى يعتبره فى الحقيقة موضوع الدراسة العلمية وذلك على اعتبار انه ينظر اليه كنظام محدد من القواعد الكلية التى تنظم المفردات والتراكيب ولانه يتصف بالتجانس فيسهل من ثم ملاحظته وتصنيفه كحقيقة أساسية بارزة.

---

(١) Hockett,C.F., Acourse in Modern Linguistics. the Macmillan Company.N.Y.1958.P.4

(٢) Saussure.F.de.,Cours de Linguistique generale English translation,by wade Baskin, Course in general Linguistics N.Y.Philosoplical Library. 1959.pp.138-141.

وقد لايكون هنا مجال الحديث بالتفصيل عن آراء دوسوسير بصدد هذه الناحية ولاتلك الآراء التى يعبر بها أوتو يسبرسن Jespersen عن عدمتقبله لكثير مما ذهب اليه الاول فى تفرقته التى اقامها بين هذه المصطلحات الثلاثه. ولكن الشيء الهام والذى يعنينا هنا هو ان النقطة التى يقررها هوكيت والتى اصر عليها (وهو لايختلف فى هذا عن يسبرسن وعن دوسوسير نفسه) بصدد أسبقية الكلام هى من الوضوح حتى يصعب الاختلافيها • وكما يقول بلاك فان المسلم به ان الكائنات البشرية انما تتعلم أولا كيف تتكلم فى تلك المواقف البسيطة المباشرة tete a tete حيث توجد بالفعل كل الملامح والخصائص الجوهرية للاتصال ، ذلك فى الوقت الذى لايمكن القول بأن كل الذين يتكلمون يعرفون القراءة والكتابه بالضرورة•

ونحن لانعتقد ان هذه الناحية فى حاجة الى مزيد من التأكيد ، فالشيء الذى لا جدال فيه هو ان الانسان منذ أول ظهوره كمخلوق عاقل كان مخلوقا ناطقا ، أى له لغة هى التى ميزته عن غيره من المخلوقات • ومع اننا لانعرف بالضبط او على وجه اليقين متى كان ذلك فان عمر الكتابه لايتجاوز على احسن الفروض سته الاف عام• ويكون المعنى الوحيد لذلك هو ان الانسان قد مرت عليه الاف السنين ولغته الانسانية تنقل من جيل لآخر الى ان اكتملت صيغتهاتماما كوسيلة منطوقة للاتصال •

والواقع ان اللغة الانسانية أياما كانت الصفات التى يمكن أن نصفها بها ليست فى آخر الامر سوى نسق أو نظام أشبه ما يكون بالسيمافور باعتبارها اداة للتخاطب، واذا كنا قد قلنا توا ان أحدالايعرف على وجه الدقه كيف وجدت هذه اللغة الانسانية، فان الذى لاجدال فيه هو انها باعتبارها نظاما اشاريا تستخدم كمادة أساسيه لها الاصوات الملفوظة أو المسموعة Vocal sounds ومن هنا يأتى التأكيد المستمر على ضروره ان تتذكر دائما ان اللغة هى شيء منطوق إذن أو شيء يتم عن طريق النطق والكلام • وهذا يعنى بالدرجة الاولى إن اللغة المكتوبة ليست فى آخر الأمر سوى تخريج أو اشتقاق •

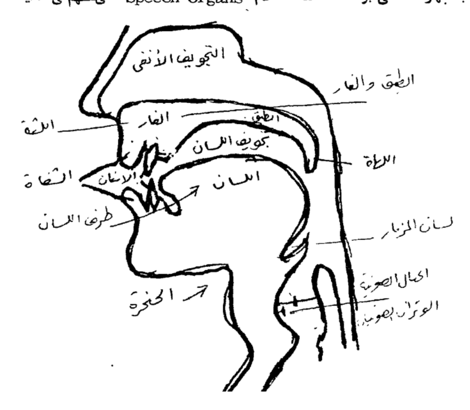
واذا كنا نعرف تماما ان الافراد يتعلمون النطق والكلام قبلما يتعلمون الكتابة فليس هناك من الأسباب الجادة أو الخطيرة ما يجعلنا لانصدق ان ذلك هو مايحدث

أيضا بالنسبه الى الجنس البشرى كله • فهناك جماعات ومجتمعات صغيره تعرف الكلام دون ان تعرف القـراءة • ولكننا لانعرف شيئا عن وجود مجتمع انسانى يعـــرف الكتابة أو يعرف اللغة المكتوبة دون ان تكون لديه معرفة او دراية باللغة المنطوقة •

اما ما قد يقال احيانا عن تلك اللغات الاشارية التى يستخدمها الصم والبكم فهذه ايضا ليست استثناء من تلك القاعدة الاساسية العامة ، لانه وان كان يستخدمهـــا بعض الناس الذين لايستطيعون الكلام والذين لم يكن بمقدرهم الحديث أبدا مـــن قبل ، فان هذه اللغات ذاتها هى تحوير وتوليد من اللغة التى ينطقها المجتمع الذى يوجودن فيه •وعلى ذلك فانه يصبح من المهم تماما التأكيد مره ثانية على انـــه لكى نفهم اللغة الانسانية فهما جيدا وسليما فلابد أن نتذكر دائما تلك الاسبقيـــة المطلقة للكلام على ماأشرنا من قبل •

(٢)

ونحن لن نتعرض تفصيلا للجانب التشريحى الذى يمثل الاساس المـــــادى والفسيولوجى للكلام • ولكن من المهم مع ذلك ان نعرف ان تلك الاصوات المسموعـــة أو المنطوقة التى قلنا انها تمثل (المادة الخام) للغة انما يتم توليدها فيما يعـرف بالجهاز النطقى بواسطة اعضاء الكلام Speech Organs التىتسهم فى عمليه النطق •



وبالنظر الى الشكل السابق رقم(١) نجد ان الجهاز النطقى يتكون من عدة أعضاء بعضها متحرك والبعض الاخر ثابت وغير متحرك على مايلى:

١-الشفاة Lips وهذه تشمل الشفة العليا والشفة السفلى وهما عضلتان ينتهى بهما الفم ويعتبران من أعضاء النطق المتحركة بمعنى انهما تنطبقان وتنفرجان اراديا وربما بصورة غير ارادية ايضا فى بعض الاحيان •

٢- الاسنان Teeth

٣- أصول أو حافة الثنايا Alveolar ridge

٤- سقف الفم ويتكون من الغار Plate وهو صلب وغير متحرك ،ومن الطبق وهو مرن رخو متحرك Velum soft plate .

٥- اللهاة uvula وهى عبارة عن قطعة لحم متحركة وعدلاة الى أسفل فى أقصى سقف الفم (الحنك) وتعمل كصمام للهواء الخارج من الحنجرة فينغلق الهواء عند ارتفاعها لتتاح الفرصة أمام دخول الهواء الى الفم •

٦- اللسان Tongue ويعتبر من اهم اعضاء النطق فى الجهاز النطقى وهو عبارة عن عضو مرن الحركة الامر الذى يؤدى الى اختلاف الاصوات وتغايرها •

٧- لسان المزمار Epiglottis وهو فى الحنجرة كغطاء لها دون ان تكون له وظيفة فى اصدار الاصوات الانسانية •

٨- الحلق Pharynx عبارة عن تجويف بين الحنجرة والفم يحدث فى داخله الرنين الذى يضخم الاصوات التى تصدر عن الوتر ين الصوتيين •

٩- الحنجرة Largnx فيها الوتران الصوتيان او مايعرف بالحبال الصوتية Vocal cords التى تعتبر من أهم أعضاء الكلام والنطق بالاصوات المتحركة بخاصة •

١٠- القصبه الهوائية Windpipe وهى فراغ يقع موازيا للعمود الفقرى يمر بها الهواء قبلما يصل الى الحنجرة •

١١- الرئتان Lungs وهما وان كانتا لايصنفان تقليديا ضمن الجهاز النطقى الا انه يستحيل الكلام بدونهما باعتبارهما المخزن الذى يختزن فيه الهواء الذى يعتبر المادة الاولى لوقائع اللغة وأحداثها وان لم يكن لهما دخل أو تأثير فى تشكيل الأصوات

اللغوية مع ذلك[١] .

وقد يبدو للبعض اننا اطلنا بعض الشيء في شرح الجهاز النطقي وتبيان وظائف اعضاء الكلام٠ولكن من المفهم مع ذلك ان نشير الى ان هذه الاطالة كانت مسألة ضرورية كي نفهم الكيفية التي تصدر بها الاصوات الانسانية وهذه عملية بالغة التعقيد لدرجة مذهلة[٢] .

وربما كانت اهم الامور التي ينبغي ابرازها ونحن بهذا الصدد ان التكلم Speaking هو من حيث الماهية والجوهر نتاج جانبي by-production لازم عن عملية جسمانية مادية يتم بها اخراج هواء الزفير من الرئتين محملا بثاني اكسيد الكربون بعدما تكون الرئتان قد قامتا بوظيفتهما العادية في التنفس٠

---

(١) وعلى الرغم من ان البعض يرى ان هذه الاعضاء جميعها لم تخلق خصيصا للنطق وانما للقيام بأعمال وبوظائف اخرى باعتبارها اعضاء في الجسم الانساني ولكن الانسان قد استعملها بذكائه في صنع اللغة فان الواضح ان مثل هذا القول ينطوي على تبسيط للامور كما أنه يتجاهل أنه من حيث الاصل كانت وظيفتها كأعضاء للنطق لابد ان تكون مسأله متضمنة في الغرض من خلقها على هذا النحو وعلى تلك الصورة التي هي عليها فما كان بمقدورها على اية حال ان تكون اعضاء نطق مالم تكن كذلك ومن هنا فلا معنى إطلاقا لمثل هذا التقرير على الرغم من شيوعه وانتشاره ٠

(٢) والحقيقة ان البعض يذهب الى أن عملية اصدار الاصوات هي من التعقيد لدرجة يصعب وصفها ويضربون لذلك مثلا ان محاولة اعطاء وصف سريع لصوت بسيط للغاية مثل kick سوف تستوقفه صفحة كامله في أي مرجع مع مراجع اللغة٠

(انظر في ذلك: Morton W-Bloomfield and Leonerd Newmark; A Linguistic Introduction to the History of English; Alfred A.Kropf,,Inc,N.Y,1963 pp-54-55.

والاغلب ان الانسان يتنفس الهواء بطريقة غير مسموعة ·ولكن فى مقدوره مع ذلك إذا ما استخدم او لجأ الى بعض الحركات فى جهازه النطقى ان يتدخل فى إخراج تيار الهواء airstream مما يتولد عنه بعض الاصوات التى يتكون منها الكلام·

نقطة البدء إذن فى اصدار الاصوات هى هواء الزفير الذى تدفعه الرئتان نتيجة لعملية التنفس ذاتها مارا بالحنجرة ثم التجويف الحلقى متجها الى الفم حيث تنتج الاصوات الفمية،أو متجها الى الانف فتنتج الاصوات الأنفية·ولكن هذه الاصوات تتنوع من حيث شكلها نظرا للاصطدامات التى يصطدم بها الهواء بالفم او الانف وحيث يقوم اللسان أيضا والشفاة والاسنان متعاونيين فى عملية التشكيل هذه وفق الاوضاع التى يتخذها كل منها ووفق طريقة التنفس ذاتها التى تتم أثناء النطق ·

ويضعنا هذا التصور الذى سقناه لكيفية حدوث الصوت اللغوى أمام أمرين لابد من اعتبارهما وهما :

الاول هو أن هذه العملية يجب أن تتوافر فيها من ثمه ثلاثة عوامل هى أولا : وجود تيار هواء وثانيا،وجودالقناة أو الممر المغلق،وثالثا واخيرا وجود مايعترض هذا التيار الهوائى فى موضع أو آخر فى الجهاز النطقى·

أما الأمر الثانى الذى ينبغى اعتباره ايضا فهو ان هذا التصور يثير فى الواقع كل المشكلات المتعلقة بالجوانب الفونولوجية او مايعرف بعلم الاصوات الكلامية phonology ،والجوانب النحوية او التركيبية وهما جانبان لابد من توافرهما فىأى بناء أو بنية لغويسة،

وفى الحالة الاولى مثلا تتكشف لنا أسس تصنيف الاصوات اللغوية سواء من حيث ما اطلقنا عليه مواضع النطق points of articulation او مخارج الصوت بوجه عام او من حيث صفات هذه الاصوات اللغوية ·وفيما يتعلق بالناحية الاولى فقد يكون الصوت ناجما عن الشفاة مثلا ويسمى فى هذه الحالة شفويا by-dental او ناتجا عن الاسنان فيطلق على الصوت إنه صوت أسنانى dental كما قد يكون الصوت صادرا عن اللثة فيسمى لثويا

Alveolar ،كما يسمى لهويا Uvularإذا ماصدر الصوت عند التقاء مؤخرة اللسان باللهاة٠٠٠الخ[١] .

أما من حيث صفات هذه الاصوات اللغوية فهناك اولا ذلك التقسيم الشهير الذى يقسمها الى الصوائتVowels والصوامت او مايعرف بالاصوات الساكنة Consonants وذلك وفقا للدرجة التى يكون بها الصوت واضحا فى السمع حيث نجد الصوائت اكثر وضوحا من الصوامت لأنها تسمع على مسافات ابعد من الأخرى اذا مانطقت نطقا سليما٠

كذلك تنقسم الاصوات من حيث صفاتها الى أصوات مجهورة أو مسموعة Voiced واصوات مهموسةwhispering,voiceless نسبة الى اهتزاز الوتران الصوتيان (فى الحالة الاولى) أو عدم اهتزازها وبقائها بعيدين الواحد عن الاخر مما يسمح بمرور تيار الهواء القادم من الرئتين الى التجويف الحلقى phargngal دون أن يتذبذبا (أعنى الوترين الصوتيين فتخرج الاصوات من ثم مهموسة٠

ذلك بالاضافة الى مايعرف بالاصوات الاحتكاكية fricatives او الرخوة فى مقابل الاصوات الانفجارية أو الشديدة plosive أو كما يطلق عليهما أيضا الاصوات الانسداديةocclusives او الاصوات الوقفية stops.كما قد يكون الصوت مطبقا أو مفخما ،وذلك فى مقابل الصوت غير المطبقnon-vel-non arizedأو غير المفخم non-emphatic أو صوتا مرققا كما يسمونه أحيانا٠

---

(١) هذه المواضع تشترك فيها غالبية اللغات الانسانية وقد اهتم اللغويون العرب بهذه الناحية حيث اطلقت عليها العديد من المسميات فنجده عند ابن سينا على سبيل المثال "المحابس" وعند ابن دريد "المجارى" وان كان المحدثون اميل الى الاخذ بمصطلح "موضع النطق" كما اشرنا ٠وقد يكون من المهم ان نشير هنا ايضا الى ان تلك النواحى قد استخدمت بنجاح فى تصحيح بعض مظاهر الاضطراب اللغوى (أرجع فى ذلك الى: "Phonetics"in the New Encyclopaed-ia Britannica ,1986.

اما فيما يتعلق بالامر الثانى (بصدد المشكلات الفونولوجية) فلابد من توضيح ناحيتين بادىء ذى بدء..الاولى انه عند سماع أية لغة من اللغات فالاغلب اننا نستمع الى مجموعة مختلفة من الاصوات التى لايوجد فيها صوتان متشابهان وهذه الاصوات هى التى تعرف باسم الوحدات الصوتيه او الفونيمات phonemes .

اما الناحية الثانية فهى ان علم الاصوات التركيبى او مايعرف باسم علي الأصوات التشكيلي لايهتم بالنظر الى هذه الفونيمات او الوحدات الصوتية كل منها أو بعضها على حدة اى بمعزل عن سياقاتها ولكن يدرسها او يهتم بها باعتبارها وحدات فى النسق أو النظام الصوتى المعين .

وبالرغم من أن هذه الاصوات أو الوحدات الصوتية التى يصفها البعض بأنها ذات طبيعه ذرية مجردة (١) هى أصوات محدده العدد ويبدو لأول وهلة وكأنها لاتتسم بشيء من النظام أو الترتيب فمن المتفق عليه عموما بين اللغويين المحدثين ان الفونيم هو بالفعل أصغر وحدة صوتية لايمكن تحليلها أو تقسيمها إلى ما هو أصغر منه.ولكن من الناحية الثانية.فانه يرجع الى هذا الفونيم أو الحدة الصوتية المجردة هذا التغاير الذى نلحظه فى المعانى نسبة إلى تغير موقع الفونيم فى المحيط الصوتى الذى يوجد به (٢) وبهذا يختلف هذا الفونيم او الصوت الكلى عن تلك الصور أو التنوعات والتغيرات الصوتية التى يتحقق بها تأثيه من موقعه فى الكلمة والتى يطلق عليها مصطلح الألوفون Allophone .

ويكون معنى ذلك إذن ان هناك بالفعل ارتباطات معينة بين الاصوات تتكرر بدرجه أو بأخرى .كما يوجد أيضا قدر من الاتساق والوضوح اللذان يعكسان تنظيما معينا للكلام بحيث يصبح من السهل ترتيب الكلمات والروابط ووضع التشكيل فوق الحروف والكلمات والجمل والعبارات .وما ان يكتمل مثل هذا التشكيل حتى نكون

---

(١) Black.Op.cit .P.29

(٢) R.A.Hall.,Linguistics and your Languuge . Doubleday & Company Inc.,Garden City.N.Y. 1960.p.37

في الواقع بصدد لغة قد تكامل بناؤها بقدر أو بآخر ٠

وقد لايكون من الاهتمامات الحقيقية لهذه الدراسة اعطاء صورة شاملة وتفصيلية لهذه الفونيمات والالوفانات، ولكن نظرا لأهمية المصطلحين فيما تتعرض له اللغة من مظاهر التغير سواء أكان تغيرا صوتيا أو بنائيا أو دلاليا وهو مايمثل جانبا رئيسيا في دراستنا الميدانية فقد يكون من المفيد ان نلقي بعض الضوء على هذه الناحية٠

ولقد قلنا من قبل إن الفونيم هو أصغر الوحدات الصوتية التي يمكن عن طريقها التمييز او التفريق بين المعاني(١) ومع أن اللغويين لايختلفون بصدد هذا عموما فلا يعني هذا اتفاق كلمتهم على مفهوم واحد واضح ومحدد لهذا المصطلح خاصة اذا اردنا ان نتبين طبيعة الدور الذي يقوم به مما يكشف في الحقيقة عن اختلاف حول الأساس الذي يبني عليه٠

ولقد عرف البعض(٢) الفونيم بأنه مجموعه أو عائلة من الاصوات التي تستخدم في لغة معينة بشكل يستحيل معه ان يتقابل أو يتشابه عضوان (صوتان) من هذه المجموعة في الاطار الصوتي نفسه٠كما ذهب البعض الآخر الى وصفه بأنه فكرة، أو تجريد للصوت يختلف كلية عن أي صوت واقعي ٠ على حين عرفه البعض الآخر بأنه مكان أو موضع في نظام الاصوات الذي تستخدمه لغة معينة(٣) ٠

---

(١) يختصر البعض هذا المفهوم فيذهب الى ان الفونيم هو أصغر وحدة صوتية دالة ويرى هؤلاء ان المفهوم يستمد اصوله من المقطع syllable اليوناني eme الذي يستخدمه اللغويون المعاصرون بمعنى وحدة وعلى ذلك فيدل phon-eme على الوحدة الصوتية على حين يدل مصطلح آخر مثل morph-eme على وحدة (Unit) الشكل أو التركيب٠

(٢) Gleason,H.A.,An Introduction to Descriptive Linguistics,Holt,Rinehart&Winston,Inc., N.Y.1955.p.24.

(٣) Twaddell,H.W.,"On Defining the Phoneme,in Martin Joes,ed, Readings in Linguistics.3rd ed . American Council of learned societies,N.Y.1963.p.68.

ومع ان البعض لايسلمون بأن هذه الاختلافات فى التعريف تمثل أعراضا لعدم وجود اتفاق أساسى حول الاستخدام الصحيح أو على الاقل الاستخدام المرغوب فيه للمصطلح، وان الامر كله لايعدو ان يكون نوعا من التداخل والغموض التصورى بصدد مكانة مصطلح يتسم بالتجريد وبالعمومية ، الأمر الذى يمكن أن نلتقى به فى مختلف التصورات الفلسفية أو المنطقية ،الا أن هناك على الطرف الآخر من لايقبل هذا الموقف على علاته وفى اطلاقه ويرى ،أنه حتى مع التسليم المبدئى بأن المصطلح يتسم بالتجريد وبما اطلقوا عليه الغموض الفلسفى فانْ هذا كله لايوثر فى القضية الرئيسية بصدد ضرورة وضوح المعنى حتى بالنسبة الى أكثر المصطلحات والقضايا الفلسفية غموضا وابهاما فبدون هذا الوضوح سوف يكون من المستحيل التعرف حتى على الوظيفة اللغوية التى يقوم بها (١) .

والحقيقة ان الحاجة إلى وجود مفهوم واضح لهذا المصطلح هى من الوضوح بمكان حتى وأن كان الشيء المتوقع دائما أن الناس عندما يتحدثون بلغة ما فان المتكلم أو السامع عادة ما تكون لديه فكرة واضحة نوعا ما أنه يستخدم عددا محددا من الذاتيات وأن التغايرات التى يلحظها فى الاصوات الواقعية إنما ترجع أصلا إلى اختلاف مواقع هذه الذاتيات ومن ثم فقد يبدو التساؤل عما يعنيه الفونيم بالفعل أشبه بالتزيد لاطائل من ورائه .

(١) ويتفق هذا الموقف كثيرا مع ماعبر عنه لود فيج فتجنشتين الذى غيرت فلسفته من مفهوم الفلسفة والفكرة التقليدية عن مجالها ووظيفتها .فالفلسفه عند فتجنشتين عبارة عن تحليل اللغة كما انتقل مجال البحث فيها من البحث فى الاشياء فى ذاتها أو الوجود من حيث هو موجود أو العله أو المطلق او الجوهر واللامتناهى .. الخ لبيان ماله معنى منها وما لامعنى له ،او لبيان الصحيح منها والخاطىء فى ضوء الاتفاق مع قواعد الاستخدام العادى السليم للغة .ومن هنا فيمكن القول بأن فلسفة فتجنشتين قد تمثلت مهمتها الرئيسية فى تحليل مشكلات الفلسفة بدلا من اقامة انساق فكرية او ميتافيزيقية .فهى فلسفه للفلسفة ان صح التعبير طالما ان عمل الفليسوف هو تحليل اللغة التى يقول بها مايقول وهذا مايستدعى الجلاء والوضوح حتى وإن كانت مادة حديثة هى تصورات ومفهومات فلسفيه او منطقية مما قد يوصف بالتداخل والغموض او بالتجريد والعموميه والشمول .

(انظر ذلك : عزمى إسلام .لودفيج فتجنشتين ،نوابغ الفكر الغربى. الكتاب رقم ١٩ . دار المعارف بمصر) .

ومع ذلك فان مسألة ادراك هذه الحقائق المجردة بطريقة بسيطة ومنظمة وذات معنى ليست على هذا النحو المغالى فيه من التبسيط او هذا على الاقل هو مـــا يعتقده اللغويون وبخاصة عندما يربط هؤلاء بين الفونيم وبين حقيقته الذاتيـــة أو الباطنة.فقد اكد البعض من كبار العلماء على هذه الناحية بصفة خاصة حيث نجـــد ادوارد سابير على سبيل المثال يبرز بشكل جلى النظام أو النسق الصوتي"الداخلى" inner او النموذجي ideal في اللغة على انه جانب من الادوات الذهنيـــة التى يستخدمها المتحدثون ويصف ذلك الجانب أو الجزء بأنه مبدأ على غاية مـــــن الاهمية والخطورة فى حياة اللغة[١].

(٢)

والواقع ان لدارسة هذه النواحي جميعها اهمية خاصة فـــى العملية السليمـــة التى تصدر بها الاصوات ويتم فى ضوئها او على هديها مايعرف بالاكتساب اللغـــوى بوجه عام.ولكن اذا كان علم الاصوات التركيبي قد قلنا انه يدرس اللغة من حيث مـــا تؤديه أو تقوم به فى البناء اللغوى نفسه ،فقد ابرزت الاتجاهات الحديثة اهميـــة الفونيتكس phonetics او علم الاصوات اللغوية من حيث مايلقيه من ضوء علـــى الجانب النطقى نفسه او بتعبير آخر الوسط الذى يحدث فيه اللغة الملفوظـــة أو المنطوقة[٢].

وربما كان أكثر الاتجاهات حداثة وجراءة أيضا هو ذلك الاتجاه الذى أخـــذ يعيب على علم الاصوات النطقى articulatory phonetics (وهـــو العلم الذى يهتم اهتماما خاصا بدراسة مخارج النطق والاصوات) موقفه التقليـــدى

---

(١) Sapir, E., Language, Harvest Books, Harcourt, Brace & World, Inc., N.Y.1955.55.

(٢) Abercrombie, D., Elements of General phonetics .Edinburgh. Edinburgh University Press; Chicago: Aldine , 1967.p.2.

(بالرغم من انه يتمتع بكثير من مظاهر الانتشار نظرا وتطبيقا) بصدد مسأله اصدار الاصوات على مايتكشف من خلال تصنيفه المحكم للاصوات بحسب موضعها أو مكانها وكيفية نطقها والتلفظ بها .

وتتركز دعوى هؤلاء فى أن هذا الاتجاه او بالأصح المدخل التقليدى انما جـاء الوقت ليفسح الطريق امام مدخل آخر يعتبرونه أكثر ديناميه هو المدخل البارامتـرى parametric Approach الذى ينظر الى النظام الفسيولوجى الذى يتـم به الكلام على انه نظام كلى واحد تتسـق فى داخله خلال الزمن وبشكل بالـــغ التعقيد مختلف اوجه التفاعلات المستمرة التى تقوم بين العناصر والمكونات الصوتية المختلفة . وعلى هذا النحو فلابد وأن يؤدى هذا المدخل وبشكل طبيعى تماما الـى الاهتمام بنظم التحكم العصبـــى neural control systems القـادر على ترتيب وتنسيق الحركات المعقدة التى تحدث فى اعضاء النطق اثناء عمليه توليد الاصوات واصدارها .

وقد لاتكون لدينا الآن دوافع ملحه تدفع الى التسرع فى تقييم هذا الاتجـــاه البارامترى ، ولكن الواضح مع ذلك انه يثير بعض الاختلافات فى وجهات النظر بصـدد مقوماته الرئيسيه ومجاله بل ومشروعيته كذلك . فمن الواضح - وهذا من ناحية - أن دراسة الجوانب الوظيفية لنظم التحكم العصبى المستخدمه فى انتاج الاصوات تخـرج بحكم المفهوم ذاته عن مجالات أو فروع على الاصوات التقليدية أو المعروفة بما فيهـا علم الاصوات العام وعلى الاصوات السمعى Acoustic وعلم الاصوات المقـارن وعلم الا صوات التاريخى . . . . الخ وهذا يثير قضية التخصصات العلمية وملامـــح هذه التخصصات بل وحدود العلوم ذاتها ارتباطا بوظائفها. تعتبر موضع كثير مـــن الخلافات على أى الاحوال .

ولكن هذا ليس معناه أن أنصار هذا الاتجاه يجهلون تماما هذه الصعوبة أوانهـم غير منتبهين لمتضمناتها المباشرة وغير المباشرة على السواء . فأيًا كان قدر الاختلافات بينهم من حول بعض التفاصيل ، الا انهم يرون بصفة أساسية ان أية محاولة لنـــاء نظرية عن الكيفية التى يعمل بها الجهاز النطقى ووظائفه لابد من أن توظف العديد

من المفهومات المختلفه التى تنتمى الى دائرة واسعة من العلوم مثل التشريح وعلم النفس والاجتماع ووظائف الاعضاء والطبيعة ٠

ومع التسليم بوجاهة هذا المنطق وربما سلامته أيضا الا انه يشير الى أمرين هما :

أولا انه بهذا الشكل يمكن القول اذن بأن حدود علم الاصوات اللغوية قد تحددت مسبقا بطبيعة الموضوع الذى يدرسه أى الكلام على وجه التخصيص،اكثر منه الاعتبارات المنهجية الأخرى ٠

وثانيا ان علم الاصوات اللغوية على هذا النحو الذى اشرنا اليه ونعنى بذلك وقوفه فى بؤره تفاعل مختلف الانساق العلميه التى تهتم بشكل أو بآخر بدراسة الكلام،لابد وان يستمد بعض تصوراته ومادته بل وبعض أساليبه المنهجية أيضا من كل منها ٠ ويكون معنى ذلك ان الخاصية الجوهرية التى يمكن أن تحدده بوضوح انه موضوع أو نطاق تركيبى أو تأليفى synthesizing الى أبعد الحدود ٠

وكل هذا قد لايكون فى ذاته موضع نزاع او اختلاف ،فالملاحظ بوجه عام ان هناك فى العلوم السلوكيه باكملها ميل واضح الى اضعاف الحواجز التى تمثل عقبة فى وجه تعاون التخصصات لتحل محلها تلك المداخل والمناهج البينية المتعددة التى تشارك جميعها فى نظر بعض المشكلات ومحاوله مواجهتها (وان كنا نأخذ بهذا الاتجاه فى شىء من الحرص والتوجس) ٠

كذلك قد شهد مجال اللغويات نفسه وبخاصة فى السنوات الاخيرة اقداما واضحا على ارتياد بعض الموضوعات التى كانت تنتمى تقليديا الى نطاق بعض العلوم بذاتها ولعل أوضح مثال على ذلك (وهو مايعتبر فى الوقت نفسه نقطه انطلاق فى علم اللغة الحديث) تلك العلاقات المتداخله بين ميادين علم النفس اللغوى psycholinguistics (١)

---

(١) يمكن الرجوع فى ذلك بوجه خاص إلى -Saporta, s. (ed.) psycholinguistics: A Book of Readings. N.Y. Holt, Rinehart&winston. 1961

وأيضا مؤلف Lyons القيم الذى الفه بالاشتراك مع Lyons John&Wales R: Wales J. (eds) psycholinguistics papers. Edinburgh: Edinburgh University Press. 1966.

وعلم اللغه الاجتماعى او السسيولغويات Sociolinguistics [١] وهـــو مايمكن مشاهدته ايضا فى ذلك التقارب الوثيق بين علم الاجتماع اللغـــوى والانثربولوجيا اللغوية على نحوماظهر فى كثير من كتابات العلماء المحدثيـــن والمعاصرين على السواء٠

ولاجدال فى أن كل هذا يمثل فى آخر الامر مزيجا يعتبر من أمتع الموضوعات بالنسبة لدراسات علم الاصوات اللغوية.بل وقد يكون ـ كما يذهب أنصار هـــذا الاتجاه ـ بمثابة حجر الاساس الذى تبنـــى من فوقه الشخصية المتكاملة للمركـــب الذى يسعون اليه والذى يتطلعون الى ان يشهده العقد القادم بالذات ٠أو علـــى الاقل سوف يشهد محاولات علماء الاصوات اللغويه لوضع نظريه الكلام فى الاطـار الاوسع البيوسسيو سيكولوجى إذا صح التعبير٠

(٤)

وعلى الرغم من ان توسع اهتمامات علم اللغه وعلم الاصوات اللغوية حتـــى اشتملت العمليات اللغويه العصبية Neurolinguistic لانتاج الكلام واصـدار الاصوات قد يبدو بالنسبة الى البعض منطلقا جديدا إلا ان هذه الاهتمامات نجـــد جذورها الاساسيه فى تاريخ علم الاصوات اللغويه نفسه وبصفة خاصة فى الفلسفـــة المتغيرة للتحليل النطقى منذ أوائل هذا القرن ٠

والحقيقة ان الطبيعة الفطرية الديناميه لمواضع أعضاء الكلام قد عرفت منذ وقـت

---

(١) انظر فى ذلك: Fishman, J.A., Readings in the sociology of Language. (ed.), the Hague: Mouton. 1968.

مبكر جدا،فقد ذهب هيرمان بول الى ان الكلمه ليست مركبا من مجموعة من الاصوات المستقلة أو المنعزلة التى يمكن التعبير عنها بحروف الابجديه مثلا ،ولكنها فـــــى جوهرها سلسلة مستمرة من الاصوات العديدة اللامتناهية ولاتفعل الرموز الابجدية اكثر من انها تقف بطريقه فجة أمام بعض الخصائص المميزه لهذه السلسله (١) •

ومع أنه قد يكون من الصعب ،أو حتى من غير المجدى ،أن نتناول هنــــــا بالتفصيل كل المراحل او الفترات التى قطعها هذا الاتجاه منذ كتب هيرمان بول كلمته هذه فإن الشيء الجدير بالذكر على أي الاحوال هو انه قد سيطرت على بحوث هذا العلم (الاصوات اللغوية) وجهه نظر استاتيكيه تعتبر أعضاء الكلام والجهاز النطقـــى باكمله من خلال ما تمليه هذه الوضعية من تصورات •

وصحيح ان بعض المتخصصين قد انتبهوا فى بدايات القرن الى هذا الطابـــع الاساتيكى والى حقيقة ان مايوجد من تصورات ومفهومات متفرقة لايعدو غرضها مجرد الوصف والتصنيف فى رتب ومقولات ولكن هذا لم يمنع بدوره من أن ينصب جانـــب كبير من اهتماماتهم النظرية على الوصف الاستاتيكى الجامد لاعضاء النطق والكـــلام، ونتيجه لهذا فقد استمرت هذه الوضعيه الى العشرينات والثلاثينات من القرن حيث تبين العلماء تلك الخاصية الدينامية الفطرية للكلام،وبدا من ثم النظر اليه على انـه عملية تشتمل على العديد من العمليات النطقيه المنسقه أكثر منه مجرد نتاج ثابـــت لعدد محدد من اعضاء النطق والكلام•وان لم يكن معنى ذلك ايضا التخلص كليـــة من المنظور القديم الذى ظلت النظرة الى وظيفه علم الاصوات اللغويه أسيرة له الى ما بعد الحرب العالميـــه الثانية، وعلى الرغم أيضا من كل مظاهر التقدم التي أحرزتها بعض الفروع المتخصصة لهذا العلم وبخاصة علم الأصوات الوصفى desrriptive phonetics الذى كان يرجى أن يؤدى الى نمو وتطوير نظرية خاصة فى النطق من خلال إطار هذا العلم ومقولاته •وهو ما يصعب القول بانه قد تحقق حتــــــى

---

(١) Faul,H.,Prinzipien der sporachgeschichte (Translated by Strorg,H.A.Principles of the History of Language. London.1888.

الآن (١) وذلك على الرغم ايضا من بعض الكتابات المستنيرة التى اخذت تتبنى نظرة اكثر دينامية للكلام وبخاصه على أيدى بعض العلماء من امثال كو ينج Koenig ودان Dunn وغيرهم ممن شجعهم اختراع السبكتروجراف spectrograph الذى اتاح لاول مرة وسيلة مصطنعة لدراسة الاصوات السمعية والموجات الصوتية وكيفيــة انتقال الصوت عبر الهواء الى السمع.

وكانت الخمسينات نقطه تحول واضحه نتيجه للاحتياجات المتزايدة لتطويــر وسائل الاتصال حيث بدأ التحليل السمعى يجذب أعدادا متزايدة من العلمــاء والمتخصصين الذين ركزوا على دراسة تركيب الكلام،مما أدى بدوره إلى دراسة اجهــزة القياسات الصوتية والسمعية ذاتها وبالتالى الى مزيد من الاهتمام بما أصبح يعــرف بالمدخل البارامترى للتحليل السمعى وتركيب النطق والكلام.

وقد يبدو من كل هذا طبيعة الجهود التى بذلها العلماء لتطوير هذا المدخـل. وعلى الرغم من بعض مظاهر النجاح التى لقيتها هذه الجهود خاصه فى ضوء التحسينات التى لحقت بأجهزه وأدوات على الاصوات التجريبى ،فأنه يصعب القول بأنها قـــد أفلحت تماما فى الوصول الى نتائج حاسمة بصدد محاولاتها استخدام ما يتوافر لديهــا من معلومات تجمعها عن طريق الملاحظة المباشره للكلام فى الوقوف على الخصائص الوظيفيه لنظم التحكم العصبى فى التركيب المخى الخاص بانتاج الكلام. وهى أعتــى المشكلات التى مازال يواجهها المدخل البارامترى فى علم الاصوات اللغوية.

بيد ان هذا كله ينبغى الا يفهم على انه محاولة لاهدار هذه المسيرة الطويلة المضنية، ولنما كل مانريد قوله من الصعب حقيقه ان نجد وصفا مناسبا ومقنعــــا

---

(١) يجد القارىء عرضا وافيا وشرحا كافيا لهذه النواحى فى الكتابات التالية بصفة خاصة:
Fant,Gunnar.,Acoustic theory of Specch produ-ction.the Hague:Mouton1960 .
وكذلك مقاله فى الكتاب السنوى للصوتيات بعنوان 'Analysis and synthesis of Speech processes' الذى نشر فى امستردام فى عام ١٩٦٨.
كما يمكن الرجوع ايضا الى Ladefoged,Peter.,Three Areas of Experimental phonetics.London.Oxford Univers-ity Press.1967.

لتوصيف مثل هذا النموذج الوظيفى لتحكم المخ فى انتاج الاصوات واصدارها.وصحيح ان بعض المصطلحات المستخدمه مثل "النيروفسيولوجى"او النيروسيكولوجى" و علم اللغه العصابى Neuro Linguistic يعكس كل منها بعض ملامح النموذج مما قـد يدفع الى تقبلها خاصة.وان تشومسكى كان قد قرر منذ وقت ان علم اللغة نفسه هـو فرع من علم النفس المعرفى Cognitive Psychology.

وقد يكون صحيحا كل هذا ،ولكن الصحيح ايضا اننا لازلنا نجهل الكثير عـن طبيعة تلك الحركات والتآزرات العصبية والعضلية فى أعضاء النطق والكلام .وعلـى سبيل المثال نحن لانعلم سوى القليل جدا عن الوظائف الفسيولوجية الدقيقـة والتفصيلية للسان .كما لانعرف إلا القليل أيضا عن تلك الميكانيزمات التى تحـدث فى المخ بشأن مراجعاته ونظم إرجاعاته وتغذيته ورقابته أو حتى تلك الاسباب الكامنة التى ترجع اليهـا زلات اللسان والكيفية التى يصحح بها اللسان مثل هذه الـزلات اثناء كلامه والتى كثيرا ما تحدث بشكل تلقائى ولاشعورى .

ومهما يكن من أمر فإن الشيء المؤكد هو ان أى تقدم سوف تحرزه دراسـة الصوتيات فى معرفة خصائص نظام التحكم العصبى سوف يفيد كثيرا فى زيادة معرفتنا باللغة وفهمنا للسلوك اللغوى خاصة إذا ما أضفنا إلى نظرية اللغة مثل هذا المكون أو العنصر اللغوى العصبى.

ومن الناحيه الثانية أيضا فالمتوقع أن تكون للاكتشافات التى قد يصل العلماء اليها فى مجال التحكم العصبى فى الكلام آثارها التطبيقية الواسعة التى سوف تمس بوجه عام كل جنبات السلوك الانسانى فى ارتباطه بالجهاز العصبى والنطقى بالغـى التشابك والتعقيد [1].

(١) نجد فى احدى مقالاته الكلاسكية الشهيرة Lashley يتبنى وجهة نظر مشابهة لهذه التي تقول بأن دراسة اصدار الاصوات الانسانية سوف تتيح اوسع الفرص امام مزيد من التأملات وفى هذا التأكيد لوجهة نظره نجده يقتبس كلمات فورنيه Fournie وهو يقول "ان الكلام هو النافذة الوحيدة التى يستطيع العالم الفسيولوجى ان يطل من خلالها على الحياة العصبية باكملها"

ويمكن الرجوع فى ذلك إلى: Fournié,E,Essai de psychologie: paris,1887.

وأيضا إلى Lashley.K.S."the problem of serial order in behavior". In Jeffress,L.A.(ed),Cerebral Mechanisms in Behavior.N.Y.wiley.1957. (Reprinted in Saporta,S.1967:180-89.)

الفصل الثالث

الاكتساب اللغوى

لأغراض دراستنا الحالية يبدو أننا سوف نستخدم مصطلح الاكتساب اللغوى Language Acquisition بمعنى محدد، حيث نقصد باكتساب اللغة تلك العملية بالذات التى يستطيع الاطفال بها أن يدركوا لغة مجتمعهم أو لغتهم القومية، وأن يتمكنوا من هذه اللغة بشكل طبيعى ييسر لهم التفاعل والتعامل السليمين مع الآخرين .

ولقد قصدنا الى ان نستخدم مصطلح "اكتساب" acquisition بدلا من مصطلح التعليم Learning (الذى قد يكون اكثر ذيوعا وانتشار على اعتبار ان هذا المصطلح أو اللفظ الاخير مما يميل السيكولوجيون الى تداوله بمعنى محدد وفى مجالات نوعيه بذاتها قد لاتكون مناسبة لما نحن بصدده. وان كان هذا الوضع بالذات قد بدأ فى اثارة الكثير من الخلافات بين العلماء من حول ما إذا كانت عملية الاكتساب اللغوى مما يمكن النظر اليها فى حد ذاتها على إنها جانب من الجوانب أو على الاقل رؤية من الرؤى المختلفة للنظريات السيكولوجية فى التعلم.

والواقع انه الى المدى الذى عسانا نكون قد أوضحنا بعض جوانب قضيه "أصل اللغة" بذلك المعنى الذى يمكن ان نطلق عليه المعنى النشوئى الفسيولوجى ، أو بتعبير آخر من زاوية النظر فى ما ضى الانسان ومظاهر التطور التى عاشها فان هذه القضيه ذاتها مما يمكن بحثه أيضا من زاوية أخرى تقدم شرحا آخر وتفسيرا آخر، أعنى من زاوية الاكتساب اللغوى لدى الاطفال .وفى هذه السياق فلا بد وان تثار العديد من الاسئله مثل: هل الاطفال مهيئين بشكل فطرى لاكتساب لغة واحدة بذاتها اكثر من لغة أخرى؟ هل العملية التي يتم بها اكتساب الطفل للغته هى بالضروره نفس العمليه التى قد يتعلم بها الطفل بعض اللغات الأخرى فى مراحل مختلفة من حياته؟ (والواقع اننا هنا قد قصدنا الى التميز بين مصطلح الاكتساب من ناحية ومصطلح التعليم من ناحيه ثانيه كما لعل القارىء قد لاحظ ذلك) وهل فى مقدور

الطفل او فى استطاعته ان يكتسب اللغة دون ان يكون هناك أية رابطة بينه وبين غيره من الافراد ، بمعنى أن يكون بعيدا تماما ومنعزلا كلية عن تلك الظـروف الطبيعية والعادية التى تستخدم فيها اللغة عادة؟ ثم، ماذا أيضا عن تلك العلاقات التى يقال بأنها قائمة وموجودة بين ذكاء الطفل ومعدل اكتسابه للغته الوطنيه؟ ٠

وقد يكون من السهل اعطاء بعض الاجابات (الجاهزة) لبعض هذه التساؤلات حيث كانت موضوعها (اعنى موضوع التساؤلات) محل عنايه كثيرمن العلماء والباحثين الذين تمكنوا من التوصل الى إجابات ورؤى واضحة بصددها ٠

وعلى سبيل المثال فقد أثبتت العديد من هذه الدراسات والبحوث انه لاتوجد ايه علاقة ذاتيه او أصلية intrinsic بين اللغه والعنصر Race فأى طفل عادى او سوى قادر وبصرف النظر عن أية خصائص حسية او فطرية على ان يكتسب لغـة المجتمع الذى يشب فيه ٠

واذا كان البعض قد يسعى إلى التشكيك فى صحة هذه النتائج، ويستند فى ذلك الى بعض المظاهر التى تكشف عن تعثر اطفال المهاجرين احيانا فى السيطرة على لغه البلدان التى يهاجر ذووهم اليها ، على الرغم من ان هؤلاء الاطفال يعيشون فى هذه البلدان منذ ولادتهم، فان من الخطأ التسليم بصحه هذا الاعتراض أو أخذه قضية لاراد لها ٠ وذلك لسبب بسيط هو أن تفسير هذه الظاهره ينبغى الا يتم من خلال هذه النظرة الضيقـة التى يصطنع (العنصر) حدودها مسبقا ، ولكن بالرجوع الـى الوضعيات الاجتماعية والثقافيـة ذاتها أى باللجـوء الى المفهومات والمصطلحـات الاجتماعية اكثر من مصطلحات الجنس والسلالة والعنصر ٠

ومع ذلك فإن لهذه النقطه جانبها الآخر ، فإذا كنا قد قلنا من قبل ان أحـدا لايعرف بالضبط أو على وجه التحديد متى وجدت اللغه على الرغم من كل الظـن والتخمين ومختلف النظريات التى سيقت فى هذا الصدد ، فانه يمكن القول دون ما خوف من الوقوع فى الخطأ انه بالقدر الذى يبدو أن اصدار الاصوات الكلامية يمثـل أمراجوهريا وحيويا ، فإن الكائنات الانسانيه جميعها تتشابه من الناحيه الفسيولوجيه (١) ٠ صحيح ان الناس فى مختلف الأزمنة ومختلف الامكنة أيضا قد تكون لهم وجوهـا

(١) The New Encyclopaedic Britannica, Op.cit. p.576.

مختلفة أو ملامح جثمانية تختلف باختلاف البناءات الجثمانيه ذاتها ، ولكن الصحيح ايضا ، وهو ما تأكد بشكل حاسم ان الطفل - على مر الزمن ايضا يكتسب لغة ذويه التى لقنوه اياها إبان طفولته الاولى المبكرة دون ان تستطيع اى من هذه الاختلافات الفردية أن تغير أو حتى تمس قدرته على إكتساب اللغة وان يتكلم هذه اللغة .

ومع ان هذه العملية تتم فى معظم الحالات عن طريق الوالدين الحقيقيين أو البيولوجيين وبخاصة الأم ، وان اول ماينجح الطفل فى إكتسابه وينطقه أول ما ينطق انما يتم عن طريق التربية والبيئه والتعليم وليس عن طريق الميراث الفسيولوجى فحسب ، فان الشيء الذى (يقطع) بهذا الدور الاجتماعى فى عملية الاكتساب هو ما نشاهده من ان الاطفال المتبنين لآباء غير آبائهم الحقيقيين (البيولوجيين) انما يكتسبون لغه الوالدين الجدد وليس لغه الآباء الحقيقيين أيا ما كانت لغتهم الأصلية .

وهذه الخصائص ليست فى الحقيقة وقفا على لغة دون لغة أخرى ، ولكنها تظهر فى كل لغات العالم بصرف النظر على درجه تقدم المجتمع أو تأخره . علاوه على ان تلك النتائج التى انتهت اليها بعض البحوث الخاصه بمدى تدخل العوامل والميراث البيولوجى فى عمليه الاكتساب مازالت فى الحقيقة موضع اختلاف كبير بين جماهير العلماء . وحتى بالنسبه الى تلك البحوث الرائدة التى اجراها بروكا Broca فقد كان غاية ما نجحت فى تأكيده هو ان اللغه باعتبارها خاصية مرتبطة بالانسان وحده دون غيره من المخلوقات والكائنات الأخرى ، تنطوى على عناصر ومكونات عقليه وعصبية وكان ذلك سببا فى القول بأن مراكز التحكم فى الصوت أو مراكز النطق انما (تتموضع) فى أجزاء خاصة بذاتها فى المخ البشرى على نحو ما سبقت الاشاره .

وعلى العموم فان مانريد أن نقوله هنا هو انه فى ضوء كل هذا تتضح إحدى الحقائق الأساسية وهى ان أحداً لايولد أو يرث القدرة على ان يتكلم لغة بعينها وانما الاصح القول بأن الطفل البشرى السليم انما يولد ولديه الاستعداد لأن يكتسب لغه ما هى بالذات تلك اللغة التى يسمعها ويتعرض لها بصفة مستمرة منذ طفولته

وتساعده فى هذه العمليه تلك الخاصية الفطرية التى تجعله قادرا على اخــــراج الاصوات ونطقها •

ومع ذلك فان المتوقع ان يتعلم الطفل بعد ذلك كيف ينتقى من بين هـــذه الاصوات وكيف (وان يكن فى مراحل أخرى لاحقة) يكتسب وبالتالى يختـــــزن المفرادات الاساسية أو الضرورية فى اللغة سواء من ناحيتها الفونولوجية الصوتيـــة أو ناحيتها التركيبية أو الدلالية• وكله سوف يساعد على اكتمال بنائــه اللغوى •

(٢)

هذه النتيجه ، أو بالاصح هذا الموقف الذىانتهينا اليه فيما سبق يعنـــى بوضوح ان كلانسان انما يولد ولديه اذن الاستعداد الفطرى للاكتساب اللغـــوى ولاستخدام اللغة ولتكوين مهارات لغوية تساعده على زيادة سيطرته وتحكمه فـــى مكونات اللغة وبنائهاوهى النواحى المتعلقة بالنحو والقواعد والتركيب بوجه عام•

ولكن هذا الموقف بالذات كان وراء الاهتمام المتزايد الذى أخذ العلماء يبدونه وبخاصة حتى الخمسينات منالقرن بدراسة مسألة الاكتساب اللغوى والتركيز علـــى استجلاء كنه هذه القدرات والاستعدادت الفطرية وما تنطوى عليه عملية الاكتســاب ذاتها من عوامل وأبعاد وميكانيزمات•

وقد نكون أشرنا الى هذا كله أو الى بعض منه اثناء تناولنا لبيولوجيا الاتصال أو للكيفية التى تصدر بها الأصوات الانسانية•ومع ذلك فمن المهم ان نوضح ان هذا الاهتمام العام قد سلك اتجاهين بذاتها •اما الاتجاه الاول فقد اهتم اصحابه باقامة المشابهات والمماثلات فيما يخرجه أو ينطقه الاطفال من اصوات وجمل وتعابيـــر وذلك كخطوة نحو دراسة الانماط التى تتخذها هذه المشابهات والمماثلات ومحاولين فىالوقت نفسه ابراز أوجه الاختلافات القائمه بين البناءات التى تنتمى اليها اللغات المختلفة ومن ثم تفسير هذه الاختلافات وتوضيح أسبابها •

أما الاتجاه الثانى فقد اتخذ طريقا مغايرا حيث برز اهتمامه بالمكونات الداخلية للغة وبالعملية العقليةوالعصبية ذاتها التى ينتج الكلام من جرائها •

وعلى الرغم من مظاهر النجاح الذى لقيـه كل من هذين الاتجاهين حيث وضح اهتمام السلوكيين(ومن بينهم العالم اللغوى الامريكى ليونارد بلومفيلد Bloo-m Field بالتفسيرات والشروح السلوكية عموما وركز الآخرون على إبراز القدرات الفطرية والميل الطبيعى الى اقامه البناء ات اللغوية والنحويه، فلم يحل هذا أبدا دون أن توجه للاتجاهين معا أعنف الانتقادات بسبب تجاهلها الملحوظ للجوانب الاجتماعية للغة أو بالاصح عدم ابرازها بشكل كاف وسليم للوظيفة (او الوظائف) الاجتماعيه التى تقوم بها اللغه فى حياة الفرد وحياة المجتمع. وهو ما سوف نعود إليه بمزيد من الشرح والتفصيل فى أماكن أخرى.

وقد يبدو للبعض، فى ضوء كل هذا، انه من المناسب هنا بل وربما من الضرورى ايضا ان نتحدث عن الاصول التاريخية لهذه الاتجاهات، على الاقل، حتى لانقع فيما يقع البعض فيه من نسيان أو تناسى(أو تجاهل) ان الدراسه العلمية للطفل ولغة الطفل لها رصيد كبير من التراث النظرى، وأن المعرفة بهذا الرصيد كفيلة بأن تضع الباحث على القضايا والمسائل التى يمكن ان تكون جديرة بالدراسة والبحث فعلا، وكل هذا أمر سليم ولاشك ولاغبار أيضا عليه، الا أننا أميل مع ذلك الى أن نختزل المسيره تماما (١) طالما ان الشىء الواضح حقيقة هو أن دراسه الاكتساب اللغوى قد سارت منذ البداية فى سياق بحوث النمو العام للطفل وطالما ايضا ان محور الاهتمام قد أصبح يدور من حول بعض التساؤلات الاكثر خطورة

---

(١) وعلى اى الاحوال فيمكن للقارى الذى يرغب فى الاستفادة فى هذه الناحية ان يرجع الى الكتابات الاتيه :- Leopold,W., speech Development of Bi-lingual child.vol.1(1939).vol.2(1947),vol3(1949)(North western University studies in the humanities).

وأيضـا Lewis,M.,Infant speech,London:Routledge & Kegan paul.1933.

كما يرى القارىء الكثير من المناقشات والتفاصيل الاكثرحداثة فى Smith,F.&Miller G.A.(eds.)the genesis of language.cambridge,Mass:M.I.T. Press.1966.

Solbin,D.(ed.)The Ontogensis of Grammar:some facts and several theories.N.Y.acdemic press.1970.

المتعلقة بطبيعة الانسان وطبيعة سلوكه وهذه مسائل تتجاوز كما هو واضح مرحلة الوصف ٠وان كانت الغالبية العظمى من هذه الدراسات التى نشير اليها قد بـدأت بالفعل من تلك المرحلة الوصفية — وان يكن بشكل تفصيلى ودقيق-لما يحـدث للطفل ولما يفعله الطفل بالفعل ٠وان كان قد تبع ذلك مرحلة أخرى بصـدد المحاولات لشرح وتفسير عملية الاكتساب ذاتها ٠

وعلى العكس لما قد يتوقع الكثيرون فان جانبا كبيرا من المعارف بصـدد الاكتساب اللغوى لم يتهيئا عن طريق ما حققته البحوث الامبريقية empirical من نتائج،وقد يبدو هذا فى حد ذاته أمرا محيرا ،ولكنه حقيقى مع ذلك ،بل واكثر من هذا فاننا نعتقد انه سيكون من العسير تماما ان نضع فى دائره الضوء هـذه العملية التى اصطلحنا على تسميتها بالاكتساب اللغوى ،مالم تتضح أمام أذهاننـا الرؤيه الموضوعية لبعض المسائل والأمور التى فى مقدمتها على الاطلاق ذلك التمييـز المنهجى الذى وضعه تشومسكى Chomsky بين ما اطلق عليه ملكة اللغـة compelence والأداء Performance٠

وليس من شك فى ان نوم تشومسكى يعتبر بأكثر من مقياس بمثابه نقطه تحول جذرى فى الدراسات اللغويه وذلك منذ ان نشر فى عام١٩٥٧ كتابه الرائع العميـق "التراكيب النحويه" syntactic structures(١) الذى قدم لنـا فيه منهجا جديدا فى دراسه اللغة ونظرية جديدة فى طبيعة اللغة اعتبرا ثـورة لغوية من وجهة نظرا لكثيرين ،حتى من بين اولئك الذين قد يختلفون معه حول هذه المسأله أو تلك أو هذا الموضوع أو ذلك ٠فقد استطاع تشومسكى اكثر من اى عالم آخر أن يكشف عن مدى ضحالة الكثير من الأفكار والآراء التى تبنتها الاتجاهات السلوكية المسيطرة(٢)٠

---

(١) Chomsky.N., Syntactic Structures, the Hague: Mouton, 1957.

(٢) ينظر الكثيرون من علماء اللغة الى تشومسكى على انه واحد من القلائل الذين نجحوا فى فهم الاهمية البالغة للنظر الى اللغه كنظام مفتوح وبهذا فهم يعتبرونـه أحد الذين اضاءوا الطريق أمام تيار المفكرين الرومانتيكيين،مثل شيجل Schlegel وهمبولت Humboldt .

وقد لايكون من السهل ان نبرز تماما طبيعه موقف تشومسكى من مختلف القضايا التى قررها السلوكيون ،ولكن الشيء المهم ــ وهو ما يمثل فى الوقت نفسه نقطه البداية لهم تمييزه بين ملكة اللغه والاداء ــ هو انه قد رفض بشكل حاد كل ما قرره هؤلاء عن اللغة وبخاصةتلك الآراء التى نادى بها Skinner فى كتاب المعنون "السلوك اللفظى"verbal Behavior حيث كشف بوضوح عن اعتقاده بأن اللغة هى فى آخر الامر عادة سلوكية يتم تعلمها بالطريقه ذاتها التى نتعلم بها عاداتنا السلوكية المختلفة.

ويكشف هذا الموقف (الرأى) عن أمرين اولهما انه وان كان مصطلح"العاده" مغلفا بما يشبه الغلاله الاجتماعية على اعتبار ان العادات تنطوى فى جانب منها على شق اجتماعى إلا ان الواضح اننا حتى لو سلمنا بمثل هذا الاتجاه فانه لايمثل سوى نصف القضيه ان صح التعبير، بمعنى ان العادة هى لفظة أو مفهوم سيكولوجى بالدرجه الاولى ولايتم شرحه أو تفسيره وبالتالى الوقوف على طبيعه ووظيفته إلا من خلال سيكولوجية الجماهير بصفة خاصة وهذا ما يباعد بين سكينر (كواحد من السلوكيين) وبين علم الاجتماع فى معناه الدقيق الحديث.

ومن الناحيه الثانية أيضا نجد ان القول بان اللغه "عاده اجتماعية سلوكية" انما يعنى ان سبيل اكتسابها هو التجربة والمحاولة والخطأ .وهذا بدوره يضعنا فى قلب المقولة السيكولوجية من ناحية وفى قلب معامل التجريب والاختبار من ناحيه ثانية.وهذا ما لايتفق مع ما انتهينا اليه فى فصل سابق من أن هناك فارق كبير بين الاتصال من حيث إنه اذا كان الأول مما قد يسم أو يتميز به سلوك الحيوانات ،فان اللغة ليست كذلك باعتبارها الخاصية الجوهرية التى تميز الانسان عن غيره من الكائنات.

ولكن أروع المناقشات التى أثارها العلماء حول التمييز الذى أراده تشومسكى

---

(١) Fodor, J.& Garrett, M., "Some Reflections on competence and performance" In Lyons & Wales. 1966.

بين مصطلح competence ومصطلح الاداء performence هو ما نلتقى به فوق صفحات المقال الطويل الرائد الذى دبجه Fodor بالاشتراك مع Garrett وأوضحا فيه ان المفهوم كما سعى تشومسكى الى تحديـــده، يتطابق ويتوحد معمصطلح المقدرة capacity أو القابلية أو الاستعـــداد ability كمصطلحات تتعارض والأداء الواقعى actual .

وبالرغم من أن هذا الفهم هو الذى ساد على اى الاحوال دوائر السيكولوجيين المهتمين بعمليه التعلم والتدريب سواء فى الماضى أو الحاضر، وهو ايضا الـــذى استخدمه البعض لتطوير بعض ما اطلق عليه نماذج الأداء اللغوى على مانجد مثلا فى دراسات الاتجاهات والرأى العام وبخاصة تلكالتى تمت على يد أمثال بـــول لازرسفيلد Lazarsfeld، وهو أيضا ما يتقبله بشكل عام أو ربما (برضا عام) الكثير من علماء اللغه المحدثين ،فإن تشومسكى كان يشير بهذا التمييز إلى شيء يتجاوز هذا التفسير السطحى البسيط .بمعنى انه كان يتحدث عن مفهوم يبـــدو أقوى stronger أو ربما أوضح وأعنف،وان كانمن الصعب فىالوقت نفســـه الوقوف على الدلاله الحقيقيه لمثل هذا الوصف الغريب.

(٢)

على هذا النحو من الصرامة والعنف سواء فىفكره وتصوراته أو فى منازعاتـــه وخصوماته مضى نوم تشومسكى يشيد البناء الذى اعتقد ان اللغة تعمل بمقتضـــاه كما امتد بتفكيره الى مجالات اوسع من المعرفة حيث توصل الى كثير من النتائـــج التى وان كانمن الصعب الاتفاق معها جميعها إلا انها مثيرة فى ذاتها للاعجـــاب والتقدير .وبخاصة تلك النتائج بصدد الكيفية التى يعمل بها العقل .

ولقد أعلن قناعته الكامله بأن اللغة ممثلة فى العقل على نحو غايه فى التجريد، وان الافراد يكتسبون اللغة علىالرغم من الادعاء بأيه وصايا أو ولايه مهما كانـــت ضئيله او شحيحة .كما ردد لأول مرة عددا من الدعاوى والآراء الجرئية الجاســرة فى مقدمتها ان المعرفة الاساسية باللغة انما يتم تعينهـا وتحديدها بفطـــــرة

الانسان ، ومن ثم فان كل الفرضيات والاحكام المتعلقة بقواعد التركيب syntax والتي يمكن القول بأن الطفل قد يخترعها انما هى أمور ممتنعـة بسبب ميراثـه الانسانى الفطرى ٠كذلك الحال بالنسبة إلى كل اللغات الموجودة فهى من طبيعـة واحدة ٠

اللغة إذن ظاهرة بالغة التعقيد كما يراها تشومسكى ٠ولكنها فطرية مع ذلك، فالفرد (الطفل) ليس كما زعم السلوكيون يولد وذهنه صفحة بيضاء لأنه مزود بحكم فطرته وطبيعته الانسانية وهو مزود بملكه اللغة competence أو هـذا الاستعداد الفطرى للغه٠

أما هذه اللغة بالغه التعقيد فهى مع ذلك واحدة من حيث الجوهر البنائـى والوظيفى معا فى كل مجتمع من المجتمعات٠ومن هنا قوله بأن هناك ما اطلق عليه "العموميات اللغويه Linguistic universals بمعنى القواعد والتراكيب والاشكال العامة التى لاتشذ عنها لغة من اللغات ولكنها تصـدق بالنسبة الـى جميع اللغات وتنطبق عليها على حد سواء٠ ومن هنا ايضا قد يسهل فهم ما ذهب إليه من أن الطفل يستطيع بسرعة استيعاب الأصوات النحوية والقواعد المختلفـة التى يسير عليها الكلام الذى يسمعه من حوله وبالتالى يستخدم هذه القواعد عنـد بنائه لبعض الاصوات التى ينطقها لأول مرة أى دون أن يكون قد سمعها من قبل ٠

والحقيقه ان هذه النظريه فى التراكيب النحويه أو نـظريه التوليد النحـوى generative grammer (١) كانت نغمه جديدة فى الدراسـات اللغوية،واذا كان أنصار هذه النظرية وفى مقدمتهم تشومسكى نفسه يعلنون ان عملهم الاساسى انما يستهدف التشخيص الصحيح لملكة اللغة بمعنى تلك القدرات الفطرية المتوارثه فى الانسان من حيث هو انسان،فان هذا العمل انما يعتبر بمثابة ضربـة عنيفة للغويات البنائية structural وعلم النفس السلوكى٠فالطفل يولد ولديه المعرفة الفطرية بكافه المبادىء الصورية التى تحدد البناءات اللغوية وربما أيضا

---

(١) Chomsky, N., Topics in the theory of Generative Grammer, the Hague: Mouton .1966.

اطلق وصف الاتجاه العقلانى او الفرضية العقلانيةRationalist hypothesis
القائلة بوجود افكار فطرية ،فى مقابل تلك الفرضية التجريبية التى تذهب الى أن
كل أشكال المعرفة إنما تتكون وتأتى إلينا عن طريق الخبرة والمحاولة والخطأ[١].

وقد لاتكون ـ فى ضوء كل هذا ـفى حاجه إلى تأكيد التأثير الذى مارسته هذه
الافكار على مختلف الدراسات والاتجاهات المهتمة بالاكتساب اللغوى ولكنها نجحت
على أيه حال فى أن تثير الكثير من النقاش بين السيكولوجيين ورجال الاجتماع
والفلاسفة والمناطقه وعلماء اللغه أنفسهم.

ومع ذلك فقد يكون من الممتع حقا ان نشيرالى ناحيتين بذاتهما قد يعطيانا
صورة واضحة على مدى فاعلية هذا التأثير وعمقه.

الناحيه الاولى وسوف نعتمد فيها على بعض ما شهدته قاعة اللقاء الشهير
الذى سبق أن اشرنا اليه وقلنا انه جمع بين جان بياجيه ونوام تشومسكى بدعوة
من مركز رويامونت لعلم الانسان بالقرب من باريس. ففى الوقت الذى اتفق فيه
العالمان الكبيران على افلاس النظريات الامبريقية فى المعرفه وافلاس مواقف السلوكيين
أيضا فى تفسيرهم للفعل ،فقد وقعا فى خلاف حاد فيما يتعلق بطبيعة الافكار
الفطرية التى قال بها تشومسكى وكذلك دور التجربة فى التطور والنمو والتعيين
السليم لما قد يكون نتيجه تربيه وتعليم.

فقد دافع بياجيه بكل حرارة عن وجهة نظره القائلة بأن معرفة الطفل باللغة
هى بناء للقوى المحركة للذكاء المنضبط وهو ما حاول أن يدحضه تشومسكى عن
طريق توضيحه كيف أن بعض الجوانب النوعية فى أى تركيب نحوى مما يمكن ان
تكون قد تم بناؤها وتشيدها على هذا النحو نفسه.

وعندما تحول بياجيه ليتبنى بعض الاستعارات والتشبيهات البيولوجية لتساعده
فى مناقشته لتطور المعرفه ونموها كان ذلك سببا فى اثارة العديد من القضايا التى

---

(١) Massimo piatelli - Palmarini. Op.cit.

القاها فيوجهه جاك مونو Monad وفرانسوا جاكوب Jacob وهما من كبـــــار البيولوجيين المشهود لهم ٠

كذلك الوضع بالنسبه الى تشومسكى عندما دعى الى ضرورة دراسه الاستعـــداد الفطرى للغة والقدره التى زود بها الطفل لتعلمها على إنها اعضاء نوعية محـددة أو أعضاء للعقل، فقد كان ذلك مدعاة لانتقادات البعض على أسس منطقية التى استندت إلى بعض الشواهد التى كشفت عنها بعض التجارب التى أجريت على الشمبانزى ٠

أما الناحيه الثانيه التى قلنا انها قد تعطى فكره عن تأثير تشومسكى وآرائـــه فترتبط ببعض القضايا التى طرحها تراث علم اللغه النفسى psycholinguistics بشكل مبالغ فى تبسيطه، ولقد أشرنا من قبل الى بعض الانتقادات التى وجههـــا تشومسكى الى الكثير من آراء سكينر ٠ ولكننا نضيف هنا ان هذه الانتقادات قد امتدت لتشمل آراء غيره من العلماء من امثال بيفر Bever وفودور fodor وفيكسل حيث اكد بوضوح على ان نظريات التعلم التقليدية ليس لديها فحسب إلا القليل جدا الذى يمكن أن تقوله لفهم الاكتساب اللغوى ، ولكن هذه العملية (الاكتســـاب) لا تنطوى أيضا على أية ناحية من نواحى التعلم والتدريب ٠

وواضح أن معنى هذا هو استبعاد هذه العوامل تماما فى عمليه الاكتســـاب اللغوى وارجاع كل شىء الى تلك الدوافع والتكوينات الفطرية فى الانسان ٠ ممـــا يعنى أيضا اننا مهيأين مسبقا لمعرفة لغوية فطرية [١] ٠ وهذا فيه ما فيه مـــن تجاهل صريح لكافه العوامل والمتغيرات البيئية التى يرى الكثيرون ليس وجـــوب أخذها فى الاعتبار فحسب، ولكن أيضا وجوب اعتبارها الموضوع الرئيسى والاكثـــر أهميه فى دراسه الاكتساب اللغوى ٠

---

(١) Chomsky, N., Language and Mind . N.Y. Harcourt, Brace & World . 1968.

وبتعبير آخر يمكن القول أن هناك إذن قضيتان أو مسألتان متوازيتـــان او أو متقابلتين ينبغى أن يوضعا موضع الاعتبار وحيث يتضمن كل منهما ما يعتبرموضع تأكيد وتركيز فحسب وليس وجود حقيقى أوواقعى•ففى كل من هاتين القضيتين لابد ان نضع فى الاعتبار تماما كل مناسهام الفرد ،وكذلك إسهام السياق أو البيئه التى يتعلم فيها الطفل ويفعل •

وهذا الاتجاه الاخير يتفق تماما مع تلك الدراسات والبحوث التى أجريت مؤخرا وبخاصة على أيدى لينبرج حيث كشف بوضوح عن تضافر كل من العوامل البيئية أو عوامل الاكتساب من ناحية والعوامل الداخلية المرتبطة بالتركيب العضوى والنفسى للأفراد من الناحيه الثانية•

(٤)

ولاجدال فى ان هناك الكثير من الكتابات التى تدور حول لغه الطفل •ولكـن الملاحظ مع ذلك ان جانبا كبيرا من هذه الكتابات قد ارتكز اساسا وعلى نحو مـــا ظهر لنا حتى الآن على أسس سيكولوجية بمعنى أن اصحابها نظروا إلى لغة الطفل من وجهه النظر السيكولوجية ومن ثم عالجوها على هذا الأساس•

والواقع إنه يسهل تتبع هذه الظاهرة بشكل واضح،فقد سبق ان ذكرنا انه ظهـر فى الاربعينات من القرن الحالى نوعان من الدراسات اهتم أولها على مانجد فـــى بحوث كارل بوهلر Karl Buhler بنطق الطفل واستخدامه الأصوات الكلامية على حين انصب اهتمام النوع الثانى وبخاصة على أيدى رومان جاكوبسون Jakobson على إبراز ما قد يوجد فى النطق والكلام من عيوب واخطاء واضطراب ،أى أن طابـع هذا النوع من الدراسات كان طابعا اكلينيكيا بحتا يستهدف التعرف على مظاهـر التفكك والاضطراب اللغوى •

وعلى الرغم من أن معظم الكتابات التى تلت هذه المرحلة لم تقف عند هــذا البحث أو الدراسه النظـــرية حيث ظهر ميل البعض إلى الدراسات التجريبيــة والكمية التى استعانت بعوامل الضبط العلمى فى الملاحظه والتجريب، الا انه كـــان

لايزال يغلب عليها الطابع السيكولوجي مما جعلها عاجزة عن الوفاء بأغراض التحليل الاجتماعي والاستعانه بنتائج البحوث الاجتماعية والتحليلات الاجتماعية التى قام بها العلماء بهذا الصدد.

وقد يكون من الصعب الحديث عن مراجل محددة تحديدا قاطعا فى لغة الطفل أو الحديث عن خصائص هذه المراحل ومظاهر النمو اللغوى المرتبط بها ومع ذلك فهناك من البحوث المتقدمه مايلقى بمزيد من الاضواء على هذه النواحى حيث شارك فى هذا كل من علماء النفس، وعلماء الاجتماع وحتى علماء اللغة أنفسهم.

وتتمثل الفرضية الاساسية فى هذه الناحية فى ان كل انسان انما يشكل فى واقع الامر بدايةوبناء عليه فقد نظر الى الطفل على أنه الانسان الذى لايستطيع الكلام.

وتظهر أهميه هذه الفرضيه فيما أظهرته بحوث علم النفس المقارن عن الطفل والقرد من وجود نوع من التقارب بين عقليهما قبل فتره النطق والتعبير. وعلى العكس من الطيور والثدييات التى تولد وهى تتمتع بدرجه عالية من الكمال الذى يتيح لها نوعا من الحياة ذات النشاط الحيوى، نجد ان كلا من القرد والطفل يولد فى حالة ناقصة غير تامة حيث لاتبلغ الخلايا العصبية أو نضج الدماغ أقصى درجاته ومظاهره فى الطفل إلا فى حوالى السنة السابعه من العمر.

وصحيح ان ثمة من العلماء من يقرر أن نضج الدماغ لدى الطفل والقرد انما يتم فى بيئة اجتماعيةومع ذلك يقوم الفارق الأساسى فى حقيقة ان النمو عند القرد يفسح المجال لظهور السلوك الغرزى البدائى حيث لايوجد التدريب التربوى والنضج الدماغى الكافيين. اما الانسان فهو على العكس من ذلك يلاحظ ويعيش ظاهرة النضج والتربية لأن عقله سيحتل المرتبة الاولى حتى قبل الاكتمال الدماغى، وسبب ذلك يعود الى اكتساب اللغة التى تعطيه اكتماله الانسانى وتفتح له امكانيات تقدم لاحدود له.

ومع ذلك فان الانسان على الرغم من اكتسابه هذه المقدره يظل طفلا لفترة طويلة نسبيا، والملاحظ ان المرحلة الطويلة التى تفصل اكتساب اللغة عن المراهقة

ومن ثم المراهقه عن اليفاعة والشباب لانجد أي وجود لها في نمو القرد.فتلك المرحله بالذات هي التي سوف تسمح للانسان أن يحقق امكاناته اذا لم يعق ذلك أي معوق على العكس من الانسان البدائي وناقصي التربية الذين لم يتعلموا كيفية استخدام العقل ضمن عملية اكتساب الثقافة • وهذه المسألة واضحه تماما في القرد بالذات الذى نلاحظ ان عقله مازال في طوره البدائي رغم كل ألفته مع الانسان •

ماذا إذن عن ماهية اللغة عند الطفل ؟ هذه الآله الفريدة التي يكتسبها وهو يلعب ويلهو ويتعلم من ثم كيف يستخدم الامكانات الجبارة التي يقدمها نمو عقلـه ومخه فيندمج اكثر فأكثر في العالم من حوله لتحقيق حاجاته ورغباته وهو يتخطى مرحله الولادة الجامدة الى انتصارات المشي والكلام وحضور شخصيته الثابتة في المجتمع البشري ؟

لقد ذهب العالم الدانيمركي أوتو يسبرسن Otto Jespersen الى أن هناك ثلاث مراحل متميزة تستغرق النمو اللغوى عند الطفل وهذه المراحل هي (١) :

١ ـ مرحله الصياح أو الصراخ screaming period
٢ ـ مرحله الثرثره أو البأبأه Babbling period
٣ ـ مرحله الكلام أو التكلم Talking period

وهذه المرحلة الاخيرة تنقسم الى فترتين الاولى ويطلق عليها يسبرسن فتـرة اللغه الصغيره Little language اى اللغة الخاصة بالطفـل وحيث يكون الطفل في هذه الفترة متفردا من الوجهه اللغوية والفتره الثانية هي فتره اللغه المشتركه common حيث يأخذ الطفل في التأثر بلغة مجتمعة شيئا فشيئا •

---

(١) Jespersen, Otto. ,Language, George Allen & Unwin. London. 1922.

اولا : المرحله الاولى:

ان الطفل الذى يولد جديدا يبدأ ظهوره بواسطه الصراخ أو الصياح الذى يعبر فى نفس الوقت عن حيويته وعن تفتح الجهاز التنفسى والحنجرى وبعض الدلائل التى تعكس شيئا من الانزعاج الناتج عن تبدل البيئة وصعوبات الولادة.

ويقضى الطفل فتره تمتد الى الاسبوع السابع أو الثامن يصدر بعض الصيحات التى لاتعتبر كلاما بالمعنى المفهوم ولكنها صيحات عامة يشارك فيها الاطفال جميعا كما انه يعيش حياة خاملة وفى نوم عميق ويعبر صراخه عن نوع من الانزعاج والحاجه الى الطعام أو لتنبيه من حوله الى وجود ما يضايقه أو لايرضيه.

وعندما يدرك الطفل الافاده من صراخه فانه يبدأ فى استخدامه بطريقة شبه اراديه حيث نجده يصرخ ليدفع الآخرين الى حمله مثلا تأكيدا لوجود غرائزه الاجتماعية وهكذا تتحول الصرخة من مجرد عمل انعكاسى الى فعل ارادى يختلف بحسب مدلولاته وغاياته.

ثانيا : المرحله الثانيه (الثرثرة أو البأبأة) :

لاتبدأ هذه المرحله قبل الاسبوع الثالث وتمتد الى حوالى السنه من عمر الطفل. ويطلق البعض على هذه المرحله القبلغويه حيث تصدر عن الطفل اصوات أو مجموعات من الاصوات الاقرب الى الزقزقة وهى سلوك فطرى يظهر عندما تصبح المراكز العليا صالحة للتوافق مع العضلات الكلامية أو الصوتية.

ويذهب يسبرسن الى أن الطفل فى هذه المرحلة لايصدر هذه الاصوات التكرره مثل (بب ..تتـــدد..الخ) قاصدا أو مقلدا للأصوات التى يسمعها من حوله ولكنها مجرد نشاط عضلى مثل تحريكه لاصابعه أو رجليه، ولكنه يجد لذة مع ذلك فى النطق بها وترديدها .

بيد أنه فى هذا الوقت أيضا تقوى تدريجيا حاسة السمع لدى الطفل ويجد

متعة في سماع أصواته . وتحدث احدى الخطوات المهمه جدا عندما يأخذ الطفل في سماع مشابهة بين الاصوات التي ينطقها هو والاصوات التي تنطقها امه مثلا ، اذ نجده يصل في نهاية السنه الاولى تقريبا الى محاوله تقليد ما ينطق امامه بعدما يكون قد تمكن من نطق عدد كبير من الاصوات في شكل سلاسل من مقطع واحد مثل (تتت ووو - ددد .... الخ) .

ولقد حاول معظم من اهتموا بتتبع لغه الطفل ترتيب الاصوات التي ينطقها في هذه المرحله والشائع عموما ان أول ما ينطقه الطفل من الأصوات هي الصوائت vowels المفرده[1] او الصوائت التي يسبق كل منها صامت consonant ومع أن البعض قد ذهب في تفسير ذلك الى ان الطفل يستطيع ان يرى حركه شفتي أمه وهي تنطق هذه الاصوات وهكذا يقلد هو هذه الحركه إلا ان يسبرسن يرى ان مثل هذا التفسير يتضمن قيام الطفل بدرجه كبيرة من التفكير الواعي وهذا أمر غير حقيقي . أضف الى ذلك ان انتباه الطفل فيما يذهب اليه يسبرسن لايكاد في هذه المرحله يتجه الى فم أمه ولكن الى عينيها ، والارجح إذن ان السبب الحقيقي في هذا هو ان العضلات الشفوية المستخدمه في النطق هي نفس العضلات التي دربها الطفل في الرضاعه ومن ثم ينطقها بسهولة .

ثالثا : المرحله الثالثه :

وهي مرحله الكلام التي تستمر لسنوات طويلة . ولقد قسم يسبرسن هذه المرحلة الى فترتين كما قلنا وهي فتره اللغة الصغيرة وفيها يقلد الطفل الاصوات التي ينطقها الكبار من حوله على الرغم من ان كثيرا منها لايكون مفهوما تماما إلا في نطاق بيئته الضيقة المباشرة لأن الكلام الذي ينطقه عادة مايكون بعيدا عما يريد تقليده

---

(١) المعروف ان الصوائت في لغتنا العربية هي الحركات التي يتم بها ضبط الكلمات وشكلها وتشتمل على الفتحة والضمه والكسره وتقابلها على الترتيب الحروف a o i و بالاضافه الى هذه الحركات العربيه هناك ايضا الحروف الممدوة مثل أ المد وواو المد وياء المد .

بمعنى انه فى هذهالفتره يكون متفردا ،الامر الذى يبدأ فى محاوله التخلص منـــه تدريجا لكىتبدأ الفتره الثانية التى تتضح فيها لغته التىتصبح لغه مشتركه حيـــث يصبح كلامه أشد انتظاما واقرب الىالكلام الذىيلفظه الكبار ،وان كان مع ذلكوبخاصه فى بداية هذه المرحلة كثيرا ما يحرف الكلمات كما يجد صعوبة فى نطق بعـــض الاصوات فلا ينطق الا جزءا واحدا من الكلمة٠

والواقع ان لغه الطفل هنا يكون لها بضعة خصائص لها دلالتها ٠ذلـــك ان الملاحظ ان الطفل يكون قادرا على ادراك نغم الكلام الذى يسمعه قبل ان يفهـــم كلمة واحده مما يقال علىمسمع منه ومن ثم فهو يستطيع ان يمز بين ما يوجه اليـــه فى عطف وحنان أو فى حده وغضب٠ومع ان الطفل فى هذه المرحله لايسمع أصـــوات اللغه مفردة ولكنه يسمع كلمات وجملا إلا انه يبدأ فـى ادراك ان للكلمات مدلـــولات معينة وهو ادراك يسبق فىالعادة القدرة علىالنطق بها٠

وتعتبر هذه العمليه التى يكتسب بها الطفل معانىالكلمات من الاهمية بمكـان٠ فهو وان كان بمقدوره إدراك الكلمات التىتدل علىأشياء محسوسة إلا انه غالبا ما يقع فىحيرة عندما تدل بعضالكلمات عليها هو غير محسوس أو معنى أو مما يستخـــدم بطريقه مجازية٠ ولكن لانه يكثر منالسؤال فى هذه السن فيحدث ان يبدأ الطفـل فى اكتساب المعانى تدريجيا ،وان كان يبقى مع ذلك بعيدا عن ادراك فكرة الزمـــن التى تدلعليها بعض الكلمات فنراهيخلط بين الصيفوالشتاء والصباح والمساء٠

ومهما يكن منأمر فان الطفل يتعلم فىالنهايه لغة جماعته ويعينه على هـــذا قدرته الفائقه علىالتقليد وشدة تطلعه الى الاتصال حتى يدخل فىمرحلة الاستقـرار اللغوى التى تبدأ فىالعادة من سن السابعة أو ربما قبل ذلك او بعد ذلك بقليل وبدخوله هذه المرحلة تستقر لغته وتتمكن من لسانه أساليبها الصوتية وترسخ لديـه مجموعة من العادات الكلامية وان ظلت مع ذلك غير مطابقة تماما للغه الاجيـــال الاكبر التى اخذ عنها وان كانت الفوارق تأخذ فىالتلاشى مع الوقت٠

(٥)

وتعتبر دراسات وبحوث جان بياجيه اسهاما كبيرا فى القاء الضوء على هـــذا الموضوع ولكن من زاويه أخرى٠ذلك ان أحد الاهتمامات الرئيسية لبياجيه كان يدور حول التعرف على الحاجات الاساسية التى ينزع الطفل الى ارضائها عندما يتكلم٠ومع أن وضع بياجيه للمسأله على هذه الصوره يجعلها اكثر ارتباطا بعلم النفس الوظيفى الا أن تحليله لم يخل مع ذلك من تصورات سسيولوجية٠

ويقول بياجيه انه قد يبدو للوهله الاولى ان وظيفة اللغه عند الطفل هى كما عند الراشدين نقل أفكار الفرد إلى الغير٠ولكن هل من المؤكد أن هذه هـــى الوظيفه الو حيده حتى عند الراشدين ؟ المشاهد ان هناك كثيرين يناجون انفسهم بصوت مسموع وهى ظاهره لفتت نظر بياجيه واعتقد انها تمهد للغه الاجتماعيـــة فالذى يناجى نفسه يخلق مستمعين خياليين تماما كما يخلق الطفل لنفسه رفقـاء خياليين فى العابه،أو لعلنا نجد هنا صدى تلك العادات الاجتماعية التى وصفهـا بلدوين بقوله إن الفرد يعيد حيال نفسه ضربا من السلوك كان يصطنعه فى الاصل حيال غيره فقط٠ففى هذه الحاله نراه يناجى نفسه كى يحملها على العمل لانه اعتاد أن يكلم الغير كى يؤثر فيهم ويحركهم ٠واضح ان اللغه هنا قد حادت عـــن وظيفتها المفترضه أى أن الفرد عندما يخاطب نفسه فانه يجد فى هذا الحديـــث من المتعة ما يعفيه من الرغبه فى نقل أفكاره الى غيره٠

ولقد كان هذا التصور الذى ساقه بياجيه وشاركه فيه فيجوتسكى مثار اهتمـــام عدد من العلماء من امثال كوهلبيرج وهجير ثولم jertholm وبيجر فمضــوا يبحثون عما اذا كان بياجيه وفيجوتسكى على حق فيما ذهبا اليه من ان الكـــلام الخاص مظهر متميز للنمو والتوجيه المعرفى للطفل الصغير٠

ويرى هؤلاء العلماء ان بياجيه قد درس ظاهرة الكلام الخاص التى يتحدث فيها الطفل حديثا مسموعا إما الى نفسه واما الى آخرين دون ان يدخل فى حسابه وجهة نظر الآخرين أو استجاباتهم ٠واوضح ان هذه المسأله من مميزات حديث الطفـــل حتى سن السابعه وانها تهبط بعد ذلك حتى تختفى٠كما أنه وجه مزيدا مـــن

الاهتمام الى جانب آخر من الكلام وهو الكلام المكيف للمجتمع• فكأن بياجيه قد ركز في الحقيقه معظم انتباهه على العلاقه بين الكلام الخاص أو (المركزى الـذات Egocentric) والكلام الخارجى وأغفل جانبا من الكلام الداخلى الذى هو أقرب الى الفكر من الكلام المنطوق دون بحث أو دراسه جديـة واضحه•

اما فيجوتسكى فقد بدأ من النقطه ذاتها التى بدأ منها بياجيه ولكنه اهتم بتحليل وظيفه الكلام المركزى الذات ونموه وتطوره• وقد اتضح له أن مظهرا واحد من الكلام المركزى الذات هو الذى يختفى مع تقدم السن وهو جانب التلفظ أو النطق •

أما وظيفه هذا الكلام المركزى وتركيبه فينموان ويتطوران ويتحولان الى حديث داخلى تكون له صفاته الخاصه المميزة عن الكلام الخارجى ودون أن يغفل أيضا العلاقه بين الكلام الداخلى والكلام الخارجى، فكأنه أغلق بذلك الدائرة كلها ووصل بين الفكر واللغة وجعل الكلام المركزى الذات هو حلقة الاتصال التى تستمر فى الظاهر الى سن معينة• وان كانت فى الواقع تأخذ صورة أخرى من حيث التركيب والوظيفة، وان يكن هذا كله ليس معناه كذلك انه فصل بين الفكر وبين اللغه فهما فى نظره حقيقتان مرتبطتان إحداهما بالأخرى•

الباب الثانى

المنهجيه العامة فى دراسة اللغـــــه

الباب الثانى

المنهجية العامة فى دراسة اللغـــــــــــة

الفصل الرابع

الظاهرة اللغوية وخصائصها البنائية والوظيفيـة

لعله قد أصبح واضحا لنا الآن أن الحياة الانسانية كان من المستحيل لهـا أن تستمر بشكلها الحالى المألوف لنا، ما لم تكن هناك لغة ما ييسر استخدامهـا للانسان هذه الحياة التى اعتبرنا أن التفاعل الاجتماعى، أو الاتصال، بمعنى عام، هو نسيجها اللازم والضرورى .

ومع التسليم الكامل بهذه الاهمية البالغة للغة، وأنها تلعب مثل هذا الـدور الخطير فى الحياة، فلا يبدو مستغربا إذن أن تكون موضوعا للدراسة العلمية المنظمة بل لايبدو مستغربا - أصلا - أن تثير هذه الظاهرة - اللغة - ومنذ زمن بعيد غارق فى القدم خيال الانسان العادى وأن تشغل تفكيره، لتصبح من بعد الشغـل الشاغل لعلماء اللغة وغيرهم من الباحثين والمتخصصين فى مختلف جنبات النشاط الانسانى، أو الظاهرة الانسانية بتعبير آخر .

وعلى الرغم من أن هذا الاهتمام، أو كما قلنا ، هذا الانشغال هو انشغال قديم فان الشىء المحير هو أن الخلافات مازالت يدور رحاها بين كل هؤلاء لابصـدد المسائل ذات الطبيعة الجدلية العالية فحسب أو على الاقل ما يبدو منها أنه كذلك أو حتى تلك المسائل التى قد تصطبغ بصبغة منطقية أو فلسفية، يعز فهمهـا أو الوقوف على مضامينها، ولكن أيضا بصدد التساؤل البسيط جدا عما يقصد عادة بلفـظ اللغة، أو ربما لان اللفظ ذاته يحمل فى طياته كل ما أشرنا اليه من مسائل جدلية

وفلسفية ومنطقية٠٠الخ كانت هذه الاختلافات التى تحدثنا عن وجودها٠

المهم على أى الاحوال أن هناك ما يشبه التناقض ونحن بصدد رؤيتنا لهذه الظاهرة فهى محيرة ،بل وُجد محيرة،ذلك فى الوقت الذى تبدو لنا مألوفة وعادية تماما حتى أننا نادرا ما نقف أمامها لنتساءل عن كنهها وعن ماهيتها وعن طبيعتها لالشىء إلا أننا نعتبرها أمرا مسلما به،تماما كالتنفس والمشى والنوم وبلع الطعام وكلها مظاهر أعتقد أنها قلما توقفنا وتسترعى انتباهنا ،ناهيك عن تساؤلاتنا٠

(١)

والحقيقة ان اللغة كائن غريب بالفعل ، واذا كنا قد قلنا من قبل انها تتشكل من ذلك الكل المتداخل الذى يشتمل على المهارات والعادات والأفعال والتعارفات والادراكات فيترتب عليه أن أيه محاولة للتعرف على طبيعتها أو حتى لوضع تعريف محدد لها هى محاولة لابد أن تكون محفوفة بكل المخاطر٠

وترجع معظم الاختلافات والصعوبات على العموم الى حقيقة ان اللغة طراز فريد من سلوك الانسان ٠وقد يكفى للتدليل على ذلك ان نقول ان مايظهر لنا منه (أعنى من هذا الطراز) لايكشف كثيرا عن العمليات الحقيقية التى تجرى وراء ذلك والتى لا تتبدى للعيان . وفى هذا فقد شبهها عالم اللغويات الانجليزى جون لوتز Lotz بجبل من الثلج٠بمعنى أن هناك الجزء الظاهر للعيان الذى ندركه منها كالحروف والاشارات والايماءات والكلمات وانتقال الصوت فى ذبذبات عبر الهواء ، ولكن هناك أيضا الجزء الكامن أو الخفى وهو مايعتبر أكثر أهمية وربما أيضا أكثر خطورة (بالنظر الى خصائصه تماما كما هو الحال بالنسبة الى جبل الثلج فى المحيط) من الجزء الاول وذلك مثل التآزرات العصبية والعضلية التىتحدث فى أعضاء الكلام أو فى الجهاز النطقى بعامة،بما فى ذلك الكيفية التى يتكون بها الكلام فى المخ الانسانى٠٠الخ٠

كذلك تتمثل ثانى الصعوبات فى محاولة التوصل إلى مثل هذا التعريف للغة فى أن ثمه بالفعل العديد من العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية التى شاركت

فى دراستها.والمشكلة هنا أن هذه الدراسات بالاضافة الى أن كلا منها قد حاول أن يضع للغة تعريفا يتفق وطبيعة ما يهتم به من تخصص ،فقد امتزجت جميعها فى آخر الأمر بغير قليل من النظر الفلسفى والتأمل العقلى والمنطقى.

أما ثالث هذه الصعوبات فيمكن وصفها بأنها صعوبة منهجية ونظرية فى آن واحد معا،حيث ان مشكلة تعريف اللغة تتطلب فى جوهرها محاولة الاجابة بداية عن سؤالين بذاتهما الأول هو ما نقصده بالفعل من هذا اللفظ (اللغة) والثانى بصدد الانماط ذاتها التى تتشكل الظاهرة فيها والعوامل التى تقوم وراء هذا كله .

ومن الواضح اننا قد تعرضنا فى مواضع كثيرة وان تكن متفرقة مما سبق الى بعض ما قد تضمنته الاجابة على هذين السؤالين من ملامح وأبعاد . واذا كنا قد اكدنا فى ذلك بوجه عام ان مايقصده العلماء باللغة هى اللغة الملفوظة أو اللغة المنطوقة بالذات ،فان هذه الوضعية ذاتها التى تقصر اللغة على تلك الرموز المنطوقة مما يزيد من صعوبة المشكلة وتعقدها لا بالنسبة الى الدراسة الاجتماعية للغة فحسب ،ولكن بالنسبه أيضا الى علم اللغة نفسه [1] .

وقد لايكون من السهل ،بل وربما كان من غير المجدى أيضا أن ترجع إلى الوراء كثيرا لمحاولة الوقوف على تلك التعاريف التى قال بها القدماء فى مختلف العصور للغة،وانما يكفى القول هنا بأن الغالبية العظمى من هذه التعاريف لم تكن بعيدة

---

(١) ومع ذلك ففى استطاعة القارىء الذى يهتم بهذه الناحية المتعلقة بالتعاريف أن يرجع بصفة خاصة الى: Black, Max., Problems of Analysis. Cornell University press. Ithaca N.Y.1954. pp.24-37.

وأيضا إلى الكتابات الكلاسيكية الرئيسية والتى مازالت تعتبر مرجعا فى الموضوع مثل :
Jesperson,O.Language, its Nature, Development and Origin. London. 1922.
Paget, sir Richard., Human speech. London, 1930.

عن تطور المجتمع الانسانى نفسه بمعنى ان معظم الذين تصدوا لدراسة اللغـــة بصرف النظر عن التخصصات ـ كانوا باستمرار على وعى بحقيقة أن اللغة تعكــس شخصية المجتمع الذى توجد فيه وشخصية الافراد والجماعات التى تنطق بها • وهـذا لاتعارض بينه فى الحقيقة وبين ما سبق ان قلناه من أن اللغة كانت محور اهتمـام الفلاسفة والمناطقه على مر العصور •

وقد يمكن توضيح هذه النقطة الاخيرة بصورة أفضل اذا نحن استعرضنا موقـف أحد كبار الفلاسفة من اللـغة • فقد بلغ من اهتمام لودفيج فتجنشين (١٨٨٩ / ٥١) بهذه الناحية أنه قرر أن الهدف الأساسى من وراء فلسفته كلها إنمـا يتمثل فى تحليل اللـغة ••

واذا أدركنا أن فكر فتجنشتين وفلسفته كانا ذا أثر بالغ فى الفكر الفلسفى المعاصر كان من السهل أن ندرك المعانى التى تنطوى عليها كلماته ـ ففى رأى فتجنشتين ان مشكلات الفلسفة ليست أصلا مشكلات، ولكن المشكلة تنتج بصفة أساسية نتيجـة لسوء استخدام اللـغة ونطقها، وبالتالى فان نجاحنا فى حل هذه المشكلات لــن يتـم إلا إذا نحن استخدمنا اللـغة استخداما صحيحا •

أما هذا الاستخدام الصحيح للغة فلن يتأتى فى رأى فتجنشتين إلا اذا عرفنــا القواعد التى يجب أن نستخدمها فى التراكيب اللـغوية المعينة التى ترتبط بسياقـات لغوية واجتماعية وثقافية معينة • وبتعبير آخر لن يتأتى ذلك إلا بواسطة التحليل لهذه الالفاظ والقضايا التى تتكون منها اللـغة وهو ماجعله يقول قولته المشهورة التى عرف بها ان الفسلفة كلها عبارة عن تحليل للـغة •

مثل هذا المنهج التحليلى الذى تيمز به لودفيـج فتجنشتين مما يـعتبر فــى الواقع ثورة على الفسلفة التقليدية •

وبالرغم من اننا لسنا هنا فى معرض الحديث تفصيلا عن فلسفة فتجنشتين فأن من الضرورى ان نوضح مع ذلك بضعةأمور نعتقد انها سوفتساعد على فهم موقفه من اللغة وتعريفه لها ٠

وأول هذه الامور هى مايعنيه فتجنشتين من تلك المسألة التى أشرنا اليها والمتعلقة بعدم الاستخدام الصحيح للغة٠فبالنظر إلى السياق الكلى لنسقه الفسفى لا نجد ان المقصود بذلك هو مجرد ذلك المعنى البسيط أو حتى السطحى الذى يمكن أن نفهمه للوهلة الاولى من التعبير،وأعنى به أن الألفاظ والجمل والتراكيب التى تتكون منها اللغة مما قد يستخدم بطريقة مشوشه أو غامضة أو مبهمة أو حتى أن هذا التشويش والغموض والابهام، مما ينتج عن عدم المعرفه الدقيقة بمعانى الالفاظ ودلالاتها مما يترتب عليه ان تظهر ما يطلق عليه المشكلات الفلسفية،ولكن الأبعد من ذلك وهو ماتنتج عنه كل المشكلات بالفعل ما يقرره من أن الاستعمال الفعلى للالفاظ حتى تلك التى نعرف معناها انما يتم بطرق غير سليمة تبدو معها المشكلات نتيجة حتميه لهذه الطرق غير السليمة٠

وقد يكون من الصعب توضيح ما يقصد إليه فتجنشيين ،ولكن الامر ببساطة يمكن أن نحصره فى نقطتين أساسيتين هما :
أولا ان استخدامنا الفعلى للالفاظ والتعبيرات فىالسياقات التى يكون لها فيها معنى كثيرا ما يؤدى بنا الى استخدام هذه الالفاظ والتعبيرات ذاتها فى سياقات آخرى ولكن حين توضع فى هذه السياقات فلا يكون لها (للالفاظ والتعبيرات) أى معنى٠
اما النقطه الثانية فتبدو أشد تعمقا وتجريدا من سابقتها ،ومؤداها ان هذه السياقات الثانية والتى قلنا ان الالفاظ والتعابير فيها لايكون لها معنى ،طالما انها (أى السياقات) تبدو لنا على نفس النمط أو الشكل المنطقى الظاهر لنمط والذى تكون عليه السياقات الاولى(حيث يكون للالفاظ والتعبيرات معنى)فاننا نتيجة لهذا التشابة الظاهر عادة ما نفشل فى ادراك انها خالية من المعنى،ويترتب عليه ان تظل ندور ولكن بلا جدوى بحثا عن إجابات لأسئلة ليس لها اصلا أية إجابه أو أسئلة ما كان ينبغى انتتساءلها اذا كنا كنا نعرف حقيقة

مانفعله [١] .

إن اللغة عند فتجنشتين هى (مجموع القضايا)، كما ان القضايا عنده ليست الا أفكارا فى ذهن الانسان ، ومن هنا فكأن الفكر هو إذن قضيته الرئيسية ذات المعنى وبالتالى فإن ألفاظ القضية هى فكرة إذا ما حللناها وبحثنا مضمونها .

هذه الصلة العضوية بين القضية والفكر والمعنى والتى يمكن أن تكون كل من هذه الألفاظ الأخيرة بمثابة الجزء من الكل، أو هى (كلها) اللغة بتعبير آخر، هى بالذات ما عاد فتجنشتين فى فلسفته المتأخرة يؤكد عليه وعلى وظيفته ولكن فى هذه المرة لا من حيث ما يؤدى للبناء اللغوى أو البناء الفلسفى أو الفكرى عموما، وانما من حيث ما يؤديه فى حيلة المجتمع والثقافة [٢] .

فلقد أكد فتجنشتين ان اللغة قد أصبحت وسيلة للتفاهم مع الآخرين بل هى أهم وسائل الاتصال الانسانى وأبعدها تأثيرا ليس فقط من حيث المعنى الظاهرى الذى قد يمكن التعبير عنه بانه بدون اللغة ما كان بمقدورنا أن يتصل بعضنا بالبعض وأن يتم تبادل الرسائل فيما بيننا كراسلين ومستقبلين — وهو ما يعتبر فى ذاته على غاية من الاهمية — ولكن أيضا بالنظر الى ما هو أبعد وأخطر من ذلك ، أعنى انه بدون اللغة ما كان باستطاعتنا أن نوثر فى غيرنا من الناس على هذا النحو أو ذاك ، وما كان بمقدورنا أن نقيم الطرق أو نبنى الآلات وأن ينجز الانسان ما انجزه من ثقافه وحضارة [٣] .

---

(١) Charles Worth, Maxwell., Philosophy and Linguistic Analysis. Duquesne University Press. Pittsburgh, pa., U.S.A. 2nd impression. 1967. p. 87.

(٢) Wittgenstein, L., Philosophical Investigations. Tran. by Anscombe. Oxford. 1963. Pr. I. pp. 47-9.

(٣) يتفق هذا المفهوم تماما مع ما نجده عند فيليب لوكوربييه Le Corbeillet الذى اكد ان الكلام هو الخطوة الاولى التى خطاها الانسان فى مجال الاتصال مثلما كانت النار بالنسبة لميدان التكنولوجيا وبدونهما ما كان للانسان ان ينجز انجازاته الثقافية والحضارية التى ما كانت لتتم إلا بتراكم المعلومات والخبرات وانتقالها عبر الاجيال .

ولقد ربط فتجنشتين بين هذا المفهوم وبين الخبرة الواقعية أو الخبرة بالواقع بمعنى أدق .وعلى الرغم من أن هذا قد أدى به ـ اتساقا مع منطق فلسفته التحليلية ـ إلى تحليل الواقع والعالم الخارجي نفسه ،فانّ مايهمنا هنا هوما ذهب اليه من أن حدود اللغة مرتبطه بالضرورة بحدود عوالم الاشخاص ،بمعنى انحدود لغتى تعنى حدود عالمى.

والواقع ان هذا التصور تترتب عليه إحدى النتائج المثيرة.فلما كان من المحتمل باستمرار ألا يقع فى خبرة البعض ما قد يقع فى خبرة الآخرين ،فسوف يكون ما يعرفه الاخرون عن العالم (أى عالمهم وفقا لفتجنشتين) مغاير لما يعرفه اولئك عن عالمهم وستكون لغتهم التى هى حدود عالمهم مختلفه بالتالى عن لغة الاخرين التى هى ايضا حدود عالمهم وهو الامر الذي يجعل من التفاهم بين اولئك وهؤلاء مسألة متعذرة .وهو موقف ولئن كان مشابها لما نجده عند بنيامين قورف Whorf الا انه هنا يعكس ابـعادا ملحوظه عن النظرية التصويرية فى اللغة ويقترب بدلا من ذلك اقترابا شديدا من المفهوم العادي والمعاصر للغة وهو المفهوم الاجتماعى علىوجه التحديد.

ومع اننا لانعتزم هنا بالطبع أن نعدد تلك التعاريف التى وضعها الفلاسفة للغة وذلك على اعتبار أن أية محاولة منهذا النوع ستكون بالضرورة محاولة ناقصة بالاضافة الى أننا فيالحقيقة لسنا بصدد استجلاء تلك (المنظورات) الفلسفية التى قد يكون موضع اهتمام ميادين أخرى لفلسفة اللغة Linguistic Philosophy على سبيل المثال ،الا أننا ـ وقد تحدثنا عن لودفيج فتجنشتين ـ نرى أنه ليس ثمه ما يحول دون التناول السريع لبعض التعاريف خاصة وأن التفكير الفلسفى مما يتسم بغير قليل من الرمزية ومن ثم يمثل حجر أساس فى الدراسة الفلسفية للرمز اللغوى (١) . ذلك بالاضافة الى ما تضمنته افكار الاجيال المتعاقبة من الفلاسفة من تساؤلات بصدد طبيعة المعنى فى اللغة وطبيعة اللغة ذاتها.

---

(1) Susann K. Langer., Philosophy in a New Key. Harvard University press. Cambridge, Mass, 1963. p.201.

وقد كان المعروف دائما أن ارتباط الفكر والتأمل الفلسفيين بأى من المعايير الامبريقية من شأنه أن يضع على هذا الفكر والتأمل أقسى القيود وأشدها صرامة. وبالرغم من أن هذا قد طرأ عليه غير قليل من التغيير على الاقل بالنسبة لبعض الاتجاهات الفلسفية المعاصرة، فاننا نجد أسس هذا التفكير على الاقل في العصر الحديث في فلسفة ايمانويل كانط Kant ونظرته التحليلية على نحو ما ظهر في نقده للعقل النظرى الخالص بصفة خاصة وفي تصوراته المسبقة التي عكستها فلسفته المثالية التي أعلت من قيمة العقل لدرجة القول بأن كل ألوان التفكير والادراك (حتى الاخلاقى) انما ترجع الى افكار مسبقة لايتسنى الوصول إليها إلا عن طريق العقل ودون اللجوء إلى أية تجربة أو خبرة مناسبة.

والمهم في ذلك كله هو اننا نلتقى بالخط الفكرى نفسه عند الفيلسوف الألمانى هيجل Hegel (١٧٧٠/١٨٣١) حيث عرف اللغة تعريفا يتسق تماما مع المثالية الألمانية على انها فن الذكاء أو انها العقل النظرى في أصدق معانيه، لانها التعبير الخارجى لهذا العقل.

أما في وقت أكثر حداثة فنلتقى بفردنان دو سوسير (١٨٥٧/١٩١٣) الذى قلنا من قبل أنه يعتبر حجر أساس في اللغويات الحديثة، يذهب الى أن اللغة في أساسها هى نسق من العلامات والرموز الصوتية، أو هى بتعبير آخر مجموعة من الصور اللفظية التي تختزن في أذهان الافراد كى يستخدموها في التفاهم والاتصال السماعى بمعنى أن المدلول يتمثل لدى السامع فور سماعه اللفظ أو ما أطلق عليه الدال.

أما جون كارول Carroll فيعطينا منظورا آخر يرتبط ارتباطا وثيقا بالجماعة

---

(١) Carroll, J.B., the study of language. cambridge Mass: Harvard university press. 1953. pp. 21-22.

الكلامية ومن هنا وظيفتها فى التعبير عن الافكار وفى تنظيم هذه الأفكار باستخدام اللفظ المنطوق .

اللغة عند كارول هى ذلك النظام الذى يتشكل فى الاصوات اللفظية الاتفاقية ، وتتابعات هذه الاصوات الى تسخدم فى الاتصال المتبادل بين الافراد والجماعات التى يمكنها أن تصنف على وجه من الوجوه الاشياء والاحداث والعمليات المختلفة التى تقع فى البيئة الانسانية.

كما نجد عند هرنى سويت Sweet تعريفا مشابها يقوم على تصور كلاسيكى للغة.فاللغة فى رأيه هى التعبير عن الافكار بواسطة الأصوات الكلامية المؤتلفة فى كلمات .وهذه الكلمات هى التى تركب أو تولف الجمل وهذا التركيب (المركب) بأكمله هو ما يعبر عن الافكار (١).

ومن ناحية أخرى نرى ادوارد سابير Sapir يقرر ان اللغة هى وسيلة انسانية خالصة بمعنى انها غير غرزية بالمرة.وهى وسيلة لتوصيل الافكار والانفعالات والرغبات عن طريق نظام من الرموز التى تصدر بطريقة ارادية.وقد حدد ذلك بشكل أوضح فذهب الى أن اللغة من حيث البناء هى فى هيئتها الباطنة قالب للفكر.

ومع ذلك يقدم سابير منظورا آخر سوف يكون له تأثيره فى بعض العلماء والتلامذه بوخاصة بنيامين فورف حيث ذهب سابير الى أن اللغة هى فى الواقع التى ترسم أو بالاصح تحدد نظرة المجتمع للعالم وللحياة وربما من هنا احساس الافراد والجماعات انهم لا يعيشون بعيدا عنها ولكن تحت ضغط إسارها كوسيلة اتخذت للتفاهم وللاتصال بينهم ، ومن ثم فهى ليست مجرد وسيله للتعبير بالمعنى الضيق، ولكن هى نفسها التى تشكل ما يراد التعبير عنه وبالتالى كيفيه التعبير ذاتها .

أما هرمان بول Paul فقد ذهب الى أن اللغة المبكرة كانت أى شىء إلا أن تكون

(١) The New Encyclopaedia Britannica . Vol.22. op.cit.p.566.

شيئا عقليا او اراديا ٠فهى كمجموعه من الأصوات تعتبر منذ نشأتها متنفسا للاحساسات والمشاعر العميقة اكثر منه كونها تعبير عن شيء ٠اضف اليه انها لم تكن فى أى حال وسيلة لاخبار الآخريين عن هذا الشيء او ذاك ولو انها قد أصبحت بطريق غير مباشر وسيلة للتوصيل ٠

على حين نجد ان الاستاذين برنارد بلوخ Bloch وجورج تراجر Trager يصوغان لنا فى كتابهما Outline of linguistic Analysis الذى صدر فى عام ١٩٤٢ تعريفا محددا مؤداه أن اللغة هى نظام من الرموز الصوتية الاعتباطية التى تتعاون عن طريقها الجماعات الاجتماعية ٠

وفى الوقت الذى نجد فيه بلومفيلد يعرف اللغة بأنها سلوك لفظى Verbal Behavior أو سلوك لغوى لايختلف فى شيء عن غيره من العادات السلوكية الأخرى ،فاننا نجد ميلفيل هرسكوفيتز Herskovitz يعرف اللغة بأنها نسق من الرموز الصوتية التى تمكن الزمرة الاجتماعية من التفاعل والتعاون ٠فالكلام يعتمد إذن على القدرة على عمل التجريدات بكثرة والتعبير عن هذه التجريدات برموز معينة ثم استخدام هذه الرموز بسرعه وطلاقة ٠وهو تعريف لايختلف على أى الاحوال عن تلك التعاريف التى ركزت على إبراز الجوانب الاجتماعية وما تقوم به اللغة فى حياة الجماعة على ما وجدنا فى تعريف بلوخ وتراجر وغيرهما ٠

(٢)

ولكن الاكتفاء باستعراض التعاريف السابقة والوقوف بهذا الاستعراض عند هذا الحد من الواضح أنه لايحقق نفعا أو فائده مرجوة ٠خاصة وان (اقتطاع) التعريف من سياقه الذى قيل فيه كثيرا ما يخل بمختلف المعانى التى قد يكون الكاتب قد قصد اليها والتى قد لاتظهر صراحة فى التعريف المنقول ٠

فاذا أضفنا الى هذا ان عددا كبيرا من التعريفات التى يقول بها العلماء للغة هى تعريفات يشوبها الكثير من الغموض،الأمر الذى قد يكون ناتجا ـ كما ذهب

فتجنشتين - عن سوء استخدام اللغة ،فيكون ذلك كله دافعا الى محاولة استكشافها من جديد لابراز ما قد يكون بينها من أوجه شبه أو اختلاف ومن ثم ابراز العناصر الاساسية التى قد تشارك فيها ،وهو مايفيد ليس فقط فى التعرف على الملامح أو الخطوات الرئيسية التى سارت فيها أفكار العلماء فى دراستهم للظاهرة اللغوية ،ولكن أيضا - وهذا هو الأهم - فى اعطاء أهم الخصائص التى اذا ما نجحنا فى الربط والتنسيق بينها بطريقة سليمه ومؤثره امكن لنا القول بأن ما اصبح بين أيدينا هى اللغة بعينها.

ولعل أول ما يلفت النظر بصدد هذه التعاريف انها تتأرجح بين بعض الافتراضات المسبقة وبالتالى فانها تفترض جدلا وجود عدد من التساؤلات .ففى الوقت الذى نجد ان بعض هذه التعاريف قد ركزت كثيرا على الفكر فقد مال البعض الاخر الى استخدام كلمه "اعتباطية" أو عرفية او تعسفية Arbitrary بطريقة ربما تفتقر الى شيء من الوضوح أو التحديد على حين تردد لدى فريق آخر لفظ "الرمز" Symbol ربما أيضا بشكل (رمزى) يفتقر بدوره الى الدلالة والوضوح.

ومع ذلك فان الشيء اللافت للنظر - وهذا من الناحية الأخرى - هو ان هذه التعاريف قد شاركت جميعها وان اختلفت السبل - فى الاعتقاد الحاسم بأن اللغة فى معناها الحقيقى هى اللغة الانسانية التى يختص بها الانسان دون أى جنس آخر وفى هذا ما فيه من تفرقة حاسمة بين هذه اللغة بمثل هذا المفهوم وبين ما قد يكون هناك من وسائل اتصال بين افراد الانواع الأخرى غير الانسانية ولكنها أبدا لاترقى إلى مستوى اللغة الانسانية التى نحن بصددها.

ومهما يكن من أمر هذه الملاحظات جميعها فهناك مجموعة من الخصائص الرئيسية تلك التى قلنا إنها تميز لغة الانسان .أما هذه الخصائص فهى:
أولا : ان اللغة تنتمى ،كما تضرب بجذورها فى الكلام ،بمعنى انه لايعتبر من قبيل اللغة بالمعنى الاصطلاحى للكلمة الا ما اشتمل على انتاج أو توليد الأصوات وتسم استقبالها وادراكها وتفسيرها من ثم فى ضوء العمليات التى تتم فى أعضاء النطق الانسانى .وبهذا المعنى يصبح من المشروع تماما ان نستبعد من نطاق اللغة

بهذا المعنى المقصود مختلف الانماط والانساق المألوفه كالكتابة أو لغة الاشارات•الخ•

ثانيا : ان فن الكلام باعتباره نشاطا اجتماعيا انسانيا لايتم الا فى موقف كلامى ويعنى هذا ضرورة ان يكون هناك من يتكلم ومن يستمع ومن يستجيب أو كما عبر عن ذلك صامويل بتلر Butler فى عبارة أخاذة أنه لا بد من وجود a sayer and a sayee وهذه عملية متسقةومنظمة وموجهة أيضا نحو أفعال وغايات محددة•ومن هنا فانه (الكلام)يشبه الافعال الاجتماعية الاخرى التى تظهر فى مختلف أشكال التعاون أو فى غير ذلك من صور التفاعل الاجتماعى•وان كان وجه الخلاف يتمثل مع ذلك فى أن الكلام أمر موجه الى مستقبل معين كما أنه موضوع مستمر يخضع لعمليه تغذية دائمة •

ثالثا : اللغة عبارة عن نظام اجتماعى حيث يقوم وراء الفرد المتكلم أو المتحدث المجتمع الكلامى الذى ينتمى اليه الفرد وفيه كل تقاليده وأنماط سلوكه التى يشارك المتحدث فيها •والمتحدث هنا يمارس هذه الوظيفة الكلامية فى ظل ما تحدده هذه التقاليد والانماط من قواعد قد لايستطيع الخروج عليها ،وهو إن خرج بدرجه أو بأخرى فإنه لايستطيع ان يتجاهلها تماما •
والـلغة بهذا الشكل هى نظام اجتماعى مثل نظام العائلة والقانون •••الخ•

وبالرغم من أن البعض يرى ان هناك من الحيوانات (والطيور أيضا والحشرات) لديها شيئا مشابها لهذه التنظيمات (العائلية بخاصة) كما أن البعض منها قابل للتعلم ،فان كل هذه المظاهر لاتتسم بالجبرية كما فى النظم الاجتماعية،ومن هنا تظل بعيدة عن نطاقها وذلك بسبب كونها من اختراعه هو• ومن هنا أيضا حاجته الى اللغة، والى تعلم الكلام لأنه لايولد "متكلما"وسيظل ابكما اذا لم تواته الفرصة التى تكشف عن قدرته اللغوية الفطرية الكامنة•

رابعا : اللغة الانسانية نسق له طابع خاص يتكون من عناصرمعينه بذاتها هى الفونيمات التى تمثل الاصوات الأولية القابلة للتركيب ولان تدخل فى البناء مكونة الكلمات أو مايطلق عليه الصور فيمات Morphemes باعتبارها أجزاء من الكلمات•مع مراعاه ان الفونيم هو الصوت الأساسى الذى لا غنى عنه•

خامسا : اللغة نسق ذات معنى وذات دلالة تم تشكيله للتعبير عن الافكار وعن الاتجاهات والمشاعر ... الخ وغير ذلك مما يريد المتكلم ان يبعث به أو يثير عن طريقة بعض الاستجابات لدى السامعين .

سادسا : ان اللغة على الرغم من كل مايظهر فيها من جمود هى فى الحقيقة ظاهرة تتسم بالمرونة والقابلية الهائلة للتشكيل الى مالانهاية وان تكن هذه المسألة لاتتم بدورها عرضا أو اتفاقا ، ولكن وفق قواعد وقوانين التغير اللغوى والتى نرجو أن نحيط بها فيما بعد .

سابعا : اللغة الانسانية ارتباطا بما سبق هى نظام مفتوح opened على حين تعتبر الا شارات والايماءات وما الى ذلك مما قد يستخدمه الحيوان كالصرخات والهمهمات نظما مغلقة .

ويترتب على ذلك امران أولهما الامكانية الهائلة للتركيب والتكوين وثانيهما ، ان هذه الامكانية ذاتها مما ينطوى على عنصر أو قدره الابتكار والابداع أو على الاقل قدرة التغيير والتبديل والاحلال وهو مالايتوافر بالنسبه لسائر الحيوانات .

(٣)

بيد أن أية محاولة للتعرف على وظيفة اللغة لاتأخذ فى اعتبارها سوى مجرد حصر ما قد يخطر على البال من هذه الوظائف لابد أن تظل محاولة ناقصة ومبتسرة وذلك أمر بدهى فى الواقع لانه ليس فى إستطاعتنا تفسير اللغة وشرحها من مجرد حصر استخداماتها .

وبناءًا على هذا فإنه يمكن القول إذن أن الكثير من التمييزات التى وضعها بعض العلماء مثل تلك التى أقامها مالينوفسكي بين الاغراض العملية والسحرية للغة وايضا تلك التى أقامها كارل بوهلر بين الاستخدامات التعبيرية والوظائف المعرفية ستظل تمييزات غير كافية وربما أيضا غير مقنعة لانها لا تأخذ فى اعتبارها البناءات اللغوية ذاتها .

ومن الناحية الاخرى كذلك فان اعتبار البناء اللغوى وحده وبشكل لايهتم فيه بابراز أو تناول الوظائف التي تقوم اللغة بها سدا لاحتياجاتنا مما يعيد بدوره أمرا ناقصا ومبتورا ونحن نحاول فهم الخصائص البنائية والوظيفية لها .

وبتعبير آخر ، يلزم إذن أن نعتبر النواحي البنائية ، ولكن في الوقت نفسه تغيرها كنسق من الوظائف المرتبطة باحتياجات الانسان في المجتمع والناحيتان معا يطرأ عليهما من غير شك غير قليل من التغيير، بتغير الملامح الثقافية أو المقومات البنائية لكل من الثقافة والمجتمع على الترتيب.

الفصل الخامس

الاتجاهات والنظريات العامة فى دراسة اللغة
(منظور تاريخـــــــــى)

على الرغم من أنه يمكن القول بأن هناك ما يشبه الاتفاق بين معظم علماء اللغة المحدثين فيما يتعلق ، على الاقل ، بالخصائص البنائية والوظيفية الجوهرية للغـة الانسانية ، فان مالاشك فيه هو ان مثل هذا الاتفاق من الصعب الادعاء بأنه قائم بينهم ، بالنسبه الى قضية أصل اللغة وكيفية نشأتها ٠

وقد يتصور البعض أن مجرد الحديث عن طبيعة اللغة Nature of Language لابد وأن يمس بوجه من الوجوه قضية الاصل والنشأة Origin ، الأمـر الذى من شأنه أن يلقى بالضوء على ملامح وحدود هذه القضية وذلك على اعتبار أن فى هذه (قضية الأصل) بعضا من تلك (طبيعة اللغة) ٠

ولكن على الرغم من ان هذا قد يبدوا صحيحا فى جملته ، وعلى الرغم أيضا مـن أنه قد أمكن — كما وضح لنا — الوقوف على كثير من ملامح اللغة وصفاتها وخصائصها فمازالت القضيـة تشغل بال المفكرين وتستغرق جانبا كبيرا من تفكيرهم ، تماما كمـا كان الحال منذ أقدم العصور ٠ ذلك أن احد الاسئلة التى طالما شغلتهم — ومـا زالت حتى الان — كان يتمثل فى الكيفية التى نشأت بها اللغة الانسانية فى أول الأمكنه التى وجدت فيها ؟ وعلى أية صورة من الصور تمكن الانسان أول ما تمكن من أن يصدر تلك الاصوات التى اصطلح على تسميتها "اللغة" والتى أصبح من يومئـــذ يستخدمهـا فى مختلف الاستخدامات والاغراض مما يصعب حصره وتحديده ٠

والواقع أن هذه التساؤلات تنطوى على صعوبة ذاتية لابد من التنويه بهـا حتى لاتضل بنا السبل ٠ فقد سبق أن تحدثنا عن الاكتساب اللغوى وتناولنا فـى هذا لغة الطفل والكيفية التى يكتسب بها لغة مجتمعه ، وهو ما يعرف عمومـا

بمسألة النمو اللغوى عند الطفل منذ أول مايولد وحتى يتمكن من لغة قومه.

والشيء المهم هنا هو أن الحال يختلف بالنسبة لما نحن بصدده الآن ، لانه يتعلق باللغة الانسانية ذاتها وبالنطق الانسانى نفسه. أقصد كيف نطق الانسان أول ما نطق ؟ أو كيف ظهرت اللغة عند الانسان بمعنى عام ومطلق ؟

وقد يظهر ان القضية بهذا الشكل لاسبيل إلى حلها ، أو بمعنى أدق ، أن الاسئلة التى طرحت لاسبيل الى الاجابة عليها بشكل مقنع ومقبول، فاللغة كما اشرنا من قبل تضرب بجذورها فى عمق التاريخ الانسانى وهى بذلك تعتبر سرا من أسرار الماضى البعيد . اضافة الى أنه ليس بمقدورنا بالفعل أن نهتدى فى عصور ما قبل التاريخ الحقيقية الى تلك المراحل التى قطعتها البشرية ومر بها الانسان الى أن توصل إلى الرمز وتمكن من التعبير بهذا الرمز عما يريد. مما جعل البعض يقرر أن مشكلة أصل الكلام الانسانى وكيفية نشأته مشكلة لم تجد حلا حتى الآن .

ولكن هذه النتيجة لاتعنى فى ذاتها انه لم تكن هناك محاولات قام بها العلماء لازالة ما يحيط بالمشكلة من غموض . بل لعل الاقرب الى مضمونها الحقيقى انه قد وجدت بالفعل مثل هذه المحاولات وانما كل ما فى الامر انه لم يتأت لها أن تصل إلى شئ مقبول او معقول. والواقع أن هناك بعض الأبعاد والعوامل الرئيسية التى يمكن القول بأنها حددت حركة الاتجاهات العامة والنظريات والآراء التى قيلت بصدد نشأة اللغة. أما هذه فيمكن التمييز فيها بين بعدين أساسيين هما :

أولا : من حيث الموقف العام الذى ظهر لدى المفكرين القدماء والذى تحددت فى ضوئه الى أبعد الحدود مسيرة ماقدمته الاجيال المختلفة اللاحقة من العلماء والباحثين ، أما البعد الثانى فهو بصدد الشواهد والقرائن العديدة (وان لم تكن مباشرة تماما) التى أقيمت عليها بعض النظريات الرائدة فى الموضوع .

وفيما يتعلق بالبعد الأول فقد ألمحنا من قبل الى أن موضوع أصل اللغة ونشأتها قد مثل قضية شغلت المفكرين منذ أقدم العصور . وعلى الرغم من أن كل ثقافة من الثقافات القديمة كانت لها ولاشك تصوراتها الخاصة بصدد هذه المسألة، فقد

يكفى ان نرجع فحسب الى الاغريق القدماء وبصفة خاصة الىافلاطون وأرسطو وذلك على اعتبار أولا ان الاغريق كانوا أول الشعوب التىاعطت الفكر الاجتماعى بعامة طابعا فلسفيا مميزا ، وثانيا لأنه يرجع الفضل الى أفلاطون وأرسطو بصفة خاصة فى تشكيل ماهية الافكار الرئيسية التى تنضح بها الحضارة الغربية المعاصرة وذلك الى الدرجة التى يستحيل معها تصور هذه الحضارة بعيدا عن الافكار والرؤى الاصلية التى انحدرت من افلاطون وارسطو ومن قبلهما سقراط (١) .

ولقد انقسم هؤلاء بصدد القضية فريقين الاول وقد تزعمه افلاطون رأى - متأثرا فى هذا بهيراقليط من أقطاب للمدرسة الايونية - أن اللغة توقيف والهام الهى . وقد سار الرواقيون علىالنهج الافلاطونى حيث تبلورت لديهم فكرة ان اللغة فطرة انسانية لاتحكمها قوانين مطردة مما تخضع له الظواهر والاشياء .

اما الفريق الثانى وعلى رأسه أرسطو فقد رأوا ان اللغة علىالعكس مما رأى الفريق الاول هى تواضع واصطلاح أى انها نتيجة للاتفاق الذى ينبع مناحتياج الجماعة الكلامية . واذا كان الرواقيون قد اتبعوا افلاطون فقد تبع أرسطو الابيقوريون وكذلك القياسيون Analogists الذين انتقلت اليهم افكار أرسطو وآرائه .

والمهم على أى الاحوال أن هذه الافكار لم يتخطها الفكر الغربى بعد ذلك فى مناقشته لمشكلة نشأة اللغة اذ ظل يميل تارة الى هذا الفريق وتارة أخرى الى الفريق المقابل وظهر ذلك جليا فى بعضالنظريات التى قيلت بعد ذلك بقرون .

أما البعد الثانى الخاص بالشواهد والقرائن التى قلنا ان بعض النظريات قد انبت عليها . فهذا مما يستلزم بدوره نظرة متأنية .

وعلىالرغم من أنه يصعب حصر هذه الشواهد على نحو دقيق ، فمن الممكن

---

(١) محمود أبو زيد ، القانون والنظام الاجتماعى ، دار الكتاب للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة ١٩٨٧ ، صفحة ١١ ، ١٢

اجمالها في مجموعة من الانماط المستقاة من، أولا ، لغة الاطفال ، وثانيا، لغة المجتمعات البدائية ، وثالثا، أشكال وأنماط التغيرات التي تعرضت لها اللغات المختلفة المعروفة، ورابعا ، تلك الشواهد المستقاة من دراسة سلوك بعض الحيوانات الراقية مثل الشمبانزي، وأخيرا تلك التي أمكن التعرف عليها من دراسة بعض أمراض النطق والكلام.

ويترتب على ذلك منطقيا ان نتساءل : الى أي حد إذن تساعد هذه الشواهد والقرائن في إقامة نظريات تفسر لنا بالفعل أصل اللغة الانسانية وكيفيه نشأتها ؟ وهو تساؤل من الواضح أنه يستدعي التمعن في دلالة كل منها .

والحقيقة اننا لو نظرنا الى لغة الاطفال Language of children فسوف ننتبه على الفور الى إن موقفهم يختلف اختلافا بينا عن موقف أسلافنا الأول وذلك لسبب جوهري هو أن طفل اليوم إنما يكبر وينمو وسط بيئة يوجد بها بالفعل نظام لغوي متكامل الى ابعد الحدود كما أنه (الطفل) محاط بالكبار الذين يستخدمون هذه اللغة ويلقنونه اياها .

وقد تلقى لغات الشعوب البدائية ، والتعرف على تاريخ اللغات في العصور التي عرفت فيها اللغة بعض الضوء على أصل اللغة عن طريق تحديدها لاكثر العناصر التي تم هجرها والتخلي عنها . ومع ذلك فلابد أن تؤخذ هذه الناحية بمزيد من الحرص لأن اللغة التي تتكلمها أكثر الشعوب المعاصرة بدائية وتأخرا لايمكن أن نتجاهل حقيقة انها تمثل نمطا راقيا تسانده عراقة ما يزيد على مليون من السنين بينما لايتجاوز عمر اقدم اشكال الكتابة بضعة آلاف من السنين .

ومن الممكن بالطبع - أن تكون اللغة في العصور المبكرة قد تغيرت بشكل أكثر بطئا عما حدث في العصور التاريخية، ومع ذلك فينبغي أن نلاحظ ان تاريخ الثقافة الانسانية كان يعكس فترات تغير متلاحقة ، فقد استغرقت عمليه التطور البشري أكثر من مليون عام لينتقل الانسان من العصر الحجري القديم old stone age الى مرحلة الثقافة المادية المتقدمة في العصر الحجري الوسيط middle ثم

العصر الحجرى الحديث New stone Age ولكن الامر لم يتطلب أكثـــر من ٥آلاف عام فقط أو ما يقرب من ذلك لتخطى الحضارة هذه المرحلة إلىالعصـــر البرونزى Bronze Age وربما حوالى آلف عام أخرى للانتقال الى عصـــر الحديد Iron Age وان كان الامر مع ذلك كله قد بدأ يصطبغ بغير قليـــل من الغموض نظرا لما يعتقده البعض من ان اللغة والتغيرات اللغوية قد ســـارت موازية للتغيرات فىالثقافة المادية ·ولئن كان ذلك صحيحا فمعنى ذلك ان هنـــاك فترة مجهولة (ثغره أو هوة) تقدر بحوالى مليون عام بين أصل اللغـــــة وأول ، السجلات المكتوبة ·وان كان هذا التقدير بدوره مما ينبغى ايضا النظر اليه بمزيـــد من الحرص نظرا للغموض الذى يلف القضية كلها وعدم توافر الشواهد والمعلومـــات الدقيقة بصدد هذه المراحل الغارقة فى القدم·

إلا أن هناك ناحية أخرى يمكن أن تعطينا بعض المؤشرات فيما يتعلق ببعض هذه الشعوب البدائية ·فالملاحظ تماما ان لغات هذه الشعوب تعبر تعبيـــــرا مباشرا عن الاحتياجات العادية والمألوفة وبخاصة تلك الاحتياجات المادية·فالاسكيمو على سبيل المثال لاتوجد لديهم كلمة واحدة تشير الى الثلج Snow ولكن لديهـم سلسلة من الكلمات التى تميـز بين الانواع والحالات العديدةللثلج ·وذلك لأنهـم يستجيبون لنمط ثقافى معين يتطلب منهم الاهتمام بالنواحى المادية والتنوعـــــات المعينه والمتعدده لهذه النواحى طالما انهم ليسوا فىحاجة إلى كلمة واحدة عامـــة وكلية (١) .

اما دراسة الحيوانات العالية (الراقية) فقد تساعدنا عن طريق ما قد تلقيه من اضواء علىتلك الصورة التى كان عليها الانسان فىالمراحل القبل لغوية على ماذكرنـــا من قبل ·ولكن هذه الوضعية ذاتها تعنى بالدرجة الاولى أن اللغة الانسانية قـــد بدأت من تلك الأصوات والصرخات والاشارات والصيحات التعبيرية التى تولدت منهـا هذه اللغة مباشرة·

---

(١) Barber, C., Op.cit .p.26.

وبالرغم من كل الشكوك التى تقوم حول هذا الاعتقاد فإنه لا يكشف - من الناحية الأخرى - عن الطريقة التي ابتكر أو اخترع بها الانسان اللغة. فمهما كانت القدرة التى قد يتمتع بها إرقى الانواع الحيوانية على اصدار الاصوات التعبيرية فسوف تظل أبدا حيوانات ولن تستطع تجاوز هذا المستوى الحيوانى (القردة ستظل قردة رغم كل شيء) . ويكفى القول أنه بالنظر الى حجم المخ فى مثل هذه الكائنات الحيوانية والى تركيبه واليه فى الانسان لتتضح الفوارق المذهلة التى كانت شروطا مسبقة لوجود اللغة الانسانية.

كذلك الحال بالنسبه الى الشواهد من النوع الأخير والمتعلقة بدراسة سلوك الافراد الذين يعانون من نقص أو عجز فى قدراتهم اللغوية والكلامية . وما يبدو لنا أن هذه الشواهد هى فى الحقيقة آخر ما يمكن ان نطمئن الى سلامة ما تقدمه لنا من مساعدة فى فهم نشأة اللغة وأصلها .

فالمعروف تماما أن العلماء عندما يشيرون الى هذه الناحية المتعلقة بعيوب التكلم انما يقصدون الاشارة الى مرض الحبسة Aphasia بالذات الذى تتعرض فيه القدرة على الكلام الى التدمير الكلى أو الجزئى . الأمر الذى يعزى عادة إلى إصابات المخ (١).

---

(١) من المهم ان نفرق هنا بين اللغة بمعنى القدرة على فهم الكلام والاستجابة وتركيب الجمل والعبارات وبين الكلام بمعنى امكانيه نطق الاصوات بالفعل . وترجع اهمية ذلك الى حقيقة ان عدم القدرة على النطق لسبب من الاسباب مما لا يمنع (بالضرورة) القدرة على الاكتساب اللغوى . حيث يرجع هذا الاكتساب الى العديد من المهارات اللغوية . كذلك فقد اثبتت البحوث والتجارب ان لمرض الحبسة Aphasia مظهران الاول motor Aphasia يصيب ما يعرف بمنطقة بروكا التى سبق ان اشرنا اليها وقلنا انها تقع فى الجانب الايسر من المخ وهى المسئولة عن النطق خصوصا وتراكيبه فاذا ما اصيبت هذه المنطقة احث هذا خللا فى هذا التراكيب دون التأثير فى قدرة المصاب على فهم ما يقرأ أو يسمع . اما المظهر الثانى من الحبسة sensory aphasia وهو الاكثر انتشارا فيصيب الجزء الاخير من المخ وهذه الاصابة مما يؤثر فى القدرة اللغوية للمريض . وان كان من المهم مع ذلك القول بأن أى من هذه الامراض لا يقضى على اللغة بصفة نهائية ولكن يسبب فحسب نوعا من الخلل فى وظيفتها وفى استخدامها وفى الاداء اللغوى بعامة .

(انظر: The New Encyclopaedia Britannica.Op.cit: vol.23.p.68.)

ويذهب علماء اللغة وأطباء المخ والاعصاب الى أن المريض الذى يشفى من الحبسة يمر بختلف العمليات والمراحل التى يمر بها الطفل اثناء تعلمه الكلام لاول مرة وهو الأمر الذى يغالى البعض فيه لدرجة ان بعض السكولوجين يقررون ان المريض يعيد مجرى التاريخ الانسانى بأكمله فى طريقة الى اكتساب اللغة.

ومن الواضح انه لايوجد هناك ما يمكن أن يطمئن الى سلامة وصحة مثل هذا الاعتقاد .خاصة وان ما اثبتته العديد من الدراسات ان اللغة وان كانت تستخدم حقا بعض المهارات والاستعدادات البيولوجية الا انها ليست ناتجا بيولوجيا صرفا.

وعلى العموم فمن الخطأ تماما ان يؤكد الانسان على صحة هذه الشواهد تأكيدا تاما حيث ان الكثير منها لم تثبت الدراسة صحته من ناحية والكثير أيضا مما يخضع لغير قليل من الظن والتخمين.

ومهما يكن من أمر فقد كان تركيز العلماء على جانب أو آخر من هذه الأبعاد والشواهد وراء تلك النظريات المختلفة التى قدمها العلماء والتى حاولوا عن طريقها أن يجيبوا على السؤال الذى سبق أن وصفناه.

(٢)

بيد أنه قد يكون من الصعب أن نتناول هنا كل النظريات التى قيلت بصدد قضية نشأة اللغة وأصلها. أولا نظرا لكثرتها وتعددها من ناحية وثانيا لتفاوت قيمة كل منها والتقدير الذى تحظى به من ناحية آخرى .وبناء على هذا فسوف نكتفى إذن بأهم هذه النظريات واكثرها شيوعا وفى الوقت نفسه تلك التى يمكن أن توصف إذا نظرا اليها جميعها ـ بأنها تعبر عن الاتجاهات العامة التى سار فيها تفكير العلماء والباحثين وهم يبحثون فى واحدة من أشكل معضلات الدراسات اللغوية أيا ما كان المستوى الذى ينظر من خلاله الى هذه المشكلات .أما هذه النظريات فهى:

اولا : النظرية الالهية أو الغيبية (فوق الطبيعة) :

وربما كان مجرد ذكر اسم هذه النظرية كاف لان يذكرنا على الفور بأحد الاتجاهين اللذين قلنا إن فكر القدماء من الباحثين والفلاسفة قد سار فيهما وهم بصدد محاولة معرفة كيف نشأت اللغة. وتعنى بذلك الاتجاه التوقيفى الذى تزعمه افلاطون وأرجع اللغة إلى مصدر إلهى أو فائق للطبيعة

ولقد حاولت هذه النظرية - كما هو واضح - أن ترد اللغة الى هذا المصدر الغيبى. فاللغة هى إلهام هبط على الانسان فعلمه النطق واسماء الاشياء. والحقيقة ان العلماء من انصار هذه النظرية قد استرشدوا فيها ببعض ماحوته الكتب المقدسة وبخاصة ما جاء فى العهد القديم (سفر التكوين، الاصحاح الثانى) بشأن خلق الكون والانسان "وجبل الرب الاله من الارض جميع حيوانات البرية، وجميع طير السماء وأتى بها آدم ليرى ماذا يسميها، فكل ما سماه به آدم ذات نفس حية فهو اسمه. فدعا آدم باسما جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية..."
وواضح من هذا ان آدم عليه السلام لم ينطق هذه الاسماء إلا بوحى أو إلهام من الله.

ولقد تابع كثير من علماء المسلمين والباحثين فى فقه اللغه فى العصور الوسطى ذلك الرأى ومنهم ابن فارس فى كتابه الصاحبى حيث يدل ظاهر آيات القرآن الكريم عليه. كما نجد من سار هذا المذهب ايضا فى العصور الحديثه مثلا الاب لامى Lami فى كتابه فن الكلام. ويرتكز الكل فى ذلك الى قوله تعالى فى سورة البقرة "وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين. قالوا سبحانك لاعلم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما انبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى اعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وماكنتم تكتمون."

ولكن الواضح أن النص القرآنى الكريم لايكفى لتفسيره ظاهر المعانى كما ادعى أصحاب هذه النظرية. فمن المحتمل تصريف مدلول آيه قرآنية عن ظاهر اللفظ

الى تقدير المعنى وذلك ما ذكره ابو الفتح عثمان بن جنى الذى عاش فى القرن الرابع الهجرى فى الجـزء الاول ٠من كتابه الخصائص وذهب اليه كثير من أئمة المفسرين ٠

أما ما جاء فى سفر التكوين فلا يدل بدوره على شيء مما يقوله أصحاب هـذه النظرية ٠فليس هناك أى دليل عقلى يمكن الوثوق به والاطمئنان إليه٠ أما أدلتهـم الجدلية والنقليـــــة فكثير منها يحتمل التأويل وبعضها يكاد يكون دليـــلا عليهم لاحجة لهم٠

(٢) ـ نظرية التواضع أو الاتفاق :

تقرر ان اللغة قد ابتدعت واستحدثت بالتواضع والاتفاق ٠ونجد صدى هـــذه النظرية فى العصور القديمة عند ديمقريطس فى القرن الخامس قبل الميلاد وفى العصور الوسطى لدى كثير من الباحثين فى فقه اللغة العربية ٠أما فى العصر الحديـــث فيمثلها آدم سميث وريد Reid ودوجالد ستيورات Stewart ٠وليس هناك فـــى الواقع مايدل على صدق هذه النظرية٠ فالمسلم به ان النظم لاتتم بطريقة عشوائية أو بشكل ارتجالى أو انها تخلق خلقا وانما تتكون بالتدريج٠كما ان التواضع أو الاتفاق على التسمية من البديهى ان يتوقف على لغة صوتية يتفاهم بها هؤلاء المتواضعـــون بمعنى ان مايجعله أصحاب هذه النظرية منشأ اللغة يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل إذ لم يوضحوا بشكل دقيق كيف أمكن التواضع والاتفاق على الكلمات الدالة على الافعال والحروف والمعانى الكلية وهى أمور ليس لها فى الخارج أى مدلول حتى يشير إليه المتواضعون ٠

ولتوضيح هذه المسألة نشير الى مايذهبون اليه فهم يقولون ان أصل اللغة لابد فيه من المواضعة ٠وذلك بأن يجتمع حكيما أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا إلى الابانـة عن الاشياء المعلومة لكل واحد سمه ولفظا اذا ذكر عرف به ليمتاز عن غيره وليغنى بذكره عن احضاره الى مرآة العين ، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكليـــف إحضارة أمام البصر٠ أما فيما يتعلق بطريقة ذلك فهى ان يقبلوا مثلا على شخـص ويشيرون اليه قائلين "انسان ٠ ٠انسان" فتصبح هذه الكلمة اسما له وان أرادوا

تسمية عينه أو يده أو رأسه أو قدمه أشاروا الى العضو وقالوا يد وعين ورأس وقدم٠٠٠
ويسيرون على هذا النحو فى أسماء بقية الاشياء وفى الافعال والحروف والمعاني الكلية والامور المعنوية نفسها وبذلك تنشأ اللغة٠

(٣) النظرية البيولوجية:

تذهب هذه النظرية على العكس من النظريتين السابقتين إلى أن اللغة نتاج بيولوجي تفرضة سنن الحياة فرضا على الكائنات الحية٠أى ان الأمر هنا راجع الى غريزة زود بها النوع الانسانى وكأن الكلمات ظهرت فى الاصل كنتيجة مباشرة للأصوات والصرخات التى تصدر عن الانسان للتعبير عن بعض مشاعره ووجدانه ثم لم تلبث هذه الأصوات أن اتخذت بعد ذلك معانى محددة وأصبحت تقوم بوظيفة الاتصال وليس التعبير عن الانفعال فحسب٠

ويعتبر ماكس موللر M,Muller ورينان Renan من أنصار هذه النظرية ولكن الملاحظ مع ذلك انها ترجع اللغة الى غريزة زود بها الانسان للتعبير عن مدركاته وهى من هذه الناحية فاسدة من أكثر من زاوية ذلك انها تكاد تفسر الشيء بنفسه،فكل ماتقوله هو ان الانسان قد لفظ أصواتا مركبة ذات مقاطع ودلالات مقصودة لأنه كانت توجد لديه القدرة على لفظ هذا النوع من الاصوات الامر الذى لايعدو أن يكون تقريرا للأمور أو للمشكلة ذاتها بصيغة أخرى دون أن تقدم تفسيرا لها أو توضيحا،ومن الناحية الثانية فلسنا فى الحقيقة فى مجال الاختلاف حول قدرة الانسان الغرزية أو المكتسبة على لفظ هذا النوع من الاصوات فالثابت علميا هو أن الانسان مزود بأعضاء نطق تسمح له بذلك،وانما الذى يعنيا هو الوقوف على أول مظهر لاستغلال هذه القدرة والانتفاع بها فى تكوين الكلام واللغة الانسانية٠بل أن هذه النظرية لاتحل المشكلة أساسا لأن ثمه هوة تفصل بين الصراخ والهمهمات والصيحات المعبرة عن الانفعال ،والكلمات ذات المدلول المجرد والمعنى الدقيق بحيث يمكن الاتفاق مع كاسيررعندما ذهب الى أن هذا الصوت الانفعالى هو فى الحقيقة انكار للغة٠ لأننا لا نلجأ الى تلك الاصوات إلا حين يكون المرء عاجزا عن الكلام أو حين يكون راغبا عنه.فالمشكلة لازالت تقوم فى كيفية العثور على تفسير مقبول للانتقال من

الصراخ الى الكلام رغم أى شيء٠

٤ ـ محاكاة الطبيعـــــة :

تقرر هذه النظرية التى يطلق عليها مجازا The Bow-wow theory ان اللغة لاتقف عند حـــد الأصوات أو الحركات التى تجيء نتيجة عوامل فسيولوجيـــة أو سيكولوجية بل ان بها من الالفاظ التى لاترجع الى حركة داخلية فى الانسان بقـدر ماترجع الى قدرته على محاكاة الطبيعة وتقليد أصواتها ٠وفى ضوء ذلك ذهب فريق من علماء اللغة خاصة أولئك الذين يغلب عليهم الاتجاه التطورى والتاريخى الى أن هذا التقليد هو بالذات منشأ اللغة التى سارت بعد ذلك فى سبيل التقدم والرقى شيئا فشيئا تبعا لارتقاء العقل الانسانى وتقدم الحضارة واتساع نطاق الحياة الاجتماعية وتعدد حاجات الانسان وتشعبها ٠ومن هنا ساد الاعتقاد بأن التاريخ هو المفتـاح الوحيد لدراسة اللغة دراسة علمية وقد ذهب الى هذا الرأى معظم المحدثين مـن علماء اللغة وعلى رأسهم العلامة وتنى Withney ومن قبله بعض فلاسفـة الاغريق ومؤلفى العرب فى العصور الوسطى وكثير من الاجتماعيين الذين ينزعون إلى الاتجاه التطورى Evolutionary ٠

وعلى العموم فقد ظهرت الى جانب هذه النظريات الكبرى بعض النظريات الأقل قيمة والتى حاولت بدورها أن تقدم تفسيرا للكيفية التى نشأ بها التعبير اللغوى لدى الانسان ،وذلك مثل نظرية الا شارات Gesture Theory ونظرية العمـل الجماعى Yo-He-HO-theory وأن كانت جميعها قد فشلت فى اعطاء تفسير مقبول حتى وعلى الرغم من الصلة الوثيقة بين الاشارات وبين بعض الكلمات أو مظاهر السلوك الكلامى على الأقل ٠

(٣)

ما الذى يعنيه هذا الفيض المتدفق من النظريات والآراء؟ ما الذى يمكـن أن نستخلصه منها ويلقى بالضوء على قضية نشأة اللغة وأصلها ؟

من الواضح ــ وهذا من ناحية ــ أن مثل هذه النظريات أيا كانت القيمة التى

قد يسبغها البعض عليها لاتمثل بحال من الأحوال الكلمة الأخيرة ولاتعدو ـ على أحسن الفروض ـ أن تكون مجرد تخمينات وترجيحات أو هى احتمالات ·بتعبير آخر يرى الكثيرون أنه لايمكن أن تؤخذ هذه النظريات على أنها بحوث تاريخية خطيرة ولكنها تأملات تنحصر وظيفتها فى أنها ـ قد ـ تمثل بعض طرز التفكير وانماطه التى حاولت ارتياد مثل هذا الموضوع الشائك الدقيق ·

ومن الناحية الثانية ، فقد يكون من المناسب ،وبخاصة فى ضوء الكثير مما أسفرت عنه البحوث الحديثة فى وظيفة اللغة أن نقف أمام قضيته الدافعية Motiv-ation بمزيد من العناية وأن نوليها من ثم مزيدا من الاهتمام ،خاصة وأن هذه البحوث قد أوضحت أن جانبا يعتد به من وظيفة اللغة يتثمل فى التأثير فى سلوك الآخرين ·

أضف الى كل هذا ان هذه النظريات لم يهتم معظمها بالفعل بالنواحى البنائية للغة·بمعنى انها سعت إلى الوصف فحسب وحتى ذلك فقد كان غالبا ما يتم فى كلمات فضفاضة مما يعتبر نقطة ضعف من الصعبتجاهلها أو اغفالها·

كذلك فان كل ماقيل فى هذه النظريات لم يستطع فى الحقيقة أن يغير شيئا من الحيرة الطاغية التى تمسك بالعقول بصدد طبيعة اللغة الأولى التى نطقها الانسان أول مانطق · بل اننا مازالنا نجد الكثير من الحرج فى تقرير ما اذا كانت هناك لغة واحدة فى الأصل تشعبت بعد ذلك وانتقلت الى أماكن آخرى عديدة أم أنه كانت هناك العديد من اللغات التى وجدت مستقلة فى أوقات مختلفة وأماكن مختلفة؟

ونحن ندرك أن مثل هذه الأمور هى أمور ذات طبيعة جدلية عالية·كما أنه قد يصعب الوقوف فيها على اجابة حاسمه أو على الاقل مقبولة بما لايهز اليقين فى أشياء عديدة مما يؤمن به البعض خاصة وأننا نعتقد أنه لا تقابل بالمرة أولا تناقض بين ما قد يثبته العلم وبين مثل هذا اليقين ·

وعلى أية حال فإن الملاحظة الأخيرة التى لابد ستلفت النظر فى كل ماسبق

من نظريات هي انها جميعها قد انتهجت المنهج التاريخي والتطوري في محاولة التفسير ، بمعنى انها ذهبت الى أن الأمر سواء كان تقليدا للطبيعة أو صرخات انفعالية وطبيعية أو تواضعا واتفاقا، قد بدأ في مرحلة مبكرة جدا ومن البسيط الى المركب مع تقدم العقل وارتقائه وتقدم الحضارة الانسانية . ولقد دفع هذا بعض العلماء الى القول بأن التاريخ هو المفتاح الوحيد لدراسة اللغة دراسة علمية منظمة كماقلنا .

ومع ان هذا القول قد يكون فيه جانبا من الصحة الا أن الكثيرين قد اعترضوا على منطق الدراسة التاريخية التطورية للغة . فنجد هرمان بول على سبيل المثال يذهب الى ان البحث التاريخي وحده لايمكن أن يحل مشكلات اللغة جميعها ، وأن المعرفة التاريخية تحتاج الى تكامل من الدراسة الاخرى باعتبارها نسقا متكاملا . أضف اليه امتلاء مثل هذه الدراسات التاريخية والتطورية بكثير من التخمين والظن مما يسيء الى الدراسة البنائية والمنهجية للغة والتى تنتج عند عقد المقارنات .

والحقيقة انه يصعب كثيرا الاتفاق مع ما ذهب اليه التطوريون في قولهم بأن اللغة قد ظهرت في مرحلة من مراحل التطور كأداة لتسهيل العمل الجماعى والتعاونى وأن هذا هو السبب الوحيد في نشأتها . فالواقع ان هناك كثير من الجماعات الحشرية يقوم بينها نوع من التعاون الوثيق على ماأسلفنا الاشارة ودون أن يكون لديها لغات بالمعنى الدقيق . أضف اليه ان الناس لايولدون للقيام بأدوار محددة بالذات وانما يتعلمون السلوك الاجتماعى من المجتمع ، وتقوم اللغة بدورهام جدا في هذه الناحية .

ومهما يكن من أمر فاذا كان أنصار المدرسة التطورية يذهبون الى القول بأن الانسانية قد مرت بمرحلة لم تكن تعرف فيها اللغة فانهم يفعلون ذلك على أساس ظني وتخميني بحت حتى يبدو رأيهم متفقا مع السياق النظري لموقفهم الذى يرى الاشياء تبدأ بداية بسيطة جدا ثم تتدرج في التعقيد حتى تصل الى ماهي عليها الآن .

وصحيح ان العلماء التطوريين قد أسدوا خدمات جليلة في دراسة اللغة ومع ذلك فليس هناك ما يدعم أو يساند زعمهم بأن المجتمع الانسانى قد مر بمرحلة لم يعرف فيها اللغة . وعلى العكس فهناك ميل شديد الى تأكيد ظهور اللغة مع نشأة

المجتمع الانسانى وأن اللغة كانت ملازمة لظهور بقية ملامح الثقافة القديمة مثل اكتشاف النار على ماسبقت الاشارة أو شطف الصوان إن لم تكن أقدمها وهو الأمر الاغلب لأن مثل هذه المظاهر التعاونية والاختراعات المختلفة لم تكن لتوجد أصلا لولا وجود اللغة التى هى أداة للتعبير والتفاهم.

وعلى العموم فمن الصعب إن لم يكن من الخطأ تصنيف اللغات جميعها قديما وحديثا فى حدود وألفاظ ودرجات التطور والنمو فحسب. فليس ثمة لغات بدائية وأخرى اكثر تقدما وتطورا من ناحية البناء ، إذ أن لكل لغة من اللغات نسقها الخاص والواضح من الاصوات الكلامية Speech - sounds وهى أصوات محدودة فى العدد ومتمايزة تماما فيما بينها واحدة عن الاخرى تبعا لقواعد معينة. يضاف اليه ان لكل جماعة بصرف النظر عن تقدمها او تأخرها مفردات لغوية تكفى لاشباع حاجاتها كما أن لكل اللغات نظاما محددا من القواعد التى هى باختصار عبارة عن ترتيب معقول للأصوات أو مركبات الأصوات لعمل الكلمات والعبارات والجمل .

والمسألة التى لها اهميتها فى كل هذا هى ان هناك اجماع بين العلماء على ان اللغة قديمة قدم الانسان نفسه وقدم الثقافة أو الحضارة الانسانية بمعناها الواسع وبكل ماتحمله هذه الكلمات من معان ودلالات.

وفى اعتقادنا أنه لن تجدى أية محاولة لفهم نشأة اللغة والتعرف على أصلها الا اذا افلحت فى اكتشاف الطريقة التى استطاع بها الانسان ان يقيم عادات متفق عليها للربط بين الاصوات والكلمات والتجربة ، وهو الامر الذى أخفقت فى تحقيقه ــ حتى الآن ــ كل النظريات التى عرضنا لها .

ومن هنا نجد علماء الاجتماع اللغوى والانثربولوجيا اللغوية على وجه الخصوص ينصرف معظم اهتمامهم الى تحليل اللغات الحديثة واللغات البدائية الموجودة الآن بالفعل وفى اعتقادهم أن مثل هذا التحليل خليق بأن يبين أن عناصر الكلام وأجزاءه كالألفاظ والعبارات هى مجرد رموز وليست فى ذاتها جزءا من الواقع أو التجربة التى يرمز الصوت اليها .

اما هذه الرمزو التعسفية التىتتميز بها الالفاظ فتشير أول ماتشير الى تلـــك الخاصـــة الاجتماعية للغة٠فاللغات ترتبط دائما بمجموعات من الناس وليس بفـــرد أو بعدد محدود من الأفراد٠

الفصل السادس

المنظـــور السسيولوجى فى دراسة اللغـــة

احتلت دراسة اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية Social phenomenon مكانة هامة بين الموضوعات التى يهتم بها علم الوظائف الاجتماعية social physiology خاصة وان الكثيرين من رواد العلم الاجتماعى وأساتذته الكبار قد أفردوا لها (للغة) فرعا عاما فى تقسيماتهم للعلم الاجتماعى أطلقوا عليه علم الاجتماع اللغوى sociology of language حتى يتداركوا بذلك ماوقع فيه اللغويون القدماء عندما حصـــروا دراستهم للغة فى بعض الجوانب اللغو ية الاصطلاحية والمتعلقة فى الأغلب بابـراز الحقائق الصرفية والنحوية وما إلى ذلك من التفاصيل المتعلقة بالصيغ والتراكيب٠الخ ودون أن يوجهوا اهتماما حقيقيا لمناقشة طبيعة العلاقات بين اللغة كظاهـــرة اجتماعية وغيرها من الظواهر الاجتماعية الأخرى فى المجتمع٠ (١)

(١)

والحقيقة أننا لو نظرنا الى محاولات تبويب علم الاجتماع وتقسيمه فسوف نجـد أن بعض الباحثين قد ذهبوا فى تعريفهم لهذا العلم الى أنه العلم الذى يهتـــم بدارسة المجتمع فى بيئته ونظمه وظواهره ٠وقد لايكون هناك خلاف على أن هـــذه هى الغاية النهائية للعلم أو أن هذا هو مجاله الأوسع بمعنى أدق ٠و لكن نظـرا الى هذا الناحية بالذات والاعتقاد بأن اتساع نطاق العلم على هذا النحو خليـــق بأن يفقده طابعه العلمى المتكامل ويقضى على شخصيته،لذلك لم يلق هذا التعريف لعلم الاجتماع (بهذا المعنى الواسع) قبولا أو ترحيبا ،ومن هنا فقد قامت عـــدة محاولات استهدفت تقسيم العلم إلى علوم جزئية أو فرعية وهى المحاولات التى أسفرت على أية حال عن إجماع العلماء على انه يوجد الى جانب علم الاجتماع العـــام أو فلسفة العلم كما نطلق على ذلك أحيانا ،طائفة من العلوم الاجتماعية المستقلـــة نسبيا٠

وقد يكون من قبيل التزيد الذى يباعد بنا عن جوهر ما نحن بصدده أن نتناول

بالتفصيل هنا هذه المحاولات التى سعت الى تقسيم العلم وتبويبه الى أن وضع في هذه التقسيمات ،أو بالاصح الفروع التى اندرجت تحت بعض هذه التقسيمات ما أصبح معرفوا باسم علم الاجتماع اللغوى •

ومع ذلك فقد يكفى القول بأن مثل هذا الاتجاه قد ظهر قديما عند ارسطو Aristotle (٣٨٤ق٠م — ٣٢٢ق٠م) وبخاصة فى كتابة السياسة The politics حتى وعلى الرغم من حقيقة أنه لم يكن منتبها تماما الى أنه يقسم موضوع العلم، وكان ذلك عندما قرر ان دراسة الاجتماع البشرى ترتكز على موضوعين أساسيين هما الاشياء الاجتماعية من ناحية things والافراد من ناحية ثانية individuals • وكان يقصد بالافراد دراسة التطور الاجتماعى والعلاقات المتبادلة بين الافراد والجماعات وما يظهر من نظم وظواهر وعلاقات بسبب هذا التطور أو كنتيجة له،على حين كان يقصد بالأشياء البيئة الجغرافية وما يوجد بها من موارد ومواد وكيفية استغلال هذا كله والانتفاع به•

كما ظهرت المحاولة ذاتها عند العلامة العربى ابن خلدون (١٣٣٢—١٤٠٦) وكان ذلك عندما قسم موضوعات العمران البشرى الى اقسام ضمن كلا منها طائفة من الظواهر الاجتماعية ذات الطبيعة المتجانسة •فالى جانب بحوث ابن خلدون فى البيئة أو المورفولوجيا الاجتماعية وهى التى تتصل بدراسة البيئة والجنس والظاهرة الايكولوجية، نجده قد تناول أيضا البحث فى العمران منزواياه المختلفة فدرس على سبيل المثال النظم السياسية فى الفصل الاول فى مقدمته الشهيرة والنظم الاقتصادية فى الفصل الخامس والظواهر التربوية فى الفصل السادس ،كما اهتم بدراسة كل من الاخلاق واللغة والاسرة، مما يشير صراحة الى إنه كان لابن خلدون الفضل فى الوصول الى ما أصبح العلماء فى العصر الحديث يطلقون عليه علم الوظائف الاجتماعية وربما كانت هذه هى أول المحاولات الناضجة التى وجهت الانظار هذه الوجهة•

ومع انه يمكن القول بأن أوجيست كونت Auguste Comte (١٧٩٨/١٨٥٧) الذى يعتبر من وجهة نظر الكثيرين أبو علم الاجتماع الحديث

لم تكن لديه قائمة أو تقسيما محددا لموضوعات أو فروع علم الاجتماع، بل وانــه كان يرفض تحديد فروع العلم بشكل مفصل ، إلا انه كان يرى مع ذلك ان علــم الاجتماع ينقسم إلى قسمين رئيسيين هما الاستاتيكا الاجتماعية statique sociale والديناميكا الاجتماعية Dynamique sociale من ناحية ثانية. وكان يعالج موضوعات العلم على هذا الاساس حيث يهتم الجانــب الاستاتيكي بدراسة قوانين الفعل وردود الفعل التى تخضع لها مختلف أجـــزاء النسق الاجتماعى ، على حين تركز الديناميكا الاجتماعية على دراسة المجتمعـــات الكاملة باعتبارها وحدة التحليل الاجتماعى بهدف توضيح الكيفية التى تطورت بهـــا هذه المجتمعاتوتغيرت فى الزمان أى الاهتمام بدراسة التغير الاجتماعى بتعبيـــر آخــــر .

ويعتبر تبويب اميل دور كايم Emile Durkheim (١٨٥٨ / ١٩١٧) من أدق وأوفى التقسيمات واكثرها ضبطا ومنهجية . فقد قسم دور كايــم الدراسات الاجتماعية أو علم الاجتماع بتعبير آخر إلى ثلاثة أقسام رئيسية هـــى أولا المورفولوجيا الاجتماعية social morphology ، وثانيا علم الوظائـــف الاجتماعية social physiology وثالثا علم الاجتماع العام general أو فلسفة العلم كما أشرنا من قبل philosophy of science .

وصحيح أن البعض يأخذ على دور كايم انه لم يدخل بعض العلوم الاجتماعيــة الخاصة فى علم الوظائف الاجتماعية ، الا أن مايهمنا هنا انه وضع علم الاجتمــاع اللغوى فى مكان الصدارة الى جانب علم الاجتماع الدينى وعلم الاجتماع الاخلاقــى وعلم الاجتماع القانونى ، وهو الأمر الذى يتفق تماما مع الاتجاهات المعاصرة لدى علماء الاجتماع من حيث ضرورة التخصص فى دراسة جانب معين من جوانـــب الظاهرة الاجتماعية الشاملة .

(٢)

بيد أن هناك ولاشك فارق كبير بين نشأة ظاهرة من الظواهر الاجتماعيـــة

ونشأة العلم الذى يهتم أو يقوم على دراسة هذه الظاهرة • فهناك فارق مثـــــلا بين نشأة الدين Religion باعتباره ظاهرة اجتماعية ونشأة علم الأديان وعلم الاجتماع الدينى sociology of religion اللذان يقومان بدراسته • وبالمثل نجد فرقا بين نشأة اللغة كظاهرة من الظواهر الاجتماعية وبين علم الاجتمـــــاع اللغوى الذى يهتم بدراستها على هذا الاعتبار •

ولاينبغى الاعتقاد بأن أى علم من العلوم ينشأ هكذا طفرة أو بين يـــوم وليلة كمايقولون ، ولكن العلم يمر بمراحل متعددة من التكوين والاعداد ثـــــم النضج والبلورة إلى أن يتم تكوين هذا النسق المركب والمعقد من المعلومــــــات والمعارف والنظريات والمناهج التى يطلق على جماعها مصطلح العلـــم science

ولكى نستطيع أن نتحدث عن نشأة هذا العلم فلابد أن نتساءل عـــــن التاريخ أو الوقت الذى نستطيع القول بأن اللغة قد أصبحت بالفعل موضوعـــــا للدراسة والبحث• وأن نتساءل ايضا متى أصبحت هذه الدراسة دراسة اجتماعيـــــة كذلك ينبغى أن نتساءل عن ماهى اللغة وماهى حدودها وطبيعتها وماهيتها ومـــا صلة دراسة اللغة من هذا المنظور ، أى منظور علم الاجتماع اللغوى بغير ذلـــك من المباحث الأخرى التى تهتم أيضا بدراسة اللغة من زاوية أو أخرى •

ولقد أشرنا من قبل إلى أن فكرة اللغة وأساليب الاتصال المختلفة ترتبـــط بالانسان بوجه خاص• والواقع ان الجنس البشرى قدتمكن منذ عصور سحيقة غارقة فى القدم من أن يحقق تقدما فى مجالين ميزاه تمييزا شديدا على غيره من الكائنات وهما اكتشاف النار من ناحية واكتشاف الكلام من ناحية ثانية • ونعنى بالاكتشـــــاف الأول وقوف الانسان على طريقة اشعال النار لاستخدامه الخاص ، فقد كانت النـــار موجودة من غير شك قبل ذلك بكثير فى شكلها الطبيعى أو كظاهرة طبيعية تنشـــأ من البرق أو الاحتراق الذاتى أو التلقائى فى المواد الصلبة الجافة •

أمافيما يتعلق بالكلام الانسانى فقد قلنامن قبل انه يختلف اختلافا جذريـــا عن هذه الأصوات والهمهمات التى تخرج من فم الحيوانات ، كما انه اكثر اتساعا مـــن حيث المفردات بحيث يمكن للانسان الاتصال بغيره من الناس بطريقة أفضل وأكثـــر

فاعلية . وانا كانت النار على مايقول فيليب لوكوربيبه Le Corbier هى الخطوة الاولى التى خطاها الانسان فى مجال التكنولوجيا وهى خطوة على غاية من الاهمية فى الواقع ، فان الكلام هو الخطوة الاولى التى خطاها الانسان فى مجال الاتصال . فاللغة هى وسيلة من وسائل الاتصال الذهنية ، أو هى نوع من الشفرة Code التى تشير الى أشياء معينة أو ترمز اليها . وبذلك فان صوتامعينا يشير أو يرمز الى الالم مثلا أو الخوف تماما مثلما أن النقطة أو الشرطة فى شفرة موريس تشير الى حرف معين .

ولقد تحدثنا توا عن تلك المباحث التى جرت منذ أقدم العصور وجعلت كل همها منصبا على *محاولة التعرف على الكيفية التى نشأت بها اللغة الانسانية* أول ما نشأت . ومع أننا كنا قد قلنا ان مسألة مثل هذه مازال يكتنفها الغموض الشديد، إلا أن الاقتناع السائد بين جماهير العلماء والباحثين هو أن اللغة قد نشأت مع الانسانية فى قدمها أو انها بتعبير أدق قد وجدت مع الانسان نفسه منذ اكثر من مليون عام. ويستدل العلماء على ذلك بماوجدوه من حفريات وبعض الأدواتالحجرية مع بقايا الانسان . ففى اعتقادهم ان اللغة لابد ان تكون قدسبقت صنع أية أداة لانها هى التى مكنت الانسان من أن يصبح كائنا اجتماعيا ، بمعنى أن اللغة هى التى جعلته قادرا على اقامة الروابط بغيره من الافراد ويؤدى الحقوق والواجبات ويقسم العمل ، ويستفيدمن تجارب الآخرين وأن يعمل الفكر فى كل مايجرى من حوله . وبواسطة الفكر بوجه عام تمكن الانسان من التخيل والابداع والابتكار والخلق ، وما كان ذلك كلهليتحقق الا بواسطة هذه اللغة التى هى عبارة عن أصوات ترمز الى مسميات يستعملها الانسان لتحقيق اغراضه واشباع حاجاته المادية والروحية على السواء .

وليس من شك فى اننا قدعرضنا من قبل وفى أماكن متفرقة من هذا الكتاب إلى كل هذا أو الى بعض منه. فاذا مانحن حاولنا ان نربطه بتلك المحاولات التى سعت الى تقسيم علم الاجتماع ، فقد يحق لنا فى ضوء ذلك كله أن نتساءل : كيف أصبحت اللغة إذن موضوعاللدراسة العلمية المنظمة ؟

الواقع ان اخضاع اللغة بمثل هذاالمفهوم الذى وضحناه حتى الآن للدراسة العلمية كان نتيجة تطور وجهود بعيدة المدى والسبب فى هذا طبيعة اللغة ذاتها من ناحية ومواقف الانسان حيالهامن الناحية الأخرى٠

واذا كان المعروف تماماان أى علم من العلوم لاينشأ طفرة أو بين يوم وليلة كمايقولون ، وانمايستغرق الأمر العديدمن المراحل حتى تكتمل للعلم ذاتيته وشخصيته المتكاملة المستقلة فانه يمكن فى ضوء هذا التصور تحديد أهم المراحل التى تطور فيهاالعلم فى :-

١- *المرحلة التمهيدية (بحوث أصل اللغة)* :

وفيما يتعلق بهذه *المرحلة التمهيدية* فى نشأة العلم يتفق العلماء على أن الكتب المقدسة كانت من أهم المراحل والأصول التى مكنت العلماء فى الاجتماع اللغوى من أن يجدوا مادة لموضوعهم حيث تصوروا انها تدلهم على الاشكال الأولى التى ظهر فيها التعبير الانسانى ، والاطوار التى مربها حتى وصل الى مرحلة الاصوات الدالة ذات المعنى٠ والواقع ان المعلوماتوالاخباروالروايات والقصص الدينية والاساطير وما إلى ذلك مماتتضمنه هذه الكتب المقدسة ، وبالتالى نتائج المقارنات التى عقدها العلماء بين ماجاء بها ، كانت بمثابة محور الارتكاز لتلك البحوث التى يطلق عليها اصطلاحا بحوث نشأة اللغة أو البحوث المتعلقة بأصل اللغة Origin of language

٢- مرحلة البحوث المتخصصة :

على الرغم من ان هذه المرحلة التمهيدية كانتضرورية ولازمة فقد كان من الطبيعى ألا تقف جهودالعلماء عندحد البحث عن نشأة اللغة وأصل التعبير الانسانى ولكن أخذ نطاق البحوث اللغوية فى التشعب لأجل الاحاطة بظاهرة اللغة من مختلف الجوانب٠ ولقدظهر ذلك فى عدة مجالات رئيسية هى :

أولا : بحوث حياة اللغة ، وهذهتهتم بدراسة مايطرأ على اللغة من مظاهر التغير والتحول والأسباب التى تقوم وراء ذلك ، كما تدرس أيضا

النواحى المتعلقة بانقسام اللغة الى لهجات أو تحول اللهجات مع الزمن الى لغات خاصة أو مستقلة · ومن هنا فيعتبر علم اللهجات من أهم فروع هذا البحث Dialect وسواء أكانت هذه اللهجات لهجات اجتماعية social dialects أو لهجات فردية Idiolects

ثانيا : بحوث الدلالة أو السيمانتيك semantics وهى التى تهتم بدراسة اللغة من حيث كونها أداة للتعبير عما يجول بالخاطر والفكر(١) وكذلك الفروع التى انقسم اليها هذا المبحث مثل علم المفردات lexicology وعلم المورفولوجيا Morphology وعلم التنظيم أو المستنكس syntax وعلم الاساليب اى الستيليستيك stylistics ·

ثالثا : البحوث المتعلقة بدراسة الاصوات اللغوية phonetics التى تتألف منها اللغة · وهذه تهتم بالبحث فى اقسام الاصوات ومقومات وخصائص كل قسم وكذلك طرق النطق وكيفية اخراج الاصوات والألفاظ أى أنه يبحث فى ناحية النطق فقط · والمعروف ان لعلم الاصوات عدة فروع هى أولا علم الاصوات النطقى وثانيا علم الاصوات السمعى acoustic وعلم الاصوات العام وعلم الاصوات المقارن ···الخ·

رابعا : البحوث المتعلقة بأصول الكلمات فى لغة معينة بالذات أو الاتيمولوجيا etymology وهذه تهتم مثلا بالبحث عن الأصول اللاتينية

---

(١) علم الدلالة الذى يرجع الى ميشيل بريال Breal ينزع منذ نشأته الاولى المبكرة نزعة فلسفية حتى ان فلاسفة اليونان كانوا يذهبون الى صعوبة القول بمتى تبدأ الفلسفة وينتهى السيمانتيك وما اذا كانت الفلسفة داخل السمانتيك ام العكس· وتعتبر دراسة نظرية المعنى وأيضا المجالات الدلالية من أهم البحوث التى تشكل أعمق نواحى هذا العلم· (انظر فى ذلك George, F.H., semantics . 1964.p.107.

والاغريقية التى جاءت منها كل كلمة من الكلمات الفرنسية ٠

خامسا : البحوث السيكولوجية ، وتبحث فى العلاقة بين الظواهر اللغوية والظواهر السيكولوجية وتأثيركل منها فى الأخرى وتبلورت فيما يعرف بعلم النفس اللغوى psycholinguistics ٠

سادسا : البحوث الاجتماعية ، وتهتم بدراسة العلاقات المختلفة بين اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية وغيرها من الظواهر الاجتماعية الأخرى ٠ ومن الواضح أن هذه البحوث تعتمدأو على الاقل تستفيدمن كثير مما تتعرض اليهمختلف الدراسات والبحوث فى المجالات السابقة٠

(٣)٠

الا أن هناك بعض الأمور التى يأخذها البعض على هذا كله٠ وأول هذه الامور هو ان البحوث اللغوية قد ظلت لفترة طويلة محصورة فى نطاق ضيق دارت فيه حول مسائل البنية والتنظيم والأساليب وما إلى ذلك ٠

أما الامر الثانى فهو ان الكثير من هذه البحوث والدراسات كان يفتقر إلى المنهج العلمى الدقيق ٠

وأخيرا ان البحوث اللغوية فى هذه المراحل كانت مقصورة فى الأغلب على اللغتين الاغريقية واللاتينية وبعض اللغات الأوربية بمعنى انه لم يكن هناك ــ كما قلنا من قبل ــ اهتمام حقيقى بالتعمق فى دراسة اللهجات الشعبية أو اللغات الصغيرة little languages ٠ وعلاوة على ذلك كله فان هذه الدراسات لم تكن تتم فى الأغلب من منظور علم الاجتماع أو فى ضوء مناهجه٠

ويرى البعض انه كان لاكتشاف اللغة السنسكريتية sanskrit فى أواخر القرن التاسع عشر ونجاح العلماء فى حل رموزها اكبر الاثر فى الاسراع

بتوضيح معالم علم الاجتماع اللغوى وبلورة شخصيته [١] الأمر الذى تم على عدة مراحل :

المرحلة الاولى :

حيث ساعداكتشاف اللغة السنسكريتية فى الكشف عما بين اللغات الهندية والايرانية من جهة ، واللغات الاغريقية واللاتينية والجرمانية من جهة أخرى من تشابهوصلات مما أدى الى الاهتمام بدراسة اللغات التى أصبح العلماء يطلقون عليها الفصيلة الهندية الاوربية وبالتالى اتساع رقعة الدراسات اللغوية المقارنة.

المرحلة الثانية :

ظهر فى الفترة نفسهاتقريبا اهتمام واضح بدراسة آداب اللغات الأوربية فى العصر الوسيط مما القى بكثير من الاضواء على علاقة هذه الآداب ولغاتها بمظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة فى العديد من المجتمعات.

المرحلة الثالثة :

وقد شهدت هذه المرحلة العديد من الجهود للخروج من دائرة اللغات الهندية الأوربية مع محاولة الكشف عن القوانين التى تخضع لها اللغات الانسانية المختلفة فى تطورها .

---

(١) تمكن السير وليام جونز من حل رموز اللغة السنسكريتيةفى عام ١٧٨٦ ، الذى اصبح يؤرخ بطمولد علم اللغة الحديث حيث ساعد هذا الكشف على تجنب ماكان يسود علم اللغة التقليدى من ميتافيزيقيات وأدبيات وروايات تعتمد على الظن والتخمين . بمعنى ان ذلك كله كان وراء الاهتمام بتطوير النواحى المنهجية ذاتها .

والواقع ان القرن التاسع عشر قد ظهر فيه اتجاهان أساسيان سيطــرا بدرجة ملحوظة على الدراسات اللغوية وهذان الاتجاهان هما :

أولا : اتجاه يحاول أصحابه اخضاع الدراسة اللغوية الى المنهج العلمي بمعنى انهم وجهوا كل اهتمامهم للكشف عن القوانين التى تخضع لها الظواهر اللغوية وكذا تخليص هذه الدراسات من النظرات والآراء الفلسفية والتخمينية المسيطرة .

ثانيا : أما الاتجاه الثانى فيتمثل فى ابتعاد كثير من العلماء عن النظرة الموسوعية الشاملة التى كانوا يحاولون بها دراسة كل المسائل فى وقت واحد. وبدلا من ذلك بدأ يظهر الميل إلى التخصيص فى فرع واحد ، أو فى بعض المسائل المعينة ، وقدكان من الطبيعى أن يؤدى هذا إلى بلورة الفروع المختلفة لعلم اللغة بشكل لم يكن قد تهيأ من قبل وبخاصة علم الاجتماع اللغوى الذى ساعد فى تطوير علم اللهجات أو الديالكتيك.

ومع ذلك فان الشيء اللافت للنظر هو ان البحوث اللغوية حتى ذلك الوقت كان لايزال يسيطر عليها الاتجاه السيكولوجي بوجه عام.فقد حاول هرمان بول paul على سبيل المثال ان يقدم فى كتابه (أسس تاريخ اللغة) تفسيرا سيكولوجيا للعديد من القضايا المتعلقة بخصائص اللغة . ولقد أخذ بلومفيلد على هرمان بول إصراره على التفسيرات السيكولوجية للغة، وذهب إلى أنها لاتضيف شيئا جديدا أو مثمرا إلى المناقشات اللغوية والبحوث اللغوية بل تزيدها غموضا وخلطا.

كذلك نجد العالم الانثربولوجي واللغوى والنفسى فرانز بواس Boas يكشف ولكن فى مرحلة متقدمة بعض الشيء عن أفكاره بصدد العلاقات بين اللغة وعلم النفس فيرفض فكرة إن السمات النفسية لأية أمة من الأمم مما ينعكس فى لغتها وذهب الى ان وجود المفاهيم النحوية الاساسية فى جميع اللغات يجب أن يعتبر دليلا على وحدة العمليات السيكولوجية . ومع ان هذا بدوره لايعنى زوال تأثير الاتجاهات النفسية والتفاسير السيكولوجية الا انها كانت على أى

الاحوال بمثابة دقات الناقوس التى نبهت الأذ هان إلى ضرورة المعالجة الاجتماعية للغة.

كذلك يمكن القول بأن السياسات الاستعمارية التى سادت منتصف القرن التاسع عشر كان لها دورا ملحوظا فى ذلك وانما بطريقة أخرى ، فقداهتمت الدول المستعمرة بارسال البعثات المتخصصة فى الدراسات الاجتماعية والانثروبولجية وأيضا البعثات التبشيرية بغرض الوقوف على مظاهر الحياة لدى الشعوب الخاضعة لاستعمارها،وكان من بين الاهتمامات الاصيلة لهذه البعثات التعرف على اللغات واللهجات التى تنطق بها هذه الشعوب وحيث تضافرت فى هذا جهودعلماء الاجتماع وعلماء دراسة الانسان وعلماء الأجناس ، مما أدى بطريق مباشر إلى اتساع نطاق علم الاجتماع اللغوى وتعدددراساتهوتنوعها خاصة فيمايتعلق بعلم اللهجات.

ومع ذلك فان الذى لاشك فيه هو أن الفضل الاكبر فى تطوير بحوث علم الاجتماع اللغوى ومناهجه إنما يرجع إلى الاجتماعيين أنفسهم . ولقد شهدت أوائل القرن العشرين جهود علماء كبار فى هذا الصدد ممن عملوا على تخليص العلم واكماله وبلورته من أمثال ليفى برول Levy Bruhl وموس Mauss وبوجليه Bougle وغيرهم من اعضاء المدرسة الفرنسية الاجتماعية التى انشأها دور كايم واهتمت بالنظر الى اللغة على انهاوظيفة اجتماعية.والواقع انه كان لذلك كله نتيجتان اساسيتان هما :

اولا : ان البحث الاجتماعى اللغوى قدابتعد بشكل ملحوظ عن الاتجاهات السيكلوجية التى ظلت مسيطرة لفترة طويلة. وبذا فيمكن القول بأن فكرة بلومفيلدالأساسية التى ذهبت إلى ان اللغويات يجب أن تسير دو ن الالتجاء الى التفسيرات أو الشروح السيكولوجية قد أصبحت المبدأ الذى يوجه التحليل اللغوى المعاصر.

ثانيا : اتضحت بشكل ملحوظ أيضا الاختلافات العميقة فى النظرة المتخصصة إلى نطاق كل من علم اللغة وعلم الاجتماع . أو بمعنى آخر الاختلافات فى النظرة التى ينظر بها عالم اللغة وعالم الاجتماع الى

ظاهرة اللغة. فالأول يسعى دائما الى دراسة اللغة أو معرفة اللغـــة بعيدا عن الاستخدامات التي تتيحها له هذه المعرفة . فاللغة بالنسبة اليه عبارة عن نسق متجانس من الاجزاء والاقسام والتراكيب المترابطــة على حين يسعى عالم الاجتماع اللغوى الى الكشف عن المتغايـــرات المنمطة اجتماعيا .

وبينما يعتبر عالم اللغة الاختلافات القائمة في المجتمع الكلامي اختلافـات مطلقة فان عالم الاجتماع اللغوى على العكس من ذلك يرى بعضها مرتبطا بشكـل منظم بالذاتية الاجتماعية للمتخاطبين أو بمكاناتهم ووضعياتهم الاجتماعية والثقافية .

الفصل السابع

اللغـــة والعلوم اللغويـــة

سبق أن اشرنا فى مقدمة هذا الكتاب الى أننا فى محاولتنا للتضييق مـــن نطاق الدراسة سوف نركز أساسا على دراسة الوحدات الكبرى أو علم اللغة الموســـع Macrolinguistics الذى يقابل البعض بينه وبين دراسة الوحدات الصغرى فى اللغة أو مايعرف باسم Microlinguistics • ولكننـــا فى الوقت نفسه قلنا ايضا إن هذا سوف يتم من خلال الاهتمام بالسبيلغويـــات أو علم اللغة الاجتماعى sociolinguistics من ناحية، والانثربولوجيـــا اللغوة أو كما يقال لها علم اللغة الانثربولوجى فى كثير من الأحيـــــــان • Anthropoligical linguistics

ومع التسليم بأن مثل هذا الاتجاه يعتبر فى ذاته كافيا لأنه يعنى منظورا متكاملا لمختلف الموضوعات والفروع التى ينبغى الاحاطة بها فى دراسة مثل هذه ، فمن الواضح أن هناك كثير من الباحثين والدراسين مازالوا يقعون فى غير قليـــل من الحيرة التى تؤدى الى كثير من الاخطاء وهم يتحدثون عن العلاقات التـــى تربط هذه الانساق العلمية بعضها ببعض من ناحية والتى تربطها بغيرها مـــن الانساق العلمية الأخرى من الناحية الثانية • ولاتقتصر هذه الاخطاء (أو علـــى الأقل مظاهر الحيرة وبالتالى الخلط والغموض) على مجرد تحديد نطـــــاق التخصصات ، ولكنها تمتد إلى المسميات ذاتها التى يطلقها العلماء والباحثون علـــى هذه التخصصات ويترتب عليه أن تتزايد شقة الخلافات فى أمور لابد أن يتوافـــر لها حد أدنى - على الأقل - من الوضوح والاتفاق •

(١)

ولاجدال فى أن مسألة التعريف تعتبر مسألة شائكة ولكنها مع ذلـــك ضرورية ومما يتوجب الالتفات اليه لأنها كفيلة بأن توضح لنا جانبا غير بسيط مـــن المفهومات والتصورات المستخدمة فى أى علم من العلوم ، بل وكذلك حدود هـــذا

العلم ونطاقه ٠

ومن الواضح اننافى أماكن كثيرة من هذه الدراسة لابدوقد شعرنا وكأننــا أشبه بمن يقف فى مفترق الطرق ٠ فاللغة كما سرنا فى دراستها حتى الآن وثيقة الصلة بعلم الاجتماعوذلك الى الدرجة التى أفردلها علماء الاجتماع مبحثا خاصا ، أو بالاصح ، فرعا خاصا من فروع علم الاجتماع يقوم على دراستها من منظور علم الاجتماعوعلى هدى قواعده وتصوراته ومناهجه وقوانينه ٠ وذلك على اعتبار أنها (اللغة) ظاهرة اجتماعية أو نظام اجتماعى بالمعنى الذى يحدده الاجتماعيون لهذين المفهومين ــ أما هذا العلم المتخصص فى دراسة اللغة على هذا النحو فهو علم الاجتماع اللغوى كما أسلفنا الاشارة٠

ولكن فى الوقت نفسه فقد أدت الرغبة فى الاحاطة بالجوانب المختلفة والمتعددة للظاهرة اللغوية الى القول بعلم اللغة الموسع macro الذى يتفق معظم العلماء على انه يضم فرعين كبيرين هما علم اللغة الاجتماعى ، وعلم اللغة النفسى٠ والاول يذهب العلماء الى انه يستكشف العلاقة بين اللغة والمجتمع ويستكنه وجوه التأثير المتبادل بين الحياة الاجتماعية وظواهر اللغة المختلفة، على حين كان الثانى نتيجة امتزاج علم اللغة بعلم النفس والاهتمام المتبادل بينهما من حيث دراسة كل لظواهر الآخر٠

وقدلايكون هناك غبار على كل هذا ، فليس مايمنع اطلاقا أن تتضافر علوم متعددة فى دراسة ظاهرة من الظواهر، بل لعل ذلك يكون مطلوبا احيانا ٠ ولكن المهم فى مثل هذه الحالة ألا يكون هناك من التداخل والغموض مايمسخ طبيعة التخصصات ونطاقاتها ٠ فكأنه تضافر أو تعاون إذن فى ضوء ماتمليهوضعية العلوم ذاتها من شروط وكذلك وضعية الظاهرة محل البحث والدراسة (١) .

---

(١) لعل مايثير الدهشة بالفعل ان تصل المغالاة بأحد كبار اللغويين المشهود لهم الى حد (الاطاحة) بكل منطق داخلى للانساق العلمية المختلفة فيذهب الى انه اذا كانت اللغة نظاما اجتماعيا وتؤدى ايضا وظائف اجتماعية ٠ اذن فليس هناك من فرق بين علم اللغة وعلم الاجتماع او الانثربولوجيا الاجتماعية ٠ والغريب اننا نجد من بين =

يدفعنا الى كل هذا فى الحقيقة ما نحن بصدده من تعدد المفهومات والمسميات مع تشابهها وتداخلها وعدم وجود ملامح واضحة فيما بينها . فهناك على سبيل المثال علم الاجتماع اللغوى sociology of language وعلم اللغة الاجتماعى social lnguistics وكل منهما يدعى لنفسه انه يدرس وجوه التأثير المتبادل بين الحياة الاجتماعية وظواهر اللغة المختلفة والتساؤل هنا هو عما اذا كانت التسميتان مترادفتين ومتشابهتين ، خاصة وان هناك أيضا من يقول بوجود مايطلق عليه linguistic sociology تساوقا مع linguistic Anthropology فى الوقت الذى يقال علم اللغة الانثربولوجى Anthropological linguistics .

مانريدأن نقوله إن ثمة فوارق لابدمن أن تؤخذ فى الحسبان فيما يتعلق بهذه المسميات جميعها وبخاصة من حيث أنها تكشف عن بؤرة التركيز التى تستهدفها التسمية كموضوع للبحث والدراسة . فارق إذن بين علم الاجتماع اللغوى وبين علم اللغة الاجتماعى . لأن من الواضح أنه بالنسبة إلى التسمية الاولى يكون الاطار العام وكذلك المدخل أو تركيز البحث ومحور الاهتمام سسيولوجيا بالدرجة الاولى ، على حين تعكس التسمية الثانية اهتماما (لغويا) أو بعلم اللغة اكثر منه اهتماما اجتماعيا . بمعنى انه لايمس سواء بفرضياته الاساسية أو مستوياته المواطن العميقة فى الدراسة السسيولوجية . حتى وان لم يكن معنى ذلك كله القول بأن المدخل الاجتماعى للغة هو المدخل الوحيد لدراسة هذه الظاهرة ، ولكنه أحد المداخل المتاحة من بين عدة مداخل أخرى ممكنه والتى يمكن أن يكون استخدام كل منها سليما فى داخل حدوده ونطاقه واطاره المرجعى وطالما يستخدم أدواته وأساليبه .

= الباحثين عندنامن يقف امام هذا الخلط فى طبيعة الانساق العلمية ونطاقاتها وماهياتها ووظائفها موقف المتقبل دون ما مناقشة وربما ساعدهم فى ذلك خطئوهم فى استخدام مصطلح Institution فى غير مايقصد منه فى هذا السياق . فاللغة نظام اجتماعى وليست مؤسسة اجتماعية .

انظرفى ذلك Lyons, J., Language and linguistics. op.cit.266.

ومع ذلك فلابدمن الاعتراف بصعوبة تحقق مثل هذه الوضعيـــــــة النموذجية • والواقع انه اذا كان من السهل على علم اللغة بفروعه النوعية المختلفـــة ان يدرس الظاهرة اللغوية من الزاوية الخاصة التى تمثل الاهتمام الخاص للعلـــم فكل هذا قدلا تبدو فيه أية مشقة على اعتبار انها دراسة تتم من الداخل اذا صـــح التعبير• وانما المشكلة هى عندما نريددراسة الظاهرة من الخارج فى سياقهـــا الاجتماعى والثقافى • فهنا بالذات تتجاوز الحدودوتقترب مجالات التخصصات الى حدالتدخل والاختلاط •

وأقرب مثل الى الاذهان فى ذلك هو مانلتقى به عنددراسة الظاهـــرة القانونية فاذا كان علم القانون يدرس هذه الظاهرة من الداخل فان هناك مـــن العلوم مايدرسها من الخارج كعلم الاجتماع القانونى sociology of law والانثربولوجيا القانونية على سبيل المثال • ولأن كل من هذه الفروع المتخصصة وثيق الصلة بالعلم الام (الاجتماع القانونى وعلم الاجتماع مثلا والانثربولوجيـــا القانونية والانثربولوجيا الاجتماعية) فالمنتظر ان تنعكس كل المشكلات النظريـــة والمنهجية التى توجد أو يثيرها العلم (الأصل) فى هذا الفرع من التخصـــص أو ذلك •

وكذلك الحال بالنسبة إلى العلاقة أيضا بين هذه العلوم المتخصصـــة وبين الظاهرة القانونية نفسها • وبالقياس نفسه فان المنتظر إذن أن تنعكـــس على كل هذه العلوم الفرعية المتخصصة التى تهتم بدراسة اللغة كافة المشكـــلات التى ينطوى عليها علم اللغة ـ خاصة تلك المتعلقة بمسائل السياق اللغـــوى على وجه التحديد •

وما يؤكد ذلك كله إنه اذا كان من الصعب حقيقة إقامة أية فواصل دقيقة أو حدودمميزة بين علم اللغة مثلا وعلم اللغة النفسى psycholinguistics وبين علم النفس وعلم اللغة النفسى فإن من الصعب أيضا التمييز بشكل حاد بيـــن علم اللغة وعلم اللغة الاجتماعى sociolinguistics وبين علـــم اللغة الاجتماعى وبين علم الاجتماع •

والصعوبة ذاتها تلتقى بها بالدرجة نفسها فيما يتعلق بتداخل الحدود بين علم الاجتماع وعلم الاجتماع اللغوى وبين الانثربولوجيا والانثربولوجيا اللغوية ومن ثم بين علم الاجتماع اللغوى والانثربولوجيا اللغوية • والحقيقة إنه بالنظر لكون طبيعة العلاقات والحدود بين علم الاجتماع نفسه والانثربولوجيا هى أيضا أمر غير واضح تماما فلهذا تتداخل حدود علم اللغة الاجتماعى وعلم اللغة الانثربولوجى بشكل ملحوظ •

(٢)

فى داخل هذا الاطار يلزم إذن أن نبحث عن طبيعة العلاقات بين علم اللغة وغيره من العلوم الأخرى المتخصصة التى تمده بالمادة وبالمعطيات والمعلومات من ناحية ، وعن الصلات التى تقوم أيضا بين علم الاجتماع اللغوى والانثربولوجيا اللغوية وغيرها من العلوم من الناحية الثانية (على اعتبار ان مدخل هذين العلمين هما بالدرجة الاولى مدخل اجتماعى ومدخل انثربولوجى) • وبالتالى طبيعة الروابط التى تقوم بين هذه الشبكة الكلية المتداخلة من العلوم والتخصصات والتى تستهدف فى النهاية ــ وان يكن كل منها وفق طبيعته وفى ضوء مناهجه ــ دراسة هذه الظاهرة الفريدة أثناء فعلها فى الثقافة والمجتمع •

وعلى أساس هذه المحاور الرئيسية يبدو لنا أن هناك مجموعة حقائق من الضرورى الانتباه اليها • وهذه الحقائق هى:

أولا : إنه اذا كان علم اللغة ومثله علم الاجتماع اللغوى على صلة مباشرة بحكم طبيعة الظاهرة التى يدرسانها (اللغة) بالعلوم الانسانية فتكون معنى ذلك انهما وثيقا الصلة بتلك العلوم الاجتماعية بالذات التى تهتم اهتماما مباشرا بمختلف نواحى الحياة الاجتماعية • ولاشك فى أن كل هذا انما يرجع بالدرجة الاولى الى حقيقة أن الظواهر الاجتماعية المختلفة لها آثارها البعيدة فى ظاهرة اللغة لدرجة انه يصعب فهمها الا فى ضوء هذه العلاقات المتبادلة بين اللغة وغيرها من الظواهر والنظم الاجتماعية ومختلف العلوم التى تهتم بدراسة هذه الظواهر الاجتماعية وسواء كانت

علوما انسانية مثل التاريخ والانثربولوجيا والاثنوجرافيا ٠٠الخ أو علوما اجتماعية خاصة مثل علم السياسة والاقتصاد أو الفلوكلور وما اليها ٠

ثانيا : لما كانت هناك بعض الجوانب اللغوية التى تبتعد عن مجالات التخصص العلمى السابقة ، ومن ثم فلا يستطيع عالم اللغة أو علم الاجتماع اللغوى ان يفعل شيئا إزاءها فيكون من الضرورى إذن التعرف على طبيعة هذه الصلات والكيفية التى تلقى بها هذه العلوم بالضوء على الظاهرة اللغوية وذلك مثل الطبيعيات أو حتى هندسة الاتصالات اضافة الى علوم التشريح مثلا وعلم وظائف الاعضاء وعلم الحياة ٠٠ الخ٠

ثالثا : اذا كنا قد أوضحنا من قبل ان الاتجاه العام لهذه الدراسة سوف يكون أميل الى اعتبار الناحية الموسعة Macro فيكون معنى ذلك أن نهتم ونحن بصدد توضيح العلاقات بين علم اللغة وغيره من العلوم بابراز الصلة بينه وبين كل من علم اللغة الاجتماعى وعلم اللغة النفسى على الرغم من التداخل الكبير بينهما من ناحية وعلم الاجتماع اللغوى من الناحية الثانية٠ ويدفع الى ذلك طبيعة المنطلق الذى تتحرك منه هذه الدراسة وهو منطلق اجتماعى بالدرجة الاولى٠ وعلى العموم فسوف نتناول هذه العلاقات المتشعبة على النحو التالى :

اولا : في صلة علم اللغة والاجتماع اللغوى بالتاريخ : وقديبدو للبعض ان مثل هذه العلاقة غير محتملة الوقوع ٠ ومع ذلك فلا يستطيع عالم اللغة أو عالم الاجتماع اللغوى (وحتى أيا كان المدخل لدراسة اللغة) إلا أن يضع التاريخ فى اعتبارهوان يرجع الى الماضى دائما ٠ بل وربما الماضى البعيد للوقوف على طبيعة الحياة الاجتماعية والكيفية التى ظهرت أو تكونت بها ظاهرة اللغة كمظهر من مظاهر النشاط الانسانى٠

ومن الناحية الاخرى نجدأن هذين العلمين كثيرا ما يكونان فى حاجة إلى مساعدة بعض فروع علم التاريخ وبخاصة تاريخ التراث الحضارى للشعوب، وتاريخ الآداب والفلسفة والقانون وذلك على اعتبار أن جميعها من الدراسات التاريخية التى تعكس الكثير من مظاهر حضارات الامم وتراثها وتضع فى دائرة الضوء الكثير من

تقاليدها ولهجاتها ، وتوضح مختلف القوالب والأشكال والصور والاساليب التى كانت عليها الظاهرة اللغوية فى الماضى والمسار الذى سارت وتطورت فيه.

كذلك يهتم عالم اللغة وعالم الاجتماع اللغوى بالتاريخ من زاوية خاصة لها أهميتها وهى مايمكن ان يطلق عليه التاريخ الحربى والقومى للشعوب ، ذلك أن هذه الناحية تعطى صورة واضحة لتاريخ الحروب والغزو خاصة فى تلك المراحل القديمة والمبكرة من تاريخ المجتمعات ، وهذه مسألة على غاية من الأهمية فى التعرف على جوانب الظاهرة اللغوية المتعلقة بنواحى الانتشار اللغوى والصراع اللغوى والتغيرات التى تطرأ بوجه عام على اللغات واللهجات.

ثانيا : علم الاجتماع اللغوى والانثروبولوجيا والانثولوجيا :

الانثروبولوجيا كما يعرفها غالبية العلماء هى علم دراسة الانسان من جوانبه الطبيعية (الفيزيقية) والثقافية والاجتماعية ، أو هى علم الانسان من حيث هو كائن فيزيقى واجتماعى ، او علم الانسان فى افعاله وسلوكه ، أو علم الجماعات البشرية فى انتاجها واستهالكها أو علم الحضارات والمجتمعات البشرية .

وأيا ماكانت التعاريف التى قالها العلماء للانثروبولوجيا فقد تفرعت الى علوم متخصصة هى الانثروبولوجيا الطبيعية أو الفيزيقية التى تدرس الانسان ككائن فيزيقى حالى أو منقرض ومن حيث كونه جزء فى الطبيعة اى تدرسه من حيث النشأة ومن حيث التطور ومن حيث علاقته بالمجموعات الحيوانية والكيفية التى اكتسب بها الصفات والخصائص الانسانية ومن ثم معالجتها لمختلف السمات الفيزيقية فى الانسان وخصائصه الاجناسية.

أما الفرع الثانى من فروع الانثربولوجيا فهو الانثروبولوجيا الاجتماعية التى تدرس الانسان الاجتماعى الذى يعيش فى ظل علاقات اجتماعية ونظم اجتماعية. على حين يهتم الفرع الثالث وهو الانثروبولوجيا الثقافية بدراسة الانسان ككائن ثقافى.

أما الانثنولوجيا من الناحية الأخرى فهى العلم الذى يهتم بدراسة الذاتيات الثقافية للشعوب والخصائص التى تميز ثقافة من الثقافات عن غيرها.

وعلى العموم فان الواضح فى ضوء هذا كله أن هذين العلمين يلقيان بالضوء على الظروف البيئية والاقليمية التى عاشها الانسان ومانجم عن ذلك من تأثير فى النظم اللغوية والتراث الثقافى بوجه عام. اضافة الى الكشف عن القوى المؤثرة فى تباين أو تشابه اللغات بين الاقاليم المختلفة. ولقد ازدهر هذا الاتجاه بصفة خاصة فى امريكا حيث اهتم العلماء من امثال جريبنر وهو يتلى بدراسة اللغة وسط البيئة الثقافية العامة.

ثالثا : علم الاجتماع اللغوى وعلم النفس :

ومن الواضح ان هناك علاقة أيضا بين علم الاجتماع اللغوى وعلم النفس وهو العلم الذى يدرس القوى والقدرات التى تنطوى عليها الطبيعة البشرية وايضا مختلف الامكانات والاستعدادات والعمليات العقلية أو الذهنية وسائر مظاهر السلوك الفردى ، وكلها جوانب لها صلاتها الوثيقة بظاهرة اللغة فى ارتباطها بالشخصية الفردية المتأثرة بظروف البيئة وجوانب التعلم والتنشئة والاكتساب وتطور القدرات بوجه عام.

رابعا : صلته بالعلوم البيولوجية والفسيولوجية :

كذلك ترتبط الدراسة المتخصصة للغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية بصلات وثيقة مع الدراسات البيولوجية والفسيولوجية التى تهتم بدراسة الانسان باعتباره كائنا حيا ، وتبحث فى الاسس الحيوية للطبيعة البشرية ، وأثر هذه العوامل والأسس الحيوية فى مختلف مظاهر سلوكه اللغوى الفردى والجمعى على السواء.

خامسا : صلته بالعلوم الدينية والتشريعية :

وكما أشرنا من قبل فان علم الاجتماع اللغوى وثيق الصلة أيضا بعدد

من العلوم الاجتماعية التى أخذت طريقها الى الاستقلال الذاتى مثل علوم الديـــن والاخلاق والفولكلور والسياسة والتربية وما اليها ٠

وبالنسبة الى علم الأديان المقارن والتشريع المقارن على سبيل المثـــال ، نجد أن عالم الاجتماع اللغوى كثيرا ما يستعين بماوصلت اليه هذه العلـــوم فى تحليلها لحقائق الحياة الاجتماعية ، وكذا فى تناولها لأمور النشأة والبدايـــات الأولى لبعض الظواهر التى تعتبر ظاهرة اللغة فى مقدمتها ٠

سادسا : علم الاجتماع اللغوى والفولكور :

كذلك فانه لاتخفى تلك العلاقة بين علم الاجتماع اللغوى وبين علـــم الفلكور أو علم المأثورات الشعبية كما يطلق عليه٠ فدراسة ظاهرة اللغـــة تؤدى من غير شك إلى القاء مزيد من الضوء على الآداب الشعبية والحكايـــات والروايات والخرافات والاساطير التى تكون جانبا أساسيا من تراث الامم والشعوب٠

ولقد وضحت هذه العلاقة بصفة خاصة نتيجة للجهود الذى بذلها علمـــاء الاجتماع فى دراسة اللغات البدائية واللهجات الصغيرة فى بعض المجتمعـــات والجماعات حيث تركزت جهودهم فى تسجيل لغاتها وتحليل الأصوات التى يمكـــن عن طريقها توصيل المعانى والكلمات والافكار، وأيضا فى محاولة التعرف على المدى الذى يمكن للغة أن تعكس تفاصيل الموقف البيئى والثقافى للافراد الذين يتكـــون منهم الموقف باعتبارهم مشاركين فى الحديث٠

ومن الناحية الأخرى فاننانجد أن اللغة كانت دائما الوسيلة الرئيسيـــة لما أنتجه الانسان على مدى تاريخه الطويل من أشكال التعبير الفنى التـــى تعكس وتسردأحداث الحياة الواقعية والخبرات اليومية أو التى تقص أحداث الماضـــى البعيد٠ والواقع انه لايكاد يوجد مجتمع من المجتمعات الانسانية المعروفة بخلـــو من مظهر أو آخر من مظاهر الفنون الكلامية بصرف النظر عن درجة تقدم المجتمـــع الحضارى ٠

ويذهب علماء الاجتماع اللغوى وعلماء الانثربولوجيا اللغوية الـــــى

ان المعرفة بهذه الفنون تعتبر إسهاما حقيقيا فى التعرف على ثقافات هـــــذه المجتمعات وأبنيتها الاجتماعية ٠ كما يذهب البعض منهم فى أهمية ذلك الى حـــد الارتفاع بهذه الفنون (الفولكلور) إلى مستوى الانساق الاجتماعية التى تؤلـــف البناء الاجتماعى كالنسق القرابى والنسق السياسى وما إليها ، أو مايعتبره علــــى أقل تقدير جزءا من النسق الايديولوجى نظرا لما تتضمنه هذه الحكايات والروايـــات والاساطير من مبادىء ومثل وقيم اجتماعية ٠

وعلى أى الاحوال فاننا نستطيع ان نقرر بناء على ذلك كله ان علــــم الاجتماع اللغوى يرتبط ارتباطا وثيقا بكل فروع المعرفة الانسانية طالمــــا أن ظاهرة اللغة التى يهتم هذا العلم بدراستها هى ظاهرة انسانية بالدرجة الأولى ٠

ومع ذلك فان أهم مايميز علم الاجتماع اللغوى عن كل هذه العلوم انـــه ينظر إليها نظرة موضوعية ويتجرد من النزعة الذاتية أو الشخصية بمعنى انه يعالج ظاهرة اللغة كنظام اجتماعى لا من حيث مصدرها فحسب ولكن من حيث أثره فـى الحياة الانسانية كذلك ، وصلته وتأثيره فى بقية النظم الاجتماعية الأخرى ٠ وهو اذ يقوم بهذه الدراسة فانما يحاول التعرف على صورها البسيطة ووظائفها الاجتماعيـــة وتطورها وعلاقاتها بالاوضاع السياسية والاقتصادية والاخلاقية والتربوية وماإلــــى ذلك من الظواهر والأوضاع ٠ أى أنه لايدرس اللغة فى ذاتها ولكن باعتبارها نظامـــا اجتماعيا لوظيفته أو وظائفه الاجتماعية وله ايضا تأثيراته فى النظم والظواهــــر الاجتماعية الاخرى ، تماما مثلما يتأثر هو بها وبمقتضيات البيئة الكلية الشاملـــة طبيعية كانت أو اجتماعية ٠

(٣)

ويختلف الأمر بالنسبة إلى الحديث عن علم اللغة الاجتماعى أو علــــم اللغة النفسى فى صلتهما بكل من علم اللغة وعلم الاجتماع اللغوى اختلافــــا كبيرا حيث تتشعب العلاقات وتتداخل حتى ليصعب القطع بما إذا كانت مقولـــة من المقولات مما ينتمى إلى هذا النطاق أو ذاك ٠

ولا جدال فى أن علم اللغة الاجتماعى قد أحرز تقدما ملحوظا ليس مــــن

السهل انكاره فى مجال الدراسات اللغوية الحديثة ، وهو تقدم قد يمكن فهمه من مجرد النظر الى ذلك التقدم الذى أحرزه علم الاجتماع اللغوى الذى يعتبره البعض احدالمجالات المتخصصة فى علم اللغة الاجتماعى علىالرغم من ان الاجتماع اللغوى أوضح صلة وأشد انتماءاً الى علم الاجتماع منه علم اللغة على اعتبار انه أحد فروع علم الاجتماع العام ، حتى وان كان وعلم اللغة الاجتماعى يشتركان فى الدراسة الاجتماعية لموضوعواحد هو اللغة،فالمسألة كما أشرنا من قبل هى مسألة المدخل أو التوجه الذى يقود خطوات الباحث • وفارق بين أن يكون هذا التوجه منبعثا من أرضية علم الاجتماع وخلفيته النظرية والمنهجية أو من علم اللغة بأرضيتهوخلفيته النظرية والمنهجية كذلك•بل إن البعض يحسم هذا الخلاف بشكل آخر ربما كان اكثر حدة وفى الوقت نفسه اكثر موضوعية وبعداً عن المجادلات عندما يرجع علم اللغة نفسه الى العلوم الاجتماعية ذاتها ، وهى نظرة لايوافق عليها اللغويون خاصة أولئك الذين ذهبوا - خطأ - الى القول بأنه لافارق هناك بين علم اللغة وعلم الاجتماع أو الانثربولوجيا الاجتماعية على ما أسلفنا الاشارة•

ومع ذلك فان الخلاف لايوجد بهذا الصدد وحده ولكنهيوجد فى الحقيقة بين علم اللغة الاجتماعى sociolinguistics وعلم النفس الاجتماعى psycholinguistics كذلك • وهو خلاف يتردد دائما انه قد وصل الى حد الصراع بين مدخل كل منهما فى دراسة اللغة استنادا الى وجهتى نظر معينتين كل منهما تجدمن الأنصار مايزيد الى الصراع القائم (١) •

ولقد قلنا من قبل - وهذا من ناحية - أن تشومسكى قد وصف علم اللغة بأنه أحد فروع علم النفس المعرفى أو الادراكى cognitive وهذا معناه انه لم يكن يجد اية مشقة أو يهتم بالعلاقة بين اللغة وسياقاتها الاجتماعية والثقافية • ذلك فى الوقت - وهذامن الناحية الأخرى - الذى مالت فيه كثير

---

(١) يمكن للقارىء أن يرجع فى هذا الصدد إلى :
kess,J.F.,psycholinguistics.1976.pp.204-13

من المدارس التى جذب انتباهها الدور الذى تؤديه اللغة فى المجتمع إلى إبـــراز طبيعة العلاقات بين علم اللغة وكل من علم الاجتماع والانثربولوجيا اكثر منه علاقته بأى نسق علمى آخر.

وقد يبدو أن التعارض بين وجهتى نظر كل من علم اللغة الاجتماعى وعلـم اللغة النفسى لابد وأن تتحدد بشكل أكبر. والواقع ان قضية الاكتساب اللغـــوى والتى تعتبر إحدى القضايا المحورية بالنسبة الى علم اللغة النفسى ، تعتمـــد جزئيا على مقوماتها الذاتية ولكنها فى الوقت نفسه تتوقف أيضا على عملية التنشئـــة الاجتماعية وعلى القدرة أو القابلية لاستخدام اللغة الاصلية للفرد فى مختلـــف المواقف التى تواجهه فى الحياة اليومية وذلك كدليل على القدرة أو السلامة اللغوية.

بمعنى آخر فان هذه القدرة الفطرية أو ملكة اللغة competence قد أصبحت تمثل موضوعا مشتركا بين علمى اللغة الاجتماعى والنفسى على السواء على الرغم من أن مجال العلم الأخير مازال ينظر اليه على انه أحد المجالات الفرعية التى يمكن القول بأنها لم تستقل تماما إلا فى وقت حديث نسبيا.

وعلى العموم فقد أدت هذه المواقف جميعها إلى اثراء الدراسات اللغوية فى آخر الأمر ، كما أدت فى الوقت نفسه إلى تغير المفهومات ذاتها التى كانت ترتبـــط تقليديا بالنظرة الى اللغة ، وبالتالى الى اتساع نطاق البحث فى وظائفها بشكـــل تخلى عن كثير من الرؤى الكلاسيكية التى طالما ارتبطت بمثل هذه النوعية مـــن الدراسات.

ونحن وان كنا لانزمع الحديث هنا عن هذه الوظائف التى أصبح العلماء وبخاصة فى علم الاجتماع وعلم الانثربولوجيا أميل الى التركيز عليها والى ابرازهـــا ونعنى بذلك الوظائف الاجتماعية للغة إلا أنه يكفى القول بأن مثل هذا التحول فى الاهتمامات كان ــ وبالرغم من كافة مظاهر التعارض أو الصراعات التى ينطـــوى عليها ــ كان بمثابة ضربة قاصمة الى النظرية التقليدية فى اللغة تلك التى انحدرت إلينا من أخريات القرن التاسع عشر وظلت تمارس تأثيرها إلى وقت جد قريب.

(٤)

ومن الطبيعي ألا تكون هذه العلوم التي تعرضنا لها حتى الان هي كل الدائرة التي يتصل بها علم اللغة أو حتى علم الاجتماع اللغوى ٠فبالنظر الى طبيعة اللغة ذاتها كظاهرة اجتماعية انسانية من ناحية ، وبالنظر أيضا إلى تلك التغيرات الاجتماعية والثقافية التي تطرأ على طبيعة الظروف الاجتماعية والثقافية (بخاصة) التي تعيشها المجتمعات من ناحية ثانية ، ومن الناحية الثالثة نظرا أيضا الى ان مظاهر التغير هذه تستجلب معها بالضرورة أوضاعا أخرى جديدة ومشكلات (أيضا) أخرى جديدة يتعين التعامل معها وابتكار ما من شأنه أن يزيد من فهمنا لها وسيطرتنا عليها بل وتوجيهها الوجهة التي نريدها ٠ فقد كان كل ذلك وراء ظهور مجموعة من الاتجاهات الاكثر حداثة التي ارتبطت بمجال البحوث اللغوية كاستجابة بالدرجة الاولى لهذه التغيرات وللتعامل معها من زاوية ، ولتطوير الحقائق العلمية والنظريات التي يكشف عنها العلماء في بحوثهم اللغوية من زاوية أخرى ، هذا الهدف الذي يوصف بأنه هدف عملي وتطبيقي وهدف نظري واكاديمي في آن واحد كان سببا مباشرا فيما أصبح أي باحث فمثلا في المجال يسمعه من مصطلحات لم تعد وقفا على تلك النطاقات التي طالما صكت معارفها سمعه مثل الفسيولوجيا أو السسيولوجيا أو حتى تلك المصطلحات الاكثر تجريدا مثل "ميكانيزم" و(تركيبية" أو تحويلية" أو " توليدية "٠٠ الخ ٠ ولكنها من نطاقات تبدو الصلة بينها وبين علم اللغة غريبة الى أبعد الحدود (أو هكذا كانت على الأقل حتى اليوم) مثل مصطلحات " البرمجة " أو " التغذية" " والتكويد"و"التخزين" ٠٠ وماإليها ٠

بمعنى آخر ثمة مجموعة من العلوم الحديثة جدا التي اقتضت طبيعة التغيرات ذاتها سواء من داخل العلم أو من خارجه ظهورها ٠ وفي مقدمة هذه العلوم مايلي:

اولا : علم اللغة الحاسبى (١) Computational linguistics

يقصد به اساسا استخدام الحاسبات الالية computers
والالكترونية فى البحث اللغوى وذلك بهدف رئيسى هو (على الاقل نظريا) فحص
وفرز الأصول والمراجع العلمية الأساسية والتوصل إلى النتائج بشكل أسرع واكثر
صدقا مما كانت مثل هذه العمليات تتم به فى الماضى قبل تقديم هذه الاجهزة
وظهورها لأول مرة فى أواخر الاربعينيات • وهى نواحى تقدم الكثير من المساعدات
للبحث اللغوى خاصة فى مجالات قوائم المفردات والتراكيب النحوية بالاضافة الى
مجال الترجمة حيث أصبحت الترجمة الآلية Machine translation
تلعب دورا متصاعدا فى حياة مختلف الافراد والجماعات والمجتمعات وعلى كافة
المستويات الرسمية وغير الرسمية على السواء . (٢)

ثانيا : علم اللغة الرياضى Mathematical linguistics

ويقصد به عادة دراسة البناء الاستاتيكى للمراجع والكتب الأساسية ومحاولة
إقامة أو تشييد نماذج رياضية للبناءات اللغوية والنحوية للغات • وهما مجالان
كثيرا مايعبر عنهما بعلم اللغة الاستاتيكى من ناحية وبعلم اللغة الجبرى

(١) ثمة فى الحقيقة العديدمن المجالات التى يشتمل عليها علم اللغة الحاسبى وهى مجالات مازالت مليئة بالكثير من المشكلات النظرية والمنهجية على السواء نظرا الى حداثة العلم والتعامل " الآلى" مع عالم" واقعى" و " حقيقى" ، إضافة الى كل مايتعلق بجوانب المعلومات الواجب توافرها وأساليب التحليل الآلى ومايثيره ذلك من مشكلات فنيةترتبط بصفة اساسية ببعض المجالات الحيوية التى قام العلم للتعامل معها اساسا وبخاصة مجال النقل والترجمة •
وعلى اية حال يمكن للقارىء الذى قد تثير خياله وعقله هذه النواحى ان يرجع الى : Borko,H.,(ed.)
Automated language processing.N.Y.wiley.1967•

(٢) Bassnett -Mc Guire,Susan.,translation.London.1981.pp.32-38.

Algebraic من ناحية ثانية وذلك للتمييز بينهما على الرغم من انضوائهما معا تحت علم اللغة الرياضي.

ولقد سعت البحوث فى هذا العلم الى استخراج القواعد النحوية والأصول الصرفية للغات فى ضوء التعرف على هذه الاصول والقواعد فى البناءات المعينة التى كتبت بها هذه اللغات وهو مجال مازال متعثرا على أى الاحوال، وان كانت بعض مظاهر النجاح الملحوظة قد حدثت فى نطاقات معينة تدور حول مقارنة اللغات من وجهة نظر استاتيكية كالبحث مثلا فى نسبة الصوائت الى السواكت الصوامت فى لغة معينة أو مقارنة ما تحويه لغة ما من أسماء بما يوجد بها من أفعال ... الخ .

ثالثا : فلسفة اللغة philosophy of language

وقد مثلت هذه الناحية دائما أحدالموضوعات التى جذبت اهتمامات الفلاسفة حتى إنه يمكن القول بأن النحو التقليدى قد سادته باستمرار وأثرت فيه تأثيرا بالغا مختلف النظريات السائدة. وهو الحال الذى بدأ فى التغير على أى الأحوال بالنسبة إلى علم اللغة الحديث حيث لايبدو التأثير المتبادل بين الفلسفة وعلم اللغة إلا فى أضيق النطاقات.

ومع ذلك هناك بلاشك متعة خاصة تثيرها تلك القضايا الجدلية التى نجح تشومسكى فى تفجيرها والقائلة بأن العمل فى النحو التوليدى سوف ينتهى مما يكشف بالتأكيد عن حقيقة ان الفعل الانسانى هو مصدرالمعرفة وهو موقف عقلانى يعكس مدى تأثره بفلسفة رينيه ديكارت.

وعلى الرغم مما قد يوحى به مسمى هذا المجال من عمق وانه يتصف بالبعد عن الوصف السردى أو الشكلى وانما يدور حول قضايا فلسفية ومنطقية نوعية مما يجعله يكاد يكون مجالا مغلقا على بعض ذوى الاهتمامات الفرعية الخاصة، فقد نجحت للشقيقة اللغة على أى الأحوال فى أن تلفت إليها الانظار وبخاصة فى مجال الدراسات اللغوية المنطقية وأيضا فى تلك المجالات التى يعمل فيها أولئك الذين أصبح يطلق عليهم فلاسفة الدراسات اللغوية الاعتيادية أو الدارجة philosophers of ordinary linguistics.

رابعا : علم اللغة التطبيقي Applied Linguistics .

وتدور اهتماماته[1] -كما ينعكس في اسمه - حول توظيف مايصل إليه العلماء المتخصصين في مختلف فروع علم اللغة للغايات العملية التي يسعى إلى تحقيقها غيرهم من العلماء المتخصصين في مختلف النواحي والمجالات التي تهم الانسان وتهدف الى تيسير حياته في المجتمع وتطويرها وبخاصة تلك الميادين المحددة مثل تعليم اللغات سواء أكانت قومية أو غير قومية أو صنع المعاجم والقواميس بأنواعها المختلفة نسبة إلى اغراضها المختلفة إضافة الى تلك الفوائد التي لاشك يجنيها مجال الترجمة من هذا العلم،وهذه ناحية لها أهميتها البالغة مع كل مايطرأ على المجتمع من مظاهر التغير من ناحية وتزايد الاتصال والتبادل الثقافي والمعرفي بين المجتمعات المختلفة من ناحية أخرى . علاوة على تلك الغايات الأخرى المرتبطة بالتخطيط اللغوى وتقديم الاستشارات الفنية في مجال اللغويات لراسمي السياسات التعليمية وواضعي البرامج اللغوية وبخاصة في الدول المستقلة حديثا والدول النامية بوجه عام تلك التي لازالت تبحث عن هويتها الثقافية واللغوية كشرط ضروري يكتمل به استقلالها الحقيقي.

---

(١) Corder,S.p.,(ed.),The Edinburgh course in Applied linguistics.4.vol.(1973-1977).

الفصل الثامن

مناهج البحث فى علم الاجتماع اللغوى

من المسلم به أن أى علم من العلوم لايستقل استقلالا ذاتيا أو يصبح متكاملا ناضجا له كيانه الا اذا كان له موضوعه الخاص به الذى يميزه عن بقية أنواع المعرفة الانسانية أو فروع المعرفة الأخرى . إضافة إلى منهجه (أو مناهجه) الخاص الذى يقودالبحث فيه .

ومن المسلم به أيضا ان طائفة العلوم الاجتماعية تشارك إلى حد بعيد فى مناهجها العامة باعتبار ان هذه العلوم قد بدأت كلا متكاملا أو انها مازالت تعتبر إلى الآن بمثابة فروع متكاملة متشابكة على الرغم من تخصصاتها المختلفة الواضحة .

ولما كان علم الاجتماع اللغوى قد مر - كما قلنا من قبل - مثله كغيره من العلوم بكافة مراحل النشأة والتكوين ، وكان منهجه الذى سار بمقتضاه . قد تأثر،إن لم يكن قدخضع للمدارس والاتجاهات العامة المسيطرة على العلوم الاجتماعية المختلفة ، فيكون النظر اذن إلى مناهجه والحديث عن هذه المناهج فى ضوء المناهج التى اتبعتها هذه المدارس والاتجاهات عموما والمناهج الذاتية الخاصة به خصوصا ، حيث الجاتطبيعة الظاهرة اللغوية الى استحداثها وتطويرها .

وهناك مجموعة من المناهج التى أصبح علم الاجتماع اللغوى يستعين بها فى دراساته وبحوثه ، وهذه المناهج هى :-

اولا : المنهج التاريخى الظنى :

وهو المنهج الذى يطلق عليه البعض المنهج التاريخى التخمينى conjectural method والذىتميزت به المراحل الاولى التمهيدية من نشأة العلم . وذلك على اعتبار أن المنهج فى هذه المراحل الاولى إنمايسعى بالدرجة

الى ابراز الاتجاهات العامة والمراحل المتتابعة التى نشأت وتطورت فيها اللغة منذ أول ماكانت إلى اليوم أى منذ تكونها من البسيط وتحولها الى المركب المعقد الذى نراها عليه الآن . بالاضافة إلى إبراز العناصر كالاقسام والتراكيب التى تتألف منها اللغة وتلك التى تتشابك أو تتفاعل معها وذلك بهدف أساسى هو الوصول إلى القانون العام الذى يحكم هذا التطور والذى يوضح ظروف النشأة الأولى للغات المختلفة وما تشعب منها من لغات صغيرة ولهجات.

ومن الواضح إنه لايمكن الاطمئنان كثيرا الى نتائج هذا المنهج التاريخى الظنى نظرا إلى قدم الظاهرة موضوع البحث ومن ثم اعتماد العلماء كثيرا على الظن والتخمين والتأويل وملىء الثغرات بهذا كله حتى يبدو مايقدمونه من تفسيرات متسقا ومتكامل البناء على الرغم من صعوبة الوصول فيه الى يقين .

ثانيا : الملاحظة المباشرة : Direct Observation

وتعتبر طريقة الملاحظة المباشرة من أقدم الطرق التى استخدمها العلماء في بحوثهم اللغوية وساعدتهم فى الكشف عن كثير من الحقائق المتصلة بنشأة اللغة وحياتها وتطورها والوظائف التى تقوم بها وكذلك العلاقات التى تربط مظاهرها المختلفة بعضها ببعض والتى تربطها ، هى ذاتها بغيرها من الظواهر، إضافة إلى القوانين التى تخضع لها فى نواحيها المختلفة.

غير أنه يجب الانتباه الى أن الملاحظة المباشرة لاتعتبر طريقة صالحة للاستخدام إلا بالنسبة الى دراسة اللغات الحية Living بصفة خاصة التى يراد دراستها دراسة وصفية. أما بالنسبة الى دراسة اللغات الميتة Dead أو دراسة التغيرات التى طرأت على لغة من اللغات فى وقت ماض من مراحل تطورها أو تاريخها فإن استخدام هذا المنهج لن تكون له فائدة حيث لن يكون بمقدور الباحث عندئذ الوقوف على مختلف الظروف التى كان الكلام يستعمل فيها . ومن هنا فالمنتظر أن يمتزج هذا المنهج بالمنهج التاريخى الظنى ليتمكن الباحث من الحصول على المعلومات التاريخية سواء استعان فى ذلك

بالمؤلفات أو الوثائق أو الآثار عن المجتمع الذى توجد به اللغة فى الفترة التى يدرسها، ومن الواضح ان مثل هذا التداخل بين منهج الملاحظة المباشرة والمنهج التاريخى الظنى يفتقر الى كثير من الدقة والاقناع ٠

ان مالاشك فيه هو ان الدراسة الوصفية descriptive لمرحلة قديمة من مراحل لغة مازالت تجرى على الألسنة مسألة تختلف عن الدراسة الوصفية لمرحلة حالية مازالت تعيشها هذه اللغة أو أية لغة سواها ٠ ففى الحالة الأخيرة يتاح للباحث أن يقف على كثير من الحقائق غير اللغوية التى يحتاج اليها لاجل توضيح المعانى ، وهو الأمر الذى يعتبر صعبا بالنسبة الى الحالة الاولى الا عن طريق التصور والتخيل والمعلومات التاريخية الظنية مثلما الحال فى دراسة مرحلة من مراحل اللغات الميتة ٠

وعموما فان هذه الطريقة تركز على اعتبار الكائن البشرى مركز دراسة اللغة ولا تنظر الى هذا المركز على انه بعض العلاقات الآلية أو الرياضة الجامدة، فهى تؤرخ للتطور اللغوى للشخص وهو فى جماعته منذ ولادته ولكن ليس باعتباره شخصا مستقلا وانما تأخذ الدراسة فى اعتبارها حقيقة ان هذا الشخص عضو فى جماعة كلامية معينة أى أنها تأخذ فى اعتبارها مقومات الشخصية وطبيعتها التى لها علاقة باللغة، بمعنى أنها تقيم نظرتها على أساس من العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغوى للشخص فى ضوء العلاقات التى يرتبط بها الشخص والقيود الاجتماعية التى تفرض عليه وتلزمه فى كثير من الاحيان بأن يسلك سلوكا لغويا معينا فى حالات خاصة وظروف بذاتها ٠ ومن هنا يذهب البعض الى تأكيد ان المنهج الوصفى هو الذى يسود الآن علم اللغة الحديث وذلك على اعتبار ان المظهر التزامنى synchronic المنتمى الى جماعة المتكلمين هو مايمثل الحقيقة الواقعية لكل نشاط لغوى ٠

ومامن شك فى أن هذه العوامل والظواهر والعلاقات والقيود تختلف كلها من مجتمع الى آخر كما تختلف حتى فى داخل المجتمع الواحد باختلاف الأوقات والأزمنة وباختلاف القوى وطبيعة العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى

تقوم بين هذه القوى بالنسبة الى الزمان والمكان • أو بتعبير آخر فان مانريد توضيحه هو ضرورة توافر الأساس الاجتماعي أو النظرة الاجتماعية عند دراسة السلوك اللغوى وذلك نزولا بالدرجة الأولى على حقيقة أن اللغة الانسانية هي ظاهرة اجتماعية أو جدتها طبيعة الاجتماع البشرى ذاتها كما انه فى قلب المجتمع يكون استخدامها ومن ثم تلزم بالتالى دراستها •

ثالثا : المنهج التجريبى Experimental Method

ويقوم هذا المنهج أساسا على محاولة تغيير الظروف العامة المحيطة باللغة المراددراستها أو الظروف المحيطة بالشخص الذى تجرى عليه الملاحظة لتمكننامن الوقوف على ماقديتعذر عليه فى الظروف العادية •

ولقداستخدم هذا المنهج بنجاح ملحوظ فى دراسة الظواهر اللغوية المتعلقة بالدلالة (السيمانتيك) • كما أمكن بفضل هذا المنهج أيضا التوصل إلى بعض النتائج الهامة فى دراسة اللهجات dialects واللغات العامية (الدارجة) slang ، حيث لم يكتف الباحثون فى هذه الناحية بملاحظة الاشخاص وهم يتحدثون فى حالاتهم العادية وفى ظروفهم الطبيعية ولكنهم لجأوا إلى التجريب أى اثارة الظواهر اللغوية وتوجيهها فى النواحى التى تتيح للباحث الوقوف على قوانينها والتعرف على خصائصها •

رابعا : المنهج المقارن : Comparative Method

كذلك استخدم العلماء منهج الموازنة او مايطلق عليه اصطلاحا المنهج المقارن Comparative وذلك بغرض استنباط الخواص المشتركة فى طائفة أو مجموعة من اللغات للوقوف على أوجه الشبه أو مظاهر الاختلاف فيمابينها ، ولأجل التعرف على العوامل والاسباب التى ترجع اليها هذه المشابهات أو الاختلافات والنتائج المترتبة على أى منها •

ولقد كان لابد لعلم الاجتماع اللغوى أن يساير أحدث الاتجاهات

التى يأخذ بها علم الاجتماع فى دراسته للظواهر والنظم والظواهر الاجتماعية ومن ثم بدأ استخدامه للمنهج التكاملى الوظيفى functional integral الذى يقوم على محاولة فهم فاعلية النظم اللغوية فى الحياة الاجتماعية.

إضافة إلى ذلك فقد كان للاتجاهات الحديثة الكثير من الفضل فى تخليص الدراسات اللغوية من الاتجاهات التطورية والسيكلوجية التى سادت بين العلماء فى القرن الماضى ، وذلك على اعتبار ان مهمة المنهج المتكاملى الوظيفى هى الكشف عن الدور الاجتماعى والوظيفة الاجتماعية التى تقوم بها الظاهرة فى نطاق النسق الاجتماعى والبناء الاجتماعى.

ومهما يكن من أمر فان مالاشك فيه هو أن هذا الاتجاه قدأفسح مجالا واسعا أمام الاجيال الحديثة من العلماء والباحثين للتعمق فى دراسة اللغة من منظور سسيولوجى تضافرت على تعميقه عدة مناهج وطرق شرط الاحتفاظ لكل منها بحالته التى يصح فيها وبشروطه.

الباب الثالث

اللغة في الثقافة والمجتمع

الفصل التاسع

الوظيفة الاجتماعية للغـــــة

لعله قد وضح من خلال حديثنا عن اللغة حتى الآن انها ظاهـــــرة اجتماعية مثلهامثل غيرها من الظواهر الاجتماعية الأخرى التي توجد في المجتمـــع. واذا نحن سلمنا بهذا الموقف الذي يأخذه علماء الاجتماع اللغوي ويشارك فيه بوجه عام علماء اللغة المحدثين لزم إذن أن نتساءل عن طبيعة العلاقة التي تقوم بيـــن اللغة كظاهرة اجتماعية وغيرها من الظواهر ؟ كما يلزم أيضا أن نسأل عــــن الوظيفة أو الوظائف الاجتماعية التي تقوم بها في حياة المجتمع أو الجماعة وأثر ذلـك في تحقيق تماسكه واستقراره وبالتالي تحت أية ظروف ؟

(١)

ولقد كنا قد أشرنامن قبل وفي أثناءتعريفنا للغة إلى النظرية الكلاسيكيـة التي تقصر وظيفة اللغة على توصيل الفكر أو التعبير عنه (١)، وقلنا أن هذه النظرية قد فشلت في الاحاطة باللغة إحاطة كاملة تكشف عن وظيفتها الاجتماعية. ونعتقـد انه قد أصبح من المناسب الآن أن نتعمق هذه الناحية فقد يؤدي ذلك الى الكشف عن أوجه القصور في هذه النظرية وبالتالي يساعد على تبين بعض وجهات النظـــر

---

(١) قد يكون من الطريف أن نذكر هنا التعريف الذي أوردته الطبعة الحاديـة عشرة لدائرة المعارف البريطانية حيث عرفت اللغة بانها " جماع أو مجموع الكلمات والتركيبات والصيغ التيتكون منالكلمات التي يشيع استخدامها بيـن أفراد الامة أو شعب أو جنس بغرض التعبير عن أفكارهم أو توصيل هـذا الفكر ونقله إلى الآخرين ، أو بمعنى آخر اكثر عمومية هي القدرة علــى التعبير عن الفكر بواسطة الاصوات اللفظية .
والمعروف ان الطبعة الحادية عشرة من Encyclopaedia britannica كانت قد صدرت في عام ١٩٢٢ وتلتها الطبعة الثانية عشرة في عـــام ١٩٢٢.

الأخرى الاكثر دقة وتحديدا،وهذه مسألة مهمة خاصة وان بعض العلماء مازال ينظر الى اللغة هذه النظرة القديمة حتى بالرغم من استعانتهم بعلم الاجتماع، ولقد عبر سابير عن ذلك بقوله ان اللغة من حيث البناء هى قالب للفكر أولا وأخيرا ٠

وقد لايكون هنا مجال الحديث عن تلك الفوارق الدقيقة التى يقيمها الانثربولوجيون بصفة خاصة بين معانى بعض الكلمات والمفهومات مثل كلمة "استخدام" use و" الوظيفة" function و" الغرض" purpose نظرا لامكان أن يقول المرء مايريد قوله باحداها عن طريق استخدامه لكلمة أخرى أوللكلمتين الأخريين، ومع ذلك فان الشيء المهم هو أن هناك كثيرون يعززون ذلك الموقف الذى تعكسه النظريةالكلاسيكية التى أشرنا اليها ويقف على رأس هوؤلاء جيفونز Jevons الذى ذهب الى ان اللغة تؤدى ثلاثة أغراض رئيسية هى:(١)

اولا : انها وسيلة للتوصيل ٠

ثانيا : انها عون على التفكير٠

ثالثا : انهاوسيلة للتسجيل والرجوع الى مايسجل ٠ كماقرر أيضا إن اللغة فى نشأتها الاولى كانت تستخدم فى الغرض الأول على وجه الخصوص،إن لم يكن استخدامها كله لهذا الغرض وحده٠

ولو أمعنا النظر فى تلك الصياغة التى ذهب اليها جيفونز فسوف نلحظ على الفور انطوائها على شيءمن المغالطة ذلك ان الاستخدام الثالث للغة الذى قال به لايعدو أن يكون تخريجا من الاستعمال الاول ، وذلك لانه عندما يسجل الانسان مذكرة ما عن شيء ليرجع اليه فيما بعد ومن ثم يستحضر فى ذهنه أفكاره السابقة فإن هذا الأمر لايختلف فى جوهره عن الغاية أو الغرض الأول للغة اذ من الواضح ان الانسان عندما يقرأ مذكراته الماضية يكون هو نفسه ويكون شخصا آخر فى وقت واحد، بمعنى إنه عندما يقرأ المرء مذكراته فلابد من قيام نوع أو آخر من التوصيل ٠

Jevon. Elementary lessons of logic,p.287. (١)

والواقع انه قد وجهت الى نظرية جيفونز العديد من الانتقادات من اكثر من زاوية • فقد قرر يسبرسن مثلا انه لايستطيع أن يتتبع أو يقتنع بقول جيفونز ان اللغة فى نشأتها الاولى كانت تستعمل فى الغرض الاول أى كوسيلة للتوصيل على وجه الخصوص (١) ، ذلك لان حصر الانتباه فى مثل هذا النطاق الضيق الذى يعتبر اللغة ووظيفتها امرا عقليا بوصفها وسيلة توصيل الفكر لن يؤدى مطلقا الى فهم طبيعتها الذاتية فهما تاما •

أما فيما يتعلق بالقول بأن غرض اللغة انها عون آلى على التفكير فان ذلك بدوره مما لايمكن التسليم به بشكل مطلق • فصحيح ان امتلاك ناصية لغة من اللغات مما يساعد على التفكير الانسانى مساعدة جوهرية وحقيقية • ولكن الصحيح ايضا على مايقرر يسبرسن ان اللغة التقليدية كثيرا ما مثلت عقبة فى وجه كثير من المفكرين وقامت فى وجه التأمل والرغبة فى الغوص فى اعماق مايعترضهم من مسائل ومشكلات • فاللغة بمفرداتها المحدودة وبصيغها الجامدة والثابتة قد أكرهت الفكر على ان يسير فى طرقات وفى سبل تقليدية مطروقة مما اضطر العلماء الى متابعة الخطوات القديمة حتى انتهى الامر الى ان يكونوا أقرب فى تفكيرهم من اسلافهم•

والحقيقة إننا لانجادل فى أن هناك صلة وثيقة بين الفكر واللغة وذلك على اعتبار ان اللغة من غير شك تعتبر أهم وسيلة يمكن بها التعبير عن الفكر ، ولكن هذا كله لايعنى فى رأى فيلسوف كبير من هوايتهد Whitehead ان اللغة هى جوهر الفكر وماهيته ، فكثيرا ماتقصر اللغة عن التعبير عن الافكار

---

(١) ممن ذهبوا هذا المذهب الفيلسوف الانجليزى جون لوك Locke حيث قرر ان أمن المجتمع وطمأنينته وخيره ما كانت لتتحقق لو لم يكن هناك توصيل للفكر • فقد كان من الضرورى ان يعثر الانسان على اشارات خارجية دالة يتم عن طريقها نقل افكاره الخاصة الى الآخرين •

انظر: Locke.J., Essay concerning haman understanding Bk(111), ch.ii, sec1.

من ناحية وعن العواطف والانفعالات من ناحية ثانية • ومن هنا فلم تكـــن اللغة بالمعنى الدقيق للكلمة أو لغة الكلام هى اللغة الوحيدة التى عرفها الانسان وانما إلى جانب ذلك كانت هناك لغات أخرى غير كلامية استخدمت أيضا للتعبيـــر والتوصيل (١) ، فقد يستغنى الانسان عن استخدام الكلمات والالفاظ عندما يفكـر فى حل مشكلة أو مسألة رياضية معقدة على سبيل المثال • بمعنى ان التفكير أو التفكير عن طريق الالفاظ verbal thinking لايلعب سوى دور ثانوى عنـــد علماء الرياضـــة •

وقد يحدث نفس الشىء فى فروع أخرى من فروع العلم • فليس التفكيـــر فى كل الأحوال مرادفا للغة • ولو كان كل تفكير منحصرا فى اللغة والكلام والالفاظ ومرتبطا بها ارتباطا عضويا لما صح أن تدخل أينشتاين مثلا فى عداد المفكريـــن • بل وكما يذهب وودورث Woodworth اننا كثيرا مانحتاج الى الابتعاد عـن لكلام حتى نستطيع التفكير بوضوح • وكما يقول العلماء انفسهم انهم لكى يتمكنـــوا من الابداع والخلق فلابد لهم من آن لآخر أن يرتدوا من الكلمة إلى الصورة ومـــن الرمزية اللفظية الى الرمزية البصرية visual symbolism التـــى تعتبر وسيلة للتفكير أقدم من التفكير اللفظى أو الكلامى على مايقول كيسلر •

(٢)

يتفق العلماء المحدثون على أن أية دراسة علمية للغة والاتصال الكلامـــى تتطلب أساسا نظرية يظهر فيها الفعل الحاسم لكافة العوامل الاجتماعية والثقافيـــة المؤثرة •

ولقد أدرك مالينوفسكى Malinowski منذ وقت طويـــــل أهمية هذه الحقيقة وكان ذلك عندما أكد أن المعضلة الحقيقية التى تواجه اللغوييـن

---

(١) Whitehead, A.N., Adventures of Ideas. the Macmillan Co., N.Y. 1933. ch. 15, sec. 8. p, 291.

تتمثل فى تركيزهم الزائدعلى الكلمات • كما اعتبر اللغويون البنائيون أن مثل هذه الدراسة ليست شيئا ضروريافحسب ولكنها مسألة حيوية • والسؤال الذى يطرحه مالينوفسكى هو : إذا كانت الوظيفة الرئيسية للكلام هى توجيه وارشاد العمل الجماعى أو النشاط الانسانى فكيف إذن نفصل ذلك عن سياقات مختلف المواقف وماتعكسه من مغزى ودلالات ؟

الحقيقة أن هذا الموقف قدأدى إلى مزيدمن البحث الاجتماعى فى اللغة والى معالجة اللغويات على أنها فرع من فروع علم الثقافة العام أو بمعنى أدق على أنها فرع من الانثروبولجيا الثقافية وأصبح يطلق عليه الانثروبولوجيا اللغوية•

وقد وجدمالينوفسكى (١) نفسه غارقافى الدراسات اللغوية نتيجة إيمانه بانطكى نصل إلى ماوراء ظاهر الاشخاص فلابدمن التعرف بشكل كامل على لغاتهم

---

(١) المعروف ان مالينوفسكى اسهم بمناقشاته الجادة فى بلورة مايعرف بنظرية السياق التى يقصد بها عموما أن اللغة نشاط اجتماعى ومن ثم فلا يكون للكلمة أى معنى إذا عزلت عن هذا السياق أو عن هذا النشاط الذى القيت فيه وكان هو نفسهوراء التفوه بها • وفى هذا يقرر مالينوفسكى ان اية جملة معا ينطق الافراد فى مواقف الحياة الواقعية لايمكن عزلها أو نزعها من الموقف الذى قيلت فيه• وذلك لان كل عبارة من العبارات التى يتم تبادلهافى مواقف الحياة اليومية العادية تنطوى على غاية ووظيفة محددتين هما التعبير عن بعض الافكار أو المشاعر التى يشعرها الانسان فى اللحظة التى يتم فيها التعبير اى ارتباطا بهذا السياق الموقفى نفسهوهو تعبير كان من الضرورى ان يتم لاجل تحقيق عمل من الاعمال التى تهم الجماعة، ولاجل خلق الروابط الاجتماعية أو حتى لاثارة الانفعال وبعض المشاعر العميقة لغاية من الغايات•
والواقع انه بدون مثل هذه الدوافع الآنية التى ترتبط بالمواقف يصعب أن يكون هناك مايمكن قوله أو تقريره • وعلى ذلك فانصيدو بوضوح ان كلا من الموقف والنطق أو الكلام يرتبطان ارتباطا وثيقا ولا فكاك من أن يؤخذ فى الاعتبار لكى نفهم معانى الكلمات•
انظر فى ذلك - Malinowski, B., "the problem of meaning in primitive languages" supplement 1 in C.K.Ogden and 1.A.Richards the Meaning of Meaning, 3rd edn, Routledge & Kegan Paul London. 1930.p.307.

فليس يكفى أبدا أن تكون لدينا معرفة ببعض الكلمات من اللغة السواحيلية على سبيل المثال وانما معرفة تامة بالظروف الاجتماعية المختلفة التى تستخدم فيها هذه الكلمات والكيفية التى تتغير بها معانيها بتغاير المواقف والاشخاص ، وهو الاتجاه نفسه الذى وضح عند فيرث Firth الذى اهتم بالاثنوجرافيا وأدرك مدى توقف معانى الكلمات على المواقف التى تلقى فيها •

والواقع ان هناك الكثير من الشواهد التى تؤكد ذلك فى كثير من الصور التى تستعمل فيها اللغة فيما يعرف بالسلوك الجماعى• فهنا لانجد نقلا أو توصيلا للافكار • ولعل أفضل مثال لذلك هو مانجده فى لغة الطقوس والشعائر الدينية كالصلاة والدعاء، فهذا السلوك الكلامى أبعد من أن يكون نقلا للفكر أو تعبيرا عن آراء يراد توضيحها أو العمل على إفهامها ، وانما هو جزء من الصلاة ذاتها التى لاتتم إلا بهذا الكلام الذى يؤدى فى نسق معين من الحركات • أى أن وظيفته هنا مثل وظيفة حركات الجسم تقوم فى انها عنصر من بين عدة عناصر تهدف الى القيام بالفعل ذاته وتحقيقها قصد فعل العبادة ذاتها •

كذلك نجد أحيانا ان السلوك الكلامى أو الكلام كثيرا مايكون غاية فى ذاته ، ولاتكاد تختلف فى هذا الجماعات المتأخرة أو المتقدمة بالنظر الى حاجة كل كائن بشرى الى العيش مع سواه ونفوره من الوحدة والبقاء بمفرده والكلام هو بالتأكيد أقرب مستلزمات هذه الحاجة كوسيلة للتشارك وخلق الروابط الاجتماعية وتقويتها • أو ما أطلق عليه المخالطة المتآلفة phatic communion (١) •

ولقد أكد مالينوفسكى هذه الوظيفة بقوله إن الكلام هو الوسيلة اللازمة للتشارك باعتباره الآلة الفريدة التى لاغنى عنها لخلق الروابط والعلاقات وهى الروابط التى يستحيل بدونها قيام أو إنجاز العمل الاجتماعى الموحد•

---

(١) يقصد مالينوفسكى بهذا التعبير نمطا من الكلام تتخلق فيه الروابط والعلاقات من مجرد تبادل الكلمات (والدردشات) غير المقصودة والعابرة• (انظر : Malinowski, B., op.cit. 315.

والواقع إنه يقترب من هذا مظهر آخر من مظاهر السلوك الكلامى الذى نتحدث عنه. فالحديث العابر بين الناس عن (الطقس) مثلا أو (الأحوال) عادة مايكون الغرض منه أبعدمن نقل الافكار أو المعلومات . فالأوصاف التى تجرى بها ألسنة المتحدثين شائعة وملموسة وتكادتكون محفوظة ومتوارثة وانما الغاية هى التآلف والتعاطف فحسب وتقضية الوقت. والأغلب فى ذلك ان ينقطع الحديث أو ينتقل إلى موضوعات أخرى وقدأصبح المتحدثون فى ألفة من مجرد متعة الكلام والاستماع.

كذلك فإن الكثير من مظاهر اللغة تبدو كأن الغرض منها أن تسلك الناس فى علاقة اجتماعية معينة . ومثال ذلك كلمات وعبارات التحية المألوفة والتى تجرى على نمط أو فى قوالب اجتماعية متعارف عليها مثل (صباح الخير) و (كيف الاحوال) و (شرفتنا) و (السلام عليكم) و (أهلا) وما إلى ذلك وكلها تتضمن نوعا من الالزام الاجتماعى أو الواجب الاجتماعى الذى لامفر من أدائه والقيام به. كما أن التفريط فى ذلك من الناحية الأخرى سوف يقابل من الآخرين بمظاهر الاستياء وعدم الرضا ، وقديصل الأمر أحيانا إلى جفاء وتوتر فى العلاقات الاجتماعية وربما إلى القطيعة والعداوات.

ومثل ذلك كله لغة التأدب فى الجماعات الكلامية المختلفة حيث لايكون الهدف هنا نقل أفكار أو أحاسيس أو معلومات ولكن توثيق العلاقات بين الافراد والجماعات، اضافة الى انها تشير فى الوقت نفسه وان يكن بطريقة غير مباشرة إلى المركز الاجتماعى والطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها الافراد من حيث ان كلمات بذاتها تكون اكثر انتشارا فى طبقات أو جماعات بذاتها .

وأخيرا فان من الوظائف التى تؤديها اللغة وليس لها شأن بتوصيل الفكر أو التعبير عنه انها كثيرا ما تتخذ كوسيلة للعب بالأصوات والى الشعور بالنشوة والمتعة والسرور . وقدنلاحظ أحيانافى أنفسنا أننا نردد أصواتا أو كلمات دون أن نقصد بذلك إلا المتعة والسرور من سماع أصواتها وحتى ان لم يكن هنالك

مايستحق السماع (١) . ويذكر يسبرسن ان مدام دى ستايل De Stael قدعبرت عن هذه الحقيقة تعبيرا دقيقا عندما قالت ان اللغة الفرنسية لاتعتبر كما هى عندالغير مجرد وسيلة لتوصيل أفكارناولكنها آلة يحب الانسان أن يعزف عليها فهى تحرك النفوس مثلما تفعل الموسيقى عندبعض الاقوام.

(٣)

ينقلنا هذا الحديث إلى تناول بعض الوظائف الأخرى للغة ولكن من زاويتين أخريين هما أولا ، من حيث ان اللغة تعتبر مميزافرديا وثانيا من حيث كونها مميز طبقى كذلك.

اولا : اللغة كعلامة ومميز فردى :

من الملاحظ ان الأصوات الطبيعية للافراد تختلف فيمابينها اختلافا بينا . ويذهب علماء الاجتماع اللغوى إلى أن هذا الاختلاف يميز بين فرد وآخر وحتى بين الجماعة والأخرى ، بل انميميز كذلك مابين الذكور والاناث. فما يكاد الانسان يسمع(صوتا) حتى يعرف انه (فلان) وكأننا نميز الشخص بصوته الطبيعى(حسه) فنعرف ان فلانا هو فلان بمجرد سماع صوته وبدون أن نرى شخصه . والصوت الطبيعى بهذا الاعتبار يكون له وظيفة من حيث انه يكاد يكون متوحدا بالجسم. وكما تتمايز الافراد فى الطول والقصر مثلا أو فى البياض والسمرة. فانهم يتمايزون كذلك صوتا وحسا .

ومع أن هذا التمايز الصوتى يرجع فى بعض الاحيان إلى عوامل وأسباب عضوية هى التى تكسب الصوت صفته الخاصة المميزة الا ان الحال لايكون كذلك

---

(١) يصف البعض هذه الناحية بأن الانسان يجد متعة فى سماعصوته وهو يتكلم ويصل بذلك الى القول بوجود ما أسماشهوة الكلام التى تتمكن من البعض . اما فى مظهرها العادى فسماع الانسان لصوته هو وسيلة للتسلية ونوعمن اللعب باللسان الذى يثير المتعة ولذا فيقال احياناخير لعب الانسان لسانه .

دائما بمعنى أن الصوت الطبيعى هو فى الواقع خاصية ليس للأفراد أى دخـــــل فيها إذ أنهم يولدون بها ومن ثم فهى فطرية وليست مكتسبة.

والواقع ان هذه المسألة ترتبط ارتباطا وثيقا بحياة الافرادفالاصـــــوات الطبيعية من العوامل الهامة التى تكيف المواقف التى يتخذها أصحابها والتـــــى يتخذها الآخرون تجاههم. فقد يكون الصوت أجشا مثلا أو فيه مايدعو الـــــى السخرية ، أو قد يكون (رائقا) ومثيرا للاعجاب وفى كلتا الحالتين يختلف الأمر بالنسبة إلى السامعين وبالنسبة أيضا لصاحب الصوت فقدينفر الناس من صاحـــــب الصوت الاول ويبتعدون عنه مما يثر مشاعر الألم والانطواء والابتعاد والعزلـــة ، وقد يقبل الناس على صاحب الصوت الثانى مما قديفتح أمامه فرصا أوسع للتعـــارف والعمل والعيش فى الحياة.

ومن الناحية الأخرى أيضا فان للصوت الطبيعى وظيفته كذلك فى التربيـــة الاجتماعية ، فنجدفى بعض الأصوات مايدفع إلى التقدير والاحترام وكأنما الصـــوت نفسه يقوم بتحديد علامات لمظاهر السلوك التى لاينبغى الخروج عليها . وبالقيـــاس نفسه يمكن القول بأن هذه الخاصية مما يتوافر لدى القادة والزعماء الأمر الـــذى يساعد كثيرا على نجاح العمل الجماعى وتقدمه.

وكما أن الصوت الطبيعى يعتبر من المميزات الفردية كذلك تعتبـــر (اللازمة) اللغوية collocation التى تقوم كسمة مميزة ودلالة عليه، وهذه بدورها تلعب ــ كما يذهب فيرث ــ نفس الدور الاجتماعى الذى يقوم بـــه الصوت فى تكيف العلاقات بالمجتمع الذى يعيش المرء فيه.

ثانيا : اللغة والطبقة الاجتماعيـــة :

يشيع الاعتقاد بأن اللغة تعمل كعلامة طبيعية يمكن بواسطتها التمييـــز بين جماعات المتكلمين ، أى انها تقوم بمثابة مميز طبقى نستطيع بواسطتـــــه لا التمييز بين الأفراد بعضهم وبعض فحسب ، ولكن أيضا بين الطبقات الاجتماعية المختلفة بعضها وبعض وبالتالى تحديد المكانة الاجتماعية التى يحتلها الافراد بالنظر

الى انتماءاتهم الطبقية. وربما كان أوضح مثال لذلك هو ان لغة المتكلمين تختلف عندالمثقفين مثلا عن لغة الأميين ، وأن المتعلمين تختلف لغتهم فيما بينهم باختلاف مستوياتهم التعليمية وباختلاف تنوع ثقافاتهم وعمقها . فما يكاد المرء يسمع حديث فردمن أولئك أو هؤلاء حتى يتبين على الفور مدى التمايز فى لغتهم وهو مايطلق عليه بوجه عام اللهجات الطبقية أو لهجة الطبقة بتعبير آخر class dialect . وهذا مانرجو أن يتضح على أى الأحوال عندما نتناول هذا الموضوعبالتفصيل فيما بعد.

وعلى العموم فانه يرتبط بكل ماسبق ناحية تعتبر من أمتع نواحى الدراسة الاجتماعية للغة هى مايعرف بالكلام المحظور والكلام اللائق،فمامن مجتمع من المجتمعات الانسانية إلا ويعرف بدرجة أو بأخرى هذه الظاهرة التى تحرم بعض الموضوعات وتمنع تداول بعض العبارات والكلمات المرتبطة بهذه الموضوعات وهو مايطلق عليه ظاهرة التابو taboo أو الكلام المحرم المحظور تداوله ، وان كنا نجدفى بعض الاحيان ان الجماعة قدتلجأ إلى التحايل على هذا التجنب فتسمحباستخدام بعض الالفاظ البديلة كقناع يخفى من ورائه اللفظ أو المعنى الاصلى الممنوع استخدامه.

ومن الصعب فى الحقيقة تفسير الدوافع والأسباب التى تدفع إلى وجود هذه الظاهرة ، ولكن الملاحظ أنها موجودة فى كل المجتمعات بصرفالنظر عن درجة تحضرها أو تأخرها ، ومن هذه الناحية فهى تعتبرظاهرة انسانية عامة يرجعها البعض إلى الظروف الثقافية المتوارثة والى العوامل التراثية القديمة والتى مازالت لها بعض التأثير إلى الآن ومنثم بقيت تمارس فعلها فى الظروف الحالية للمجتمعات.

وهناك العديد من الامثلة التى توضح هذه الناحية . فكثير من الشعوب تكاد لاتذكر كلمة (الموت) صراحة أو هى على الاقل تتحرز عند ذكرها وتكتفى بالتلفظ بمايشير أو يدل على ذلك ضمنيا . فنسمع كلمات مثل (توفى إلى رحمة الله) أو كلمة (اللهيرحمه) أو كلمة (تعيش انت) أو كلمة (افتكرلك طول العمر)

أو (البقية فى حياتك) وما إلى ذلك ٠

وقد نرى الظاهرة ذاتها فيما يجرى على الألسنة فى بعض الظروف الخاصة حيث تتردد فى أفواه الامهات كلمات (اسم الله عليك حارسك وصاينك) أو (وقعت على أختك أحسن منك) أو (اللهم احفظنا) أو (اللهم اجعل كلامنا خفيف عليهم) لندرك فى كل هذا بقايا المعتقدات المرتبطة بالخوف من الشر والضرر ومثله الخوف من الجن والارواح والشياطين ٠

إن مقاييس اللياقة أو عدم اللياقة مسألة نسبية تختلف باختلاف المجتمعات وأيضا باختلاف المناطق والثقافات الفرعية واللهجات ٠ الا ان هناك من غير شك العديدمن العوامل التى تتدخل فى تحديدها مثل السن والجنس والظروف التى قد يسمح أو لايسمح فيها بمثل هذا الكلام ٠ ونقصد بذلك إنه قد يسمح للرجال بقول أو نطق مالو نطقت به النساء لكان أمرا غير لائق ، كما قد يؤذن للنساء بنطق مالو نطقه الرجال اعتبر أمرا شائنا ٠

ومع أن معايير اللياقة فى المجتمع الكلامى تعتبر مسألة معقدة كما أشرنا إلى ذلك إلا أن هذا لايمنع القول بأنها متغيرة بطبيعة الحال فما قد يكون غير لائق فى مجتمع من المجتمعات أو فى عصر من العصور قديصبح لائقا أو مسموحا بالتلفظ به فى مجتمع آخر أو فى عصر آخر ، ويشير الى ذلك بوضوح تلك المراحل الانتقالية فى حياة بعض المجتمعات التى يحدث فيها الاختلاط بين الجنسين،فهنا قديصير بعض الكلام غير اللائق فى المرحلة الاولى لائقا بعدما يصبح اختلاط الرجال والنساء أمرا اجتماعياواقعا ، وكله يعنى ان للشعور الاجتماعى والثقافى دوره البارز فى تحديد هذه المسائل والتغيراتالتى تلحقها ومن ثم لايجب التغافل عنها عند دراستها وبحثها ٠

الفصل العاشر

اللغة والحضـــارة والفكـــر

يعتبر موضوع اللغة وارتباطها بالفكر وبالحضارة من أكثر الموضوعات طرافة وفي الوقت نفسه صعوبة ومشقة • ولكنها في كل الاحوال من أقربها إلى نفـــس الانسان، باعتبار انه يمس الطبيعة الانسانية وكيان الانسان ذاته بطريقة مباشـــرة طالما انه الكائن الوحيد الذي يتمتع بالقدرة على التفكير المنظم من ناحية ، ولأن قصة الحضارة الانسانية لاتنعكس في شيء مثلما تنعكس في اللغة الانسانية مـــن ناحية ثانية ، وذلك الى الحد الذي دفع ببعض العلماء إلى أن يقولوا بأن كـــل ماقد يظهر من قصور في مجتمع من المجتمعات هو دليل قاطع على مدى تخلف هذا المجتمع في ركب الحضارة ، وذلك أن الخبرة الانسانية المتراكمة تنعكس في اللغـــة وتجد تعبيرها فيها سواء كان هذا التعبير في شكل الكلام العادي أو في شكـــل الكتابة المعروفة أو غير ذلك من الرسومات أو النقوشات مادامت كلها تترجم في آخـــر الأمر إلى ألفاظ وتصورات ومفهومات ، ومادامت تعبر عما تنطوي عليه ومايقصد بهـــا من أفكار ومشاعروتنقلها إلى الآخرين •

(١)

والواقع ان هذه العلاقة بين المفهومات الثلاثة (اللغة والحضارة والفكر) لم تعد في ذاتها في حاجة إلى تأكيد ، فهذه مسألة مقطوع فيها منذ وقت بعيـــد حتى اننا نجد بعض العلماء مثل العالم البريطاني جوليان هكسلي Huxely يضع اللغة والفكر كخاصيتين مميزتين للانسان ، في مرتبة أعلى من الخصائـــص البيولوجية ذاتها كالقدرة على التناسل والانجاب وما الى ذلك• كما ان علماء الاجتماع أنفسهم وغيرهم من المشتغلين بالعلوم والدراسات الانسانية بعامة يعطون اللغـــة أولوية مطلقة على كثير من الملامحوالخصائص الثقافية الأخرى التي تميز بها الانســـان مثل الفن والعلم والدين وغير ذلك مما لانجده إلا في هذا الكائن البشري الفريد•

ولكن إذا كانت مسألة علاقة اللغة بالفكر والحضارة من المسائل المقطـــوع

بها كما قلنا فان طبيعة هذه العلاقة ذاتها هى التى مازالت تثير النقاش بين العلماء وهو نقاش يصعب القول بأن له جانب واحد أو زاوية واحدة وانما تتشعب فيه الجوانب وتتعدد الزوايا • وربما كان ذلك شيئا طبيعيا إذا ما اعتبرنا طبيعة الظاهرة محور النقاش وهى طبيعة متعددة الجوانب كما أشرنا فى أكثر من مكان • وان كان بمقدورنا على أى الأحوال إجمال ذلك كله فى بضعة نقاط، أو بالاصح ، بضعة تساؤلات نعتقد انها هى التى مازالت تمثل جوهر النقاش باكمله•
وعلى قمة هذه التساؤلات : أيهما ـ وذلك من ناحية ـ أسبق فى الوجود اللغة أم الفكر ؟ ومن الناحية الثانية أيضا ، ما مدى ارتباط التفكير بلغة الكلام أو بالأحرى الكلمات المنطوقة طالما أن هناك صور أخرى وأساليب أخرى للتفكير لاتعتمدعلى اللغة بالمعنى الاصطلاحى •
ماذا أيضا عن أنماط الفكر وأنماط اللغة عند الانسان ؟ وماذا عن قدرة هذا المخلوق على صياغة التصورات وعمل الرموز والتجريدات ؟ وماهو الدور الذى يقوم به الفكر واللغة فى الثقافة بوجه عام؟

وليس من شك فى أننا قد عرضنا من قبل إلى بعض جوانب هذه المسائل المتشعبة جميعها ، ولكن الذى يعنينا الآن هو التركيز على ناحية أساسية بعينها نعتقد انها سوف تقود إلى حد بعيد خطونا نحو الاجابة على هذه التساؤلات • ونقصد بذلك : تلك الصلة الوثيقة التى نجدها بين القدرة أو القابلية والاستعداد للتكلم والقدرة على عمل التصورات فالطفل يتعلم منذ أول مايتعلم المهارات التى ترتبط بالناحيتين معا فى وقت واحد•

بيد أن هذا ليس معناه بأى حال اننانقصد إلى القول بأن التفكير ليس اكثر من نطق أو كلام جانبى أو فرعى كما قرر ذلك كثير من السلوكيين • فمن المعروف تماما ان بعض الناس أكثر قدرة على التفكير المنظم من غيرهم كما أن الكثيرين لايستطيعون التفكير فى ذاته ولكنهم يصحبونه دائما بالاصوات الملفوظة ذلك فى الوقت الذى قديستجيب البعض الآخر للمؤثرات الخارجية بطريقة مفكرة دون ما تخرج من شفاهم كلمة واحدة أو صوتا واحدا • وان كان من الممكن القول مع ذلك كله انه مع استمرار التطور العقلى بدأ الانسان يمتلك بالفعل ناصية اللغة

فى الوقت الذى كانت تنمو وتتطور قدراته أيضا على صياغة مزيد من التصورات وعمل مزيدمن التجريدات والرموز التى أصبح يستخدمها بمهارة على الرغم حتى من حقيقة اختلاف الثقافات واختلاف الأزمنة التى تنتمى اليها هذه الثقافات ٠ فقد كان على الانسان دائما أن يتعامل مع بيئته الواقعية التى يعيش فيهاوهى بيئة كانت افكارهوتصوراته وعاداته اللغوية تتدخل فى صياغتها وتشكيلها الى أبعد الحدود٠٠

وقد يكون كل هذا قدتم فى مرحلة سابقة غارقة فى القدم أثناء مسيرة الانسان الطويلة٠ ولكن المهم انها تنبىء عن شيئين أولهما أن اللغة هى ـ كما قلنا ـ ظاهرة قديمة قدم الانسان نفسه٠ وثانيهما ان الادعاء بوجود لغات بدائية ولا تقدرعلى عمل التصورات أو أنها كانت تفتقر إلى هذه القدرة يصبح إذن إدعاءً غير صحيح وكل مايصح قوله بهذا الصدد هو ان اللغات تختلف فيما بينهاوانه بسبب ذلك ـ ولو جزئيا ـ نجد العالم يختلف فى أعين الافراد الذين يتكلمون لغات مختلفة٠ وان كان تقريرنا للقضية على هذا النحو لايمنع فى الوقت نفسه من القول بأنه فى بعض الأحيان نجحت بعض القدرات اللغوية فى تطوير نفسها من خلال أنماط فكر محددة يمكن الوقوف على ملامحها عبر التاريخ اللغوى للانسان ٠

والواقع اننا لو نظرنا إلى الحضارة الاغريقية على سبيل المثال فقد يكون من السهل التعرف على مثل هذه الوضعية إذاما دققنا فى الازدهار المذهل الذى استطاعت هذه الحضارة أن تنجزه ٠ فمع انبثاق العديد من المفهومات والتصورات وبلورة الطابع الاغريقى فى التفكير خضعت الكلمات والمفردات لكثير من التغيرات فى دلالتها ومعانيها ٠ كما كان ذلك دافعا فى الوقت نفسه إلى(نحت) وابتكار كلمات وألفاظ جديدة بالمرة للتعامل مع الرؤية الجديدة للعالم وللكون فى ضوء ماحددته هذه المفهومات والتصورات من علاقات بين الواقع والمثال ٠

وهذا المثال السابق يمكن أن نجدنظيره أو مايشابهه فى عصر اكثر حداثة هو عصر التقدم العلمى والتكنولوجى الذى ولجته المدنية مؤخرا ٠ فقد كان من الضرورى أن تدخل كلمات جديدة وأن تغير معانى قائمة فى ضوء ماطرأ على

الكلمات القائمة من تحويرات أو تغييرات ليساير كله فى آخر الأمر مظاهر هـــذا التقدم العلمى الذى أصبح طابع العصر الحديث.

ويترتب عليه إحدى النتائج الاساسية وهى ان البناء المعجمى ـ لأيــة لغة من اللغات مما يلقى بالضوء كثيرا على طبيعة العلاقات بين التصورات التـــى يبتكرها الانسان بل والجوانب المختلفة لهذه القدرة على عمل التصورات وصياغتها. ويبدو لنا فى هذا الصدد أن العلاقات المكانية بصفة خاصة كان لها دور كبير فـــى صياغة محتوى الكلمات والمفردات. وكذلك الحال بالنسبة إلى الالفاظ التى تشيـــر إلى الزمان التى يمكن النظر اليها على انها قداستخرجت بشكل مجازى من الالفاظ ذات الدلالة المكانية فنجد على سبيل المثال ذلك التقابل فى اللفظ بين الوقـــت الطويل والوقت القصير أو حتى ونحن نعبر عن بعض تصوراتنا للمستقبل فنقـــول المستقبل القريب أو المستقبل البعيد.

كذلك تظهر الدلالة المكانية فى التعبير عن بعض العلاقات الاكثر تجريدا حيث كثيرا ما تقوله " درجة حرارة عالية أو مرتفعة " أو ان هذا من نوعيـــــة " منخفضة". وربما كان أوضح من ذلك القول بأنها صداقة" بعيدة" أو انهـــا جد " قريبة".

ويكون من المنطقى فى ضوء كل هذا انيصعب التسليم إذن بما ذهـــب اليه البعض ممن وحدوا بين اللغة وبين الفكر على نحو مانجد عن واطسن علـــى سبيل المثال الذى قرر ان الفكر ليس شيئا من الكلام الذى بقى وراء الصـــوت ، أى انه كلام حلقى لاكلام صوتى. ذلك فى الوقت الذى ذهب كارول إلى أنه مـــن الخطأ الاقدام على مثل هذا التوحيد بين اللغة والفكر والنظر إليها على انهمـــا معا يكونان ثنائيا لايمكن فصله ولكن الافضل القول بأن اللغة هى أحد الأساليـب أو الانماط الانسانية للفكر وأن الكلام أحد نتائجه.

(٢)

إلا انهيمكن أيضا بحث العلاقة بين اللغة والفكر ولكن من زاوية أخـــرى

فتساءل عما عساه يحدث لو أن لغات البشر قد اختفت وزالت من الوجود ؟ ومع أنه قد يصعب تصور شيء مثل هذا وبالتالى تصور نتائجه إلا أن المؤكد هو أن كافة المظاهر الحضارية التى نجح الانسان فى التوصل اليها خلال تاريخه الطويل لابد ستختفى وتزول •

ومع صعوبة تقدير الدور الذى تلعبه اللغة فى سلوكنا الاجتماعى حق التقدير فإن المتفق عليهبوجه عام هو أنه لولا اللغة لما كانت هناك كتابة أو أية وسيلة منهجية ومنظمة ومستمرة للتفاهم والاتصال ونقل الافكار المجردة بمثل هذه الدقة • وهذا من شأنه أن يضع قيودا شديدة على امكانيات التعلم مما يضطرنا فى آخر الأمر إلى التعلم عن طريق التجربة والخطأ والصواب وعن طريق ملاحظة سلوك الآخرين وأفعالهم ومحاكاتها تماما مثلما تفعل الحيوانات الأخرى • وسوف يترتب على ذلك بالضرورة اختفاء التاريخ الانسانى كله إذ لن تكون هناك وسيلة دقيقة ومختصرة لتسجيل الاحداث وروايتهاوتناقلها عبر الزمن • بل لن تكون هناك وسيلة لاحياء الماضى واعادة التجارب القديمة وتوصيلها إلى الآخرين فضلا عن نقل أفكارنا الخاصة وآرائنا الذاتية • بل ومن المحتمل أيضا أن نعجز حتى عن التفكير بالمرة وذلك لو قلنا بمايقوله علماء النفس من ارتباط الفكر ذاته باللغة ، وأن عملية التفكير هى فى جوهرها نوعمن الحديث إلى النفس أو الذات • كما سوف يختفى من المجتمع،كما يؤكد بعض الاجتماعيين،كل مظهر للعمل التعاونى مهما كان بسيطا إذ لن تكون هناك عندئذ وسيلة لوضع خطة لمثل هذا العمل وشرحها أو نقلها للآخرين • ولعل الأهم من ذلك كله هو أن المجتمع بغير اللغة لن تكون لديهوسيلة لضمان استمرار السلوك الاجتماعى الذى لقن مع التعليم،خلق الثقافة والحضارة وهذا كله معناه أن المجتمع الانسانى سوف يكون أشبه بمجتمعات القردة العليا التى تعجز عن الوصول إلى المستوى الذى وصل إليه الانسان لافتقارها للغة والحضارة •

ولقد ذهب هوايتهد Whitehead إلى التعبير عن ذلك كله بقوله إن هناك مايسمى حضارة اللغة ، بمعنى انه يسلم منذ البداية بأن ثمة حضارة معينة هى حضارتنا الانسانية التى يرتبط وجودها ارتباطا وثيقا

باللغة بحيث يمكن القول بأنه لولا وجوداللغة لما قامت الحضارة ولظهـــــرت حضارة أخرى من نوع مختلف عن حضارتنا المعروفة . فالجنس البشرى يمتاز عـــن بقية الكائنات العضوية بما فيها القردة العليا بالفكر واللغة. وعلى ذلك فـــان دراسة اللغة باعتبارها عاملا من عوامل الحضارة ومحاولة التعرف على خصائص تلـك الحضارة سوف يستدعى التعرض لكثير من الامور المعقدة والمتخصصة مثل نشـأة الاتصال فى المجتمع الانسانى والتعرف على وظائف اللغة وعلاقتها بالثقافة وغيـــر ذلك من الموضوعات التى لم يصل العلماء فيها حتى الآن إلى آراء قاطعة.

ولعل أول مايمكن تقريره عن اللغة هو عموميتهاوانتشارها فى كـــل المجتمعات الانسانية المعروفة فى مختلف مراحل التطور والتاريخ. واذا كان هنـاك شك فى وجودبعض الظواهر الاجتماعية كالاسرة مثلا أو حتى الدين عند بعـــض الشعوب البدائية التى تحتل مكانة دنيافى السلم التطورى وهو اعتقاد خاطىء فـــى ذاته ، فليس هناك أى دليل قاطع على وجود جماعة انسانية واحدة مهما كانـــت من التأخر لاتعرف اللغة فى صورتها الكلامية على الأقل . فالبوشمان وهم من أشـد الشعوب تأخرا وتخلفا يستخدمون فى حديثهم لغة على قدر من الرمزية لاتقل كمـا يقول سابير عن رمزية اللغة التى يستخدمها الرجل الفرنسى المثقف.

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو : هل كانت اللغة إذن إحـــدى الخصائص الأساسية المميزة للانسان منذ أقدم مراحل التطور؟ بمعنى هل كانـــت موجودة حتى عندالآدميات االمبكرة مثل انسان كرومانيون Cromagnon مثلا .

المعروف أن بعض هذه الآدميات الاولى كانت تعرف التصوير أو التسجيل وأنها استطاعت عن طريق الرسوم والنقوش البدائية التى كانت تنقشها على جـــدران الكهوف من أن تتبادل الرسائل وتسجل الأحداث . ولكن هل تعتبر تلك الرســوم بمثابة محاولة أولية لها معناها ودلالتها كوسيلة للاتصال وتبادل الافكار قبـــل أن تظهر اللغة الكلامية..؟

من الصعب القطع برأى حاسم فى هذه الناحية نظرا لقلة المعلومات التى

بين أيدينا ، فوجود هذه النقوش قد يكون بديلا عن الكتابة بمعناها الحالـــــى
ولكن من الصعب اعتبارها بديلا عن الكلام أو أن الانسان المبكر لم يستطـــــع
التفاهم وتبادل الرأى إلا عن طريق الرسم والتصوير والنقش.

والذى يهمنا هنا هو أن الانسان هو الكائن الوحيدالذى عرف اللغـــة
ووسائل الاتصال اللغوية ، وأن له فى تركيبه البيولوجى مايساعد على ظهـــور
اللغة والكلام وليس مجردإصدار الأصوات التى يشترك فيها مع بقية الكائنات،ويبـــدو
ان اسلافنا الاوائل حتى انسان الصينsinanthoropus أو انسان بكيـــن
Peking Man وانسان جاوة الذى عرف باسم الانسان المعتدل القامـــة
pithecanthoropus وأمثالهم من الاعضاء المبكرين فى العائلة البشرية .
كان فى استطاعتهم عموما الكلام ، الأمر الذى يتعلق بتركيب اللسان والحنجـــرة
والجهاز العصبى إلى حد بعيد.

ولكن هل كان من الضرورى أن تكون وسيلة الرمز هى اللغة المنطوقـــة
بمعنى ألا يمكن أن تكون هناك طريقة أخرى للتعبير عن الافكار والمشاعـــر
وبذلك تكون اللغة مسبوقة بوسائل أخرى وأساليب للتعبير غير لغوية ؟

لقد تمكن الانسان كما قلنامن قبل من اختراع وسائل كثيرة للاتصـــال
غير اللغوى مثل الاشارات والايماءات والحركات المختلفة . ويذهب الكثيرون الـــى
ان هذه الوسائل كانت أسبق من ظهور لغة الكلام حتى أن لويس مورجان قد ذهـب
إلى أن الاصوات جاءت أولا كمعاونة للاشارات والحركات ثم أخذت تكتسب بالتدريـج
معنى متعارفا عليه بحيث أصبح لها السيادة والسيطرة على لغة الاشارات أو أصبحـت
على الاقل جزءا هاما منها.

ولقدلاحظ لوكريتوس Lucretius على مايقول مورجان نفســـه
ان الناس فى المرحلة البدائية قد أمكنهم عن طريق الاشارات والاصوات والحركـــات
أن ينقلوا افكارهم بشىء من الدقة وعليه فان الفكر كان أسبق من الكلام كمـــا
ان لغة الاشارات قد سبقتهذه اللغة وانها هى الأخت الاكبرللكلام المفصل ، كمـا

أن مثل هذه الاشارات والحركات لاتزال هى اللغة السائدة لدى الشعوب البدائية والمتبربرة ٠

ومع هذا فليس ثمة مايدل بشكل قاطع على أن هذه الوسائل غير اللغوية للاتصال كانت بالفعل أسبق فى الظهور من اللغة، الامر الذى يصدق على لغة الاشارات بوجه خاص٠ صحيح أن التخاطب عن طريق الايماءات وحركات الجسم البسيطة قد يكون أسبق من التخاطب اللغوى ٠ ولكن التخاطب عن طريق الاشارات والعلامات سواء كانت وسيلة ذلك هى النار أو الدخان أو العقد الذى تصنع من الحبال لايمكن استخدامها كلها إلا بعد الاتفاق على معناها ، وهذا يفترض اللغة للتفاهم٠

وعموما فمهما تعددت هذه الاشارات والحركات والايماءات فانها تظل قاصرة عن التعبير عن كثير من الأمور أى أنها وسيلة اتصال ثانوية إذا صح التعبير٠ وعلى ذلك فان اللغة بمعناها الدقيق تظل فى رأى العلماء هى الاداة الرئيسية خلال كل مراحل التاريخ والتطور للاتصال والتفاهم وتبادل الافكار وبالتالى أداة الحضارة والثقافة ووسيلتها ٠ واللغة من هذه الناحية هى أداة تراكم الحضارة من غير شك حيث انها كغيرها من مظاهر الثقافة تتميز بخاصية التراكم والاستمرار والنمو والقدرة على الانتقال ٠ والاكثر من هذا كله فانها ذلك الجزء من الثقافة الذى يساعد على التعلم وزيادة الخبرة والمشاركة فى خبرات الآخرين ٠

(٣)

ولقد درج العلماء فى دراستهم للعلاقة بين اللغة والثقافة على الاكتفاء بتوضيح العلاقة الخارجية بين مفردات اللغة ومحتوى الثقافة كما حرصوا على أن يبينوا أن هذه المفردات تعكس اهتمامات المجتمع والجوانب التى يركز عليها ٠ فالشعوب التى تعيش على القنص والجمع مثلا توجد لديها قوائم تفصيلية بأسماء الحيوانات والنباتات والملامح الطبوغرافية للبيئة ، بينما نجد الجماعات التى تهتم بالقرابة مثل الاستراليين الأصليين لديهم الكثير من مصطلحات القرابة المعقدة

مما يوضح لنا أن هناك صلة وثيقة بين مفردات اللغة وكثير من جوانب الثقافة غير اللغوية٠

ولكن الشيء الذى يهتم بمعظم هؤلاء ، هو أن اللغة تتدخل فى تحديدوتركيب أنماط الفكر فى المجتمع سواء أدرك الناس ذلك أو لم يدركوه مما يعنى ان الاكتفاء بدراسة العلاقة الواضحة بين اللغة والمحتوى الثقافى لايعنى شيئا اكثر من أن اللغة لها أساس ثقافى وانه يمكن بالتالى تحديد مفردات اللغة بوضوح ودقة بمعرفة بقية مظاهر الثقافة،وهذا هو مايقصده علماء الاجتماع اللغوى حيث يذكرون ان اللغة شيء أكبر مما نجده فى القواميس والمعاجم وأن دراستها تحتاج الى التعرف على الروابط اللغوية بين أنماط اللغة وأنماط الثقافة والحضارة٠ ومن هنا يحاول بعض العلماء إثبات ان الشعوب التى تتكلم لغات مختلفة تعيش فى عوالم مختلفة ، وان اللغة التى يتكلمون بها تؤثر بدرجة كبيرة فى مدركاتهم الحسية وأنماط تفكيرهم وأنها بذلك تكون العامل الاساسى فى توجيه الحقيقة الاجتماعية أو الواقع الاجتماعى الذى يعيشون فيه٠

ولقدتأثر بنيامين فورف ، B.Whorf (١) بهذا الاتجاه الذى ظهر فى كتابات عدد من العلماء المعاصرين فعمل على تطويره٠ وعلى مايقول هو نفسه فى هذا الصدد اننا نقوم بتقسيم الطبيعة حسب خطوط معينة رسمتها لنا لغاتنا وهذه الانماط والفئات التى نفصلها من عالم الظواهر لايتم العثور عليها لانها تواجهنا أو لانها أمور واضحة أمام اعيننا ، وانما الامر على العكس من ذلك تماما ، بمعنى أن العالم الخارجى أو الواقعى هو مزيج من العناصر والعلاقات المختلفة المتباينة الى أبعد حد ، وان العقول الانسانية هى التى تتدخل لتكشف عما فيه من تنظيم ، ووسيلتها إلى ذلك هى الانساق اللغوية التى توجد فى تلك العقول ٠ فنحن إذن الذين نقوم بتقسيم الطبيعة وتجزئتها وتنظيمها فى شكل مفهومات وتصورات

---

(١) لعله تجدرالاشارة هنا الى ان هذه الناحية بالذات سوف تكون موضع اهتمام خاص فى الدراسة الميدانية على ماسيجيء بعد٠

ونعطيها بذلك أو أثناء ذلك معانى محددة ٠

ويعطينا فورف فيما يعرف عنده بالنظرية الفورفية أو الفرض الفورفى بعض الامثلة التى توضح الكيفية التى تتدخل بها اللغة فى تقسيم الواقع الاجتماعى بعدة طرق وأساليب ٠ ويظهر ذلك على وجه الخصوص حين نقارن نسقا معينا من الانساق الاجتماعية لنرى الدور الذى تقوم به اللغة فى تقسيم الطبيعة وكيف تنظر الجماعات التى تتكلم لغات مختلفة إلى الشىء الواحد نظرات مختلفة وتتصوره أيضا بطرق مختلفة ، بما يعنى أن الالفاظ اللغوية ليس عملها هو تحديد المدركات الحسية والتفكير فحسب ، ولكنها تعمل أيضا على توجيه الادارك والتفكير فى اتجاهات معينة مألوفة مستعينة فى ذلك بالأنماط الثقافية الأخرى ٠ فالاسكيمو الذين يميزون بين أنواع عديدة من الثلج والذين يفتقرون إلى كلمة واحدة عامة تشير الى الثلج فى ذاته انما يستجيبون لمركب كلى من الانماط الثقافية يتطلب منهم ان يميزوا بين الثلج فى حالاته المختلفة فهم ليسوافى حاجة الى كلمة عامة أو كلية كما سبق القول ٠

ومهما يكن من أمر فان هذا يعكس فى النهاية إلى أى حد تتدخل الأنماط اللغوية فى تحديد الكيفية التى ينظر بها الافراد الى العالم من حولهم والى أى مدى تستطيع اللغة كذلك أن تؤثر فى المجتمع من خلال تحكمها فى وجهات نظر الناطقين بها ٠

(٤)

وينقلنا كل هذا إلى أحدالموضوعات التى طالما شغلت أذهان العلماء ففى ضوء ماسبق يذهب بعض العلماء إلى انه لن يكون من السهل إذن نقل الفكر من لغة إلى لغة اخرى نظرا لأن الكلمة الواحدة تكون مرتبطة ارتباطا وثيقا بالفكرة التى تعبر عنها هذه الكلمة والظروف الاجتماعية والثقافية بل وأنماط السلوك ونظرة الشخص فى الثقافة المعينة إلى العالم ككل مما يجعل من الصعب فى النهاية العثور على مرادف حقيقى للكلمة فى أية لغة أخرى ٠ بل ويذهب بعض الغلاة الى

القول باستحالة الترجمة من جملة إلى أخرى داخل اللغة الواحدة طالما ان ثمة علاقة عضوية بين الفكر واللغة.

والواقع اننا لو استطردنا مع هذا المنطق المغالى فيه لكان معناه صعوبة التقاء الفكر أو بالأصح تقارب المجتمعات والثقافات فضلا عن توحيدها.

صحيح ان اللغة الواحدة توحد أو هى على الاقل تقرب بين الناس الذين يتكلمونها والذين يؤلفون جماعة كلامية واحدة . ومع ذلك فان اللغة فى عمومها تعتبر فى رأى الكثيرين من أهم العوامل التى تساعد على التفرقة والانقسامات داخل الجنس البشرى.ويرجع ذلك الى تنوع اللغات واختلافها ، وهكذا فنرى أن العامل الذى يفترض فيه أن يساعد على تجانس الثقافة يصبح هو نفسه مصدرا لأعمق الاختلافات والصراعات وسببا من أهم أسباب التفرقة بين الناس والقضاء على التماسك والتناسق فى المجتمع الانسانى ككل . فكأن تعدد اللغات وتنوعها يعتبر من أهم أسباب ماتعانيه الانسانية الآن من صراع وتشتت وتفرق .

ومعذلك تتعرض هذه النظرية السابقة إلى الهجوم والانتقاد العنيفين حيث يرى فريق من العلماء أن الوقت قد حان للكف عن التهويلات والمبالغات التى تضفى على اللغة واظهارها فى صورة الأساس الأول إن لم يكن الأوحد الذى يقسم البشر إلى أمم وشعوب وقوميات متباينة . وفى اعتقاد هؤلاء ان مثل هذه الاقوال ان كانت قد صلحت فى الوقت الماضى حيث كانت القداسةتضفى على الكلمات والالفاظ وتعزو إليها قوى سحرية وقدرات غامضة فان ذلك لم يعد يتناسب وزمن أصبحت الآلات فيه تتولى الترجمة ونقل رموز الكلمات من لغة إلى لغة .واذا كنا ممن يؤمنون بما للألفاظ من قوة الفعل والتأثير فان هذه القوة هى قوة الناطق بها لا قوة الالفاظ ذاتها .

ويرتكز أصحاب هذا الموقف إلى مبدأ أساسى يقول بأن ثمة وحدة فى اللغة الانسانية بأكملها . وان اللغة هى من ثم أداة للانسانية كلها وحصيلة للتراث الانسانى بعامة . فقد عاشت الامم والجماعات عبر التاريخ تتفاهم وتتعاون

وتتبادل المنافع والخدمات وتنقل من بعضها مقومات الثقافة والحضارة دون أن يحول اختلاف اللغات عن اتمام ذلك. فالمصريون القدماء على سبيل المثال اتصلوا بالفينقيين والبابليين والحيثيين والفرس والاغريق والرومان ، ولم يحل اختلاف اللغات دون سير الأمور في داخل هذه الامبراطوريات المتنوعة والمترامية الاطراف أو دون اختلاط الشعوب الأخرى والتعاون على انشاء الحضارات . كما ان التاريخ يقطع من الناحية الأخرى بأن وحدة اللغة بين جماعات من الناس لم يكن لها أثر حاسم في التقريب بينهم وحملهم على تأليف وحدة اجتماعية واحدة ومثال ذلك قبائل الاغريق القدامى الذين عاشوا قرون عدة وهم يتقاتلون ، مع أنهم كانوا يتكلمون اللغة الاغريقية في الوقت الذى انتشروا فيه في مناطق الشرق الأدنى يؤلفون المجتمعات وسط شعوب أخرى تتكلم لغات غير لغتهم ويتعاونون معها على الحياة . ولقد ظل الاغريق يقاومون الوحدة فيبلادهم الى آن فرضها عليهم الاسكندر المقدونى بقوة السيف ولم تلبث بعدموته أن تحطمت من جديد. كما عاشت الشعوب الجرمانية في أوروبا طوال العصور الوسطى وهى تتكلم الالمانية دون أن تفكر في الوحدة التى قاومها معظم علمائهم من أمثال جوتموشيلر وبيتهوفن وكان بعضهم يرى في هذه الغمرة القضاء على الحرية والعلم والفن ، الى آن تحققت في أخريات القرن التاسع عشر على أيدى بسمارك وكان ذلك بقوة الحديد والنار وليس بفعل اللغة .

ويكون معنىذلك إذن ان المبالغة في اعتبار اللغة العنصر الحاسم في التفريق بين الشعوب هو نوعمن الوهم خاصة وقداشرنا من قبل الى خطأ الادعاء بأن هناك لغة منحطة أو متدهورة ولغة راقية أو متقدمة فكل لغة تؤدى بالنسبة إلى أصحابها الدور نفسه الذى تؤديه في حياة أى جماعة آخرى ، وما من لغة حتى ولو كانت لغة اكثر الجماعات بداءة إلا وفيها جميع الخصائص التى توجد في بقية اللغات. ومن هذه الحقيقة فيتعين إذن القول بأن اللغة - أية لغة - هى حصيلة التراث الانسانى كلهوقدساهم في تكوينها جميع الأمم والشعوب. فاللغة كلها قدنبعت من أصل مشترك هو ذلك الانسان الأول ثم تشكلت وتنوعت كأى نتاج انسانى دون أن يفقدها ذلك جوهر وحدتها .

والواقع ان العلماء قد استطاعوا الكشف عن الأصل المشترك للعديد من اللغات ، فقد تتبعوا تفرع اللغات الاسبانية والايطالية والفرنسية من اللغة اللاتينية ، كما تتبعوا اللغة اللاتينية نفسها فتبينوا انها فرع من اللغات الهندأوربية التى تشتمل فيما تشتمل عليه اليونانية والسنسكريتية.

ولقدتعقب بعض العلماء بعض الكلمات الأساسية فى حياة الانسان فوجدوها واحدة فى كل اللغات أو بالأحرى وجدوها تدور حول صوت واحد مما يقطع فى رأيهم بوحدة الأصل . ويضربون لذلك مثالا لكلمة (الأم) حيث يتمثل الصوت الاساسى فى حرف الميم وهو من أول الأصوات التى تتناغى به الاطفال وكانت الكلمات التى ترمز الى الام فى مختلف اللغات تحتوى على حرف الميم. فهى فى اللغة العربية ام وفى الفرنسية مير وفى الانجليزية موذر وبالسويدية مودر وبالالمانية موتر وبالروسية ماتا.

وبالطريقة ذاتها يرى العلماء أيضا الوحدة الصوتية نفسها فى كلمات مثل سماء وأرض فالحرف الأول من كلمة سماء هو حرف السين ونجده ايضا فى كلمة سكاى الانجليزية وكلمة سييل الفرنسية. وقدتحل الشين محل السين فى بعض اللغات كما يتفق العلماء على انهما يتبادلان دائما .

كذلك نجدصوت الراء فى الكلمات الدالة على الارض فى اللغات المختلفة فالحرف موجود فى العربية كما انها فى الانجليزية ايرث وهى فى الفرنسية تير وفى الالمانية ارد. أما بالنسبة الى كلمة شمس فنجدالصوت الدال على السين أو الشين فهى فى اللغة الانجليزية سن وفى الفرنسية سولى وبالايطالية شيولو وهى شمس فى اللغة الآرامية وشمسو باللغة الآكادية وشمس فى اللغة العربية.

ويخرج علماء اللغة من ذلك كله إلى نتيجة هامة مؤداها ان اللغات الملفوظة تؤكد فى النهاية وحدة المادة الصوتية التى تتألف منها اللغات. واذا كان الامر كذلك فلا ينبغى إذن الانسياق فيما ذهب اليه بعض العلماء من تصوير اختلاف اللغات على أنه نتيجة فوارق طبيعية بين أجناس البشر، فالبشر يتكلمون فى

فى النهاية لغة انسانية واحدة حتى وان اختلفت طريقة النطق بها ٠ وما من لغة إلا وتعكس التراث الانسانى كله لاتراث جماعة من الجماعات أو أمة من الأمم٠

والواقع انه بغير هذه الحقيقة لم يكن من المستطاع ان يكون هناك علم واحد للانسانية ينتفع به على مر العصور ، أو ثقافة مشتركة هى الثقافة الانسانية بعامة ٠ والا فكيف كان يتسنى أن تترجم الآثار الفنية والعقلية من لغة إلى أخرى إلا اذا كان هناك أساس مشترك لهذه اللغات كلها ٠ وما الاساس فى حقيقته الا العقل الانسانى خالق اللغة وسيدها ٠

ويعطينا التاريخ نماذج عديدة للكيفية التى انتقلت بها المعارف من شعب الى شعب ومن مجتمع الى آخر ٠ ولعل أبرز مثال على ذلك هو ان المعارف المصرية القديمة قدانتقلت الى الاغريق ومن الاغريق الى اللاتين ثم انتقل ذلك كله الى العرب فى القرون الثلاثة الاولى للاسلام بصفة خاصة ٠ كذلك بدأت أوربا نهضتها الحديثة فى العصور الوسطى بالنقل من العربية إلى اللغات الاوربية ٠ وعندما رغب بطرس الاكبر فى النهوض بروسياكى تلحق بركب الحضارة الاوربية بدأ بالنقل والترجمة ٠

ومهما يكن من أمر فلا يجب أن نتناسى بهذا الصدد الدور الذى تقوم به التطورات العلمية الحديثة فى التغلب على الصعوبات الناجمة عن اختلاف اللغات وذلك ابتداءمن الراديو والترجمة الفورية وانتهاء بالترجمة الالية عن طريق العقول الالكترونية الحديثة ٠ فكل ذلك يشير فى النهاية إلى انه لايوجد بين البشر سوى لغة واحدة هى اللغة الانسانية التى مهما تعددت رموزهاواختلفت أصواتها فإن مدلولاتهاواحدة وأصلهاواحد فى عقل الانسان ٠

والحقيقة إنه لولا أن اللغة واحدة لما كانت فى استطاعة الآلات أن تقوم بترجمتها ونقلها أى احلال رموز محل رموز ، وذلك لسبب جوهرى هو ان الرموز الصوتية كلها من طبقة واحدة ومن طبيعة واحدة حتى لاتستطيع الآت الدنيا مجتمعة أن تغير من لون الانسان فتحوله من أبيض الى اسودأو من أصفر إلى

احمر ٠٠٠ الخ ، فضلا عن أن تطيل أو تنقص من طوله وما ذلك إلا لأن هـــذه الاختلافات من طبيعة مختلفة وليس كذلك الخلاف بين اللغات والكلمـــــــــات والالفاظ ٠

الفصل الحادى عشر

اللغة والثقافــــــة

ذلك التفرع أو التشعب الهائل الذى يعتبر من ذات خصائص تلك الشبكة المتداخلة من المهارات والعادات والافعال والمتعارفات والادراكات والتى جمعناهـا معا تحت مصطلح " اللغة" يبدو على غاية من التعقيد لدرجة يصعب معها القول بأن النظر إلى أية زاوية واحدة من زاوياه يكفى لأن يعطى صورة شاملة عن طبيعته من ناحية ، أو وظيفتمن الناحية الثانية ٠

والحقيقة انمهما كانت المحاولات لتبسيط طبيعة اللغة ووظيفتها (أو وظائفها) ، فلا يمكن الاكتفاء بالتعبير عن كل هذا بأنها وسيلة للاتصال وللتفاهم ولنقل المعلومات ، أو حتى انها واحدة من أهم الوسائل التى تساعد على خلــق الروابط وتوطيدالصلات بين الاشخاص٠ وذلك لسبب هام هو ان هذه النواحـــى كلها ربما كانت ـ بالرغم من أهميتها البالغة ـ أوضح مايظهر لنا ، بمعنـــى أنها لاتكشف عن الكثير مما يعتبره علماء اللغة والكثيرون من علماء الاجتمـــاع اللغوى وغيرهم من الباحثين اكثر خفاءً ، وبالتالى اكثر أهمية نظرا لارتباطــه بتلك الجوانب اللاشعورية التى تمدنا بتلك الركائز اللفظية verbal clues التى عادة ماتكشف عن ملامح الخلقية الاجتماعية وعن العديد من مظاهر الوضعيـات الطبقية والثقافية ٠٠ الخ التى ينتمى اليها المتحدثون ٠

وبتعبير آخر فان الشىء المهم والجدير حقا بأن يلفت الانتباه فـــى أى حديث يدور بين جماعة المتكلمين ليس هو مجردالالفاظ والكلمات التـــى يستخدمونها ويتداولونها أو حتى انهم (يتكلمون) ، ولكن الطريقة ذاتها التـــى يتكلمون بها ٠

والواقع ان هذه الزاوية أو الرؤية الأخيرة مهمة من وجهة النظر الاجتماعية لا من حيث انها توضح فحسب وظيفة اللغة فى اقامة العلاقات الاجتماعية ، أو فى

توثيقها كماقلنا ، ولكن أيضا من حيث إبرازها للدور الذى تقوم به اللغة فـــى إعطاء الكثير من المعلومات والمعارف عن المتكلم نفسه • وهى ناحية من الواضـح أنها تمثل انعكاسا لحقيقة ان هناك العديد من العلاقات المتداخلة والمتشابكـة بين اللغة والمجتمع•

ولعله قدوضح من خلال حديثنا حتى الآن ان من يتكلمون لغات مختلفة يتكلمون نظما فونولوجية مختلفة ، وبالتالى يكون ذلك سببا فى ان تنمووتتطـور لديهم باستمرار مايمكن أن يوصف بأنه أنماط مختلفة من الحساسية تجاه بعـض الملامح والخصائص السمعية من نوع أو آخر • الأمر الذى يكشف عن ميل ملحـوظ فى الاصوات الكلامية لأن تتجمع فى مقولات محددة تكون بمثابة أجزاء لازمـة وضرورية فى عملية الاتصال السمعى•

ولقدأشار العلماء أنفسهم الى هذه الظاهرة بقولهم إن التعرف علـى صوت كلامى لايعدو ان يكون إدراكا لعلاقته أو انتمائه إلى مقولة بعينها تحتـل مكانة معينة فى نسق الرتب الذى يوضح العلاقات بين أجزاء السياق المختلفـة أى أماكنها ومواقعها بتعبير آخر •

ولقد كانت الرغبة فى التعرف على طبيعة العلاقات التى تربط بيـن مجموعاتالاصوات او بين مقولاتها ، أو حتى بين مواقع الرتب ضمن سياقات اللغـة واختلاف كل هذا حتى بالنسبة إلى اللغة الواحدة ، سببا رئيسيا فى الانتبـاه إلى مظهر من اهم المظاهر اللافتة التى يعبر عنها العلماء بقولهم ان عمليـة التمييز التى تتم فى اللغة على هذا النحو تجعل الأمر يبدو وكأن هناك أنواعـا أو اشكالا مختلفة من اللغة، وهى الاشكال أو الانواع التىأصبحت تعرف بوجـه عام باسم اللهجات . Dialects•

ذلك إذن هو البعدالجديدالذى يتعين أن نضيفه إلى فهمنا للغة والـى الدراسة العلمية لها•

وقديبدو للبعض أن الأمر قداستغرق منا وقتا طويلا لنصل به إلـى

الحديث عن اللهجة واللهجات · ولكن الخطأ - فى رأينا - كل الخطأ أن نتسرع بتقرير الأمور فى مثل هذا المجال الفسيح من مجالات التغاير اللغوى ، فقد يؤدى ذلك إلى نوع من إساءة الفهم إن لم يكن أيضا الوقوع فى براثن بعض الأمور والمسائل المضللة ، خاصة وانما زال يصعب القول بأن مفهوم اللغة أو مفهوم اللهجة قد أمكن تحديدهما - حتى الان - بشكل قاطع وجلى (١) ،

ولعلنا قد اوضحنا فيما سبق انه لايكاد يوجد اثنان يتحدثان بطريقة واحدة تماما ، ولكن كل منهما يتحدث فى الواقع لغة مغايرة·

وعلى الرغم من انه قد أصبح من المألوف تماما أن يميز الانسان فى الاستخدام اليومى العادى بين اللغات واللهجات فنقول مثلا ان الانجليزية أو العربية هما لغتان لكل منهما العديد من اللهجات االتى تختلف فيما بينها ويتم التكلم بها فى كثير من البلدان أو الاقطار المختلفة أو حتى فى بعض المناطق والجهات المختلفة فى داخل المجتمع الواحد ، فان ما ينبغى التوقف أمامه هو أن تقريرنا للأمر على هذا النحو لايخلو فى الحقيقة من بعض مظاهر التبسيط إن لم يكن التسطيح لما هنالك من تمييز يناقشه الباحث اللغوى كما يعبر عنه بمصطلحات وبأساليب تبدو ولاشك أكثر تداخلا وتعقيدا ، لدرجة انه قد لايتقبل بالضرورة كل المتضمنات التى يعتقد بأنها عادة ماترتبط بكلمة اللهجة ، كما يشيع استخدامها على الألسنة·

واذا كان المسلم به عموما وجود العديد من التوزعات المحلية Local والاقليمية Regional لهذه اللهجات ، فليس من المحتم على الباحث اللغوى ، خاصة اذا كان من المشتغلين بعلم اللغة الاجتماعى sociolinguistics أن يسلم أو يتقبل مايذهب اليه البعض من أن اللهجة الاقليمية أو اللهجة الخاصة بطبقة اجتماعية بعينها ، ليست سوى رؤية (متدنية) للغة المنضبطة او اللغة الاصلية standare ، فاللغة

---

(١) Trudgill.p.15.

المنضبطة هى ببساطة، على الأقل من حيث الأصل ، عبارة عن لهجة اكتسبت لأسباب تاريخية ولغوية ، أهمية سياسية وثقافية فى مجتمع من المجتمعات ٠
ومن هنا فى الواقع هذا القول بأن التمييزبين اللغات واللهجات هو تمييز يقوم بشكل واسع على مختلف الاعتبارات السياسية والثقافية ٠ وربما كان أوضح مثال لذلك ان الكثير مما يعرف بأنه لهجات صينية تبدو اكثر تفاضلا وتمايزا فيما بينها مما نجده بين الدانيماركية Danish والنرويجية Norwegian اللتان توصفان دائما بأنهما لغتان مختلفتان ٠ وان كان الواقع اللغوى ليس مع ذلك على هذا النحو المبالغ فيه من التبسيط حتى اذا نحن افترضنا جدلا إمكانية القول بأنه من ها هنا بالذات يبدأ التكلم باللغة النرويجية أو ينتهى التكلم باللغةالدانيماركية أو غيرذلك من اللغات السكندنافية Scandinavion مثل اللغة السويدية Swedish فمثل هذا القول لايعدو أن يكون تقريرا على أساس سياسى ، أو على الاقل أساس سياسى اجتماعى Social -political وليس على ضوء الوقائع والحقائق اللغوية ذاتها ، التى تعتبر من غير شك اكثر تداخلا وتعقيدا ٠ فالمعروف ان اللغات النرويجية والدانيماركية والسويدية هى جميعها لغات مستقلة لكل منها ذاتيتها الخاصة التى تتسق مع الوضعية الخاصة بأمة معينة٠

ولكن على الرغم من أن المثقفين بمقدورهم فى أى من هذه الدول أن يتصلوا بشكل منطلق وحر فيما بينهم ، فليس معنى هذا ان القول بأن اللغة النرويجية والدانيماركية والسويدية كلها تشكل لغة واحدة لما ينطوى عليه ذلك من تناقض واضح مع الحقائق الثقافية والسياسية (١) ٠

(٢)

قصدنا إلى تناول هذه الناحية التى تناولناهافيما سبق حتى تتضح فى الاذهان مدى الصعوبة ، أوقل التعسف ، فى استخدام المعايير أو المقاييس اللغوية الخالصة pure لتقسيم التغايرات اللغوية إلى لغات أو لهجا ت

(١) Ibid: p.16.

متمايزة . وهذه تمثل فى الحقيقة واحدة من أعتى المشكلات التى يمكن أن يصادفها الباحث فى موضوع التغاير اللغوى فى دراسته للغة فى الثقافة والمجتمع. فمشكلة تقطيع المظهر" المتصل " لأى من اقسام الظاهرة اللغوية والاجتماعية فى ذاتيات أو كيانات منفصلة تماما مشكلة ليس لها أى اساس فى الواقع.

وعلى ذلك فيكون من المنطقى إذن إذا نحن أردنا ان نفهم فعل اللغة فى الثقافة وفى المجتمع أن نرجع إلى الحقائق اللغوية ذاتها فنلقى بذلك مزيدا من الضوء الذى قديساعد فى تحديد ، وربمافى التمييز بين مصطلح اللهجة وغيره من المصطلحات التى يشيع استخدامها ارتباطابه.

وقد يكون هناك واقعيا قدر معقول من الاتفاق على المعانى العامة التى تستخدم فيها مصطلحات"اللغة" و" اللهجة". ومع ذلك فان اللهجة يقصد بها إذا شئنا التحديدالدقيق تلك الاختلافات التى تقوم بين اللغات المختلفة ، والتى تعتبر أساسا اختلافا فى الكلمات وفى قواعدالنحو والصرف والنطق .

ومع أن مثل هذا التحديد للهجة يبدو متداخلا مع مصطلح الحركة Accent فان هذا المصطلح الأخير، من الواجب ان نقول انه يشير فحسب الى الاختلافات التى توجد فى النطق . وهذه ناحية مهمة فى التمييز بينهما ، وبخاصة بالنسبة إلى بعض اللغات التى تعتبر الحركة (النبر أيضا) فيها عنصرا مهما فى تحديد معنى الكلمة [1] وذلك مثل اللغة الانجليزية . فاذا نحن ربطنا بين هذه الناحية بحقيقة ان إمكانية الفهم المتبادل يمكن تصورها كنوعمن التدرج على سلم او مقياس scale كان ذلك بدوره بمثابة تأكيدآخر على ما سبق أن ذهبنا إليه من صعوبة الفصل بين الاشكال المختلفة للكلام فى اللغة الواحدة والنظر على هذه الاشكال على أن كل منها يمثل لهجة فى لغة معينة بدلا من أن ينظر اليها على انها لغات منفصلة ، لما فى الاقدامعلى ذلك من تعسف.

(١) يتداخل هذا المعنى لكلمة accent مع المعنى الذى يقصد اليه عادة من كلمة " النبر" stress الذى يراد به التشديد على صوت او مقطع فى نطق الكلمة فيبدو اكثر ارتفاعا مما يجاورهمن مقاطع واصوات . ومن المهم القول اننا كثيرا ما نذهب فى حديثنا بالعربية الى اعتبار كلمة accent بمعنى الشكله او اللهجة على الاقل بالمفهوم الشائع للكلمة.

ويترتب منطقيا على كل هذا أنه يصير اقرب الى العبث إذن محاولة وضع تمييز حاذ او اقامة حدود فاصلة تماما بين لهجة أحدالاقاليم التى يتكلم لغة معينة ولهجة الاقليم المجاور الذى يتكلم اللغة ذاتها ٠ ومهما اتسم تعريفنا للمجتمع الكلامى بالضيق ومهما حصرناه فى داخل المعايير والمقاييس والحدود الجغرافية والاجتماعية ، فسوف نجد دائما قدرا من التغاير المنتظم فى كلام أفراده ، وذلك الى الدرجة التى يمكن القول معها بأن كل فردمن أفراد هذا المجتمع إنما يتكلم لهجة تختلف اختلافا حقيقيا عن لهجة الآخرين ، أو أن له لهجته الفردية Idiolect الخاصة به بتعبير آخر٠

اللغة إذن ، بل اللهجات ذاتها تعمل كعلامات طبيعية يمكن بواسطتها التمييز ليس فقط بين جماعات المتكلمين أو بين المجتمعات الكلامية ، ولكن أيضا بين الافراد انفسهم٠

ومع ذلك فليس من السهل أبدا الوقوف على حقيقة هذه الظواهر وحقيقة فعلها من مجرد تقرير وجودها ٠ فاللغة تتخلل كل نواحى حياتنا الى الدرجة التى تعتبر هى فى ذاتها نسيج هذه الحياة بكل ماينطوى عليه من تجارب وخبرات ومواقف (١) ٠

والواقع ان نفاذ اللغة على هذا النحو فى كل نواحى التجربة الانسانية قد جعل من الصعب كثيرا الوصول إلى معيار مقبول لتعيين الحدود أو الفواصل بين لغة وأخرى أو بين لهجة وأخرى ٠ وعلى الرغم من أن هذا ما أوضحه وليام لابوف Labov وغيره من علماء اللغة فى مواطن كثيرة من كتاباتهم

---

(١) Lyons, John., Introduction to Theoretical linguistics. London and New York: Cambridge University press. 1968. p. 424.

التى دارت حول الموضوع (١) ، فقد كانت احدى الملاحظات الرئيسية التــــى لفتت الانظار ان اكثر أنماط التغاير أو التفاضل بين اللهجات هى تلك التــــى ترتبط بالعوامل الجغرافية • وبناءاًعليه فقد كان أحد الاسئلة الرئيسية التــــى بدأت تشغل أذهان العلماء تتمثل فى الاسباب التى يرجع اليهاوجود مثل هــــذا التوازى بين تطوروضوح الاختلافات المتعلقة باللهجات المختلفة ، ووضـــــوح الاختلافات الجغرافية والاقليمية ،حيث تظهر المسافات والأبعادكحواجز أو كعوامل أساسية وراء ظاهرة التغاير اللغوى عموما •

وكقاعدة عامة فانه يمكن القول بأن الكلام فى منطقة ما يختلف ــ كمــــا قلنا من قبل ــ بقدر أو بآخر عما نجدهفى منطقة أخرى • كما أن الاختلافات بين اللهجات المحلية المتجاورة هو بدوره مسألة ملحوظة تماما ، وهى وان بــــدت ضئيلة الا أنهتتسع بعدالشقة تأخذ فى التراكم وفى الوضوح •

ولقدترتب على ذلك ان ذهب علماء اللهجات الى القول بأن اللهجـــــات المحلية والاقليمية وهى ماتشتمل على اللهجات الجغرافية عموما (حيث تتضمـــن هذه كل من اللهجات المحلية مثل لهجة بوستن على سبيل المثال أو لهجـــــة

---

(١) ويمكن الرجوع بصفه خاصه الى كتابات وليام لابوف الآتية :ــ
Labov.W.,Phonological Corre lates of social stratification.American Anthropologist. Menasha wisc.1964.66.pp.164-70.labov,W.,the Effect of social Mobility on linguistic Behaviour." In lieberson .1967.

وانظر أيضا :
Gumperz,J.J.,"On the Ethonology of linguistic change."In Bright.1960

وايضا كتابه الذى الفه بالاشتراك مع هيمز : ——— & Hymes,D.(ed.) Directions in Linguistics.N.Y.Holt Rinehart & Winston.1978.

الاسكندرية أو لهجة موسكو ، واللهجات الاقليمية مثل اللهجة الانجليزية (الاسترالية) أو التوسكانية tuscan (الايطالية) انما ترتبط بحدود الاقاليم والمناطق المختلفة وبالحواجز الجغرافية عموما مثل الجبال والوديان والانهاروالسهول والوهاد والمرتفعات وما الى ذلك . وكلما كانت المسافة الجغرافية ابعد بدت الاختلافات بين اللهجات اشد وضوحا .

ولكن هذا الكلام وان كان يبدو صحيحا بوجه عام ، إلا أنه ينطوى على قدر من الفوارق التفصيلية التى ينبغى الانتباه اليها . وصحيح ان اللهجات الاقليمية تشتمل فيما بينها على بعض التغاير ، ولكن من المهم مع ذلك القول بأن الاختلافات التى توجد فى داخل اللهجة الاقليمية من المفترض ان تكون اقل مما يوجدبين لهجتين إقليميتين من نفس الرتبة .

ولكن الحديث عن اللهجات الجغرافية من هذا المنظور الذى يتبناه علم اللغة الجغرافى Geographical linguistics لم يكن من السهل تقبله على اطلاقه سواء من المتخصصين فى علم اللهجات Dialectology أنفسهم ، أو حتى من بين المشتغلين بعلم اللغة الاجتماعى .

إن علم اللهجات كما هو معروف يهتم بصفة أساسية بدراسة التفاعل بين اللغة والمجتمع . فاذا أضفنا إلى ذلك حقيقة انه يعتبر من حيث النشأة أقدم من علم اللغة الاجتماعى ، ومن باب أولى تلك العلوم الأخرى المتضمنة فى هذا العلم الاخير (مثل الانثربولوجيا الاجتماعية) وهو ما أدى بالطبع الى تراكم مزيد من المعارف والمعلومات وبلورة عدد من المناهج وبالتالى رسوخ بعض التقاليد ،كان من المنطقى إذن ألا يسلم هؤلاء بأن البعدالجغرافى هو وحده السبب الكافى ، أو السبب الوحيد فى التغاير اللغوى والاختلاف فى اللهجات ، أو حتى التسليم بأنه البعدالاكثر اهمية ، وبخاصة اذا نحن اخذنا فى الاعتبار ان الاهتمام الموضوعى لهذه العلوم انما ينصب على دراسة اللغة كظاهرة اجتماعية وثقافية . ومن هنا فانها تعتمدعلى نتائج العلوم الاجتماعية بالدرجة الاولى وفى مقدمتها علم الاجتماع والانثربولوجيا . وان لم يكن معنى هذا أيضا تجاهلها للجغرافيا البشرية

أو الجغرافيا الاجتماعية مما يمكن القول معه بأن السسيولغويات هى من الشمول والاتساع حتى لتحتوى مختلف الابعاد والجوانب التى تهتم بها الجغرافيا اللغوية، لأنها (السسيولغويات) تغطى كافة دراسات وبحوث اللغة فى سياقها الاجتماعى وسواء كان هذا من منطلقات سسيولوجية أو انثربولوجية أو حتى جغرافية فهى فى كل هذا تهتم بالبحث عن إجابات من ذلك النوع الذى طالما شغل أذهان علماء اللغة وعلماء الاجتماع معا مثل : كيف لنا أن نطور من معارفنا ونظرياتنا عن طبيعة اللغة ؟ وكيف تتطور اللغة وتنمو ؟ وماهى طبيعة العوامل التى تقوم وراء مايحدث من تغايرات واختلافات فى الظاهرة اللغوية ؟ وكله من الواضح إنه لايمكن أن ينفصل عن التعرف على وجه الخصوص على الكيفية التى يستخدم بها الافراد والجماعات فى المجتمعات المختلفة أنماطا مغايرة من اللغات ومن اللهجات، وكذا عن الجوانب السياسية والثقافية والتربوية التى تعكسها طبيعة العلاقات المتبادلة بين اللغة ومايوجد فى المجتمع من نظم وأنساق اجتماعية.

(٢)

وليس من شك فى انه لايمكن أن تصف علم اللغة الاجتماعى أو علم الاجتماع اللغوى بأنهامجرد مزاج بين علم اللغة وعلم الاجتماع (أو بين علم اللغة وأى علم آخر من تلك السلسلة الطويلة التى تضمها العلوم الاجتماعية) . كما انه ليس بمقدورنا بالطبع أن نصف ماهية أى من هذين العلمين بمجرد حصر الانساق العلمية التى قد تشارك فى تكوين بنائها وهيكلها . وانما الأصح من ذلك أن يتم الامر عن طريق توضيح الكيفية التى تترابط بها هذه الاتساق وتنسق وظائفها نحو الغاية التى تجمعها وتسعى (ككل) إلى الوصول اليها .

ويترتب على مثل هذا التصور ان الدراسة العلمية للهجات الاجتماعية لابد وأن تؤسس إذن ليس فحسب على فهم مسبق بطبيعة البناء الاجتماعى كما ينظر اليه علماء الاجتماع ،ولكن أيضا الفهم لنوعية العلاقات المتداخلة والبينية بين الافراد والجماعات وكذلك طبيعة الروابط والعلاقات بين الاتساق العلمية ذاتها .

ولقد كان الانتباه إلى عدم كفاية البعد الجغرافى وحده لتفسير التغاير

اللغوى والتفاضل بين اللهجات باعثا للبحث عن تفسيرات أخرى فى ضوء مانسميه البعد الاجتماعى social distance أو العوامل (وان كان البعض أميل هنا الى اطلاق لفظ الحواجز) الاجتماعية بمعنى ان انتشار الملامح اللغوية فى داخل المجتمع تتحدد كثيرا بأبعاد الطبقات الاجتماعية أو على الاقل الفئات والشرائح والمستويات الاجتماعية المختلفة • وبالتالى مايرتبط بذلك من مقولات السن والعنصر والنفس والدين وما إلى ذلك من العوامل •

وصحيح ان الشخص فى أثناء حياته قد يتصل بغيره من الناس أفرادا كانوا أو جماعات قد تختلف لغاتهم أو لهجاتهم فى كثير أو قليل عما يجرى استخدامه فى طبقته الاجتماعية الاصيلة • وصحيح أيضا ان هذا قد يكسبه بعض الالفاظ والاصوات والتعبيرات التى قد لاتوجد فى طبقته،فقد وجد (على سبيل المثال) ان ذوى المستويات التعليمية الأعلى وهم فى الاغلب من ينتمون الى الطبقات الاجتماعية الأعلى ايضا ، أميل من غيرهم إلى أن يضمنوا حديثهم الكثير من ملامح اللغة المنضبطة والمحكمة (الفصحى) ذلك فى الوقت الذى عادة ماتعكس لغة المستويات التعليمية والاجتماعية الادنى ملامح اللهجات المحلية بشكل جلى•

وقد يكون صحيحا كل هذا • ولكن الصحيح أيضا ان ذلك الاكتساب الذى أشرنا اليه لايجعل من الشخص متوحدا تماما مع الجماعة الكلامية أو الطبقة الاجتماعية الجديدة التى اكتسب عنها • فمهما كان المدى الذى تؤثر به الاختلافات الثقافية القائمة بين المتكلمين وتأثيرها فى لغة الافراد وفى كلماتهم وألفاظهم، فإن كلمة واحدة أو لفظ واحد قد ينبىء عن أن شخصا ما هو دخيل على هذه الطبقة أو تلك، خاصة إذا لم يكن اكتسابه لهذه الالفاظ والتعابير الجديدة قد صاحبه اكتساب لانماط السلوك الاجتماعى التى يأخذ بها افراد هذه الطبقات فيما بينهم•

بمعنى آخر يمكن القول بأن سماعنا لغة شخص من الاشخاص يساعد كثيرا فى الكشف عن ملامح طبقته الاجتماعية وعن دوره الاجتماعى ووضعيته الثقافية والمهنية •• الخ وكأن اللغة هنا أشبه بقيد من القيود ، أو هى بصمة اجتماعية

مثلما فى ذلك بصمات الأصابع تماما .

والواقع ان الافراد قد يكتسبون لغات غيرهم وقد يستخدمون بعض تعابيرهم وألفاظهم الأمر الذى يمكن ملاحظته بسهولة اثناء عمليات التنقل والحراك الاجتماعيين بصفة خاصة ومايصاحبهما عادة من مظاهر الانتقال الثقافى كما نرى على سبيل المثال بين الوافدين من القرية إلى المدينة . ومع أن هؤلاء يلتقطون الكثير من الالفاظ والجمل والتعابير كما قد يكتسبون أيضا بعض ملامح لهجاتهم وبخاصة تلك التى يعتقد انها خصائص الطبقات الاعلى، إلا أنهم يظلون ـ على الرغم من كل هذا ـ أسرى لغتين ان صح التعبير. أى لغتهم الأصلية التى تنم عن أصولهم الاجتماعية وربما عن المناطق التى وفدوا منها ، واللغة الجديدة التى اكتسبوها أو أخذوا عنها من مخالطة أهل المدينة والتى حاولوا أن يتمثلوا أنماطها اللغوية واستخدموها فى أحاديثهم وفى معاملاتهم.

ولقدكشفت العديدمن البحوث عن طبيعة الميكانيزمات التى تتم بها هذه العملية . فالاغلب ان الافراد يميلون الى تبنى طرائق النطق والتعبير التى يعتقدون انها تعكس نوعا من المرتبة أو المنزلة الاجتماعية العالية فى مجتمع من المجتمعات مما يمكن القول معه بأنه فى ظروف التغير الاجتماعى تصبح مثل هذه العملية عرضة للتضخيم ولغير قليل من المبالغة. وان كان البعض يرى ان مثل هذا الافراط فى تبنى الانماط اللغوية الغريبة ، قد يتخذ ـ فى ظروف أخرى ـ اتجاها معاكسا ، حيث تبين للباحثين ان ملامح التغير اللغوى الذى صاحب التغيرات الاجتماعية الحاسمة التى شهدتها بعض الجزر نتيجة لتزايد وفود السائحين والزائرين لها ، وبخاصة فى مواسم الاجازات التى تقع فى أشهر الصيف كانت من الوضوح بمكان لدرجة أن الاجيال الاكبر والمسنين من أهالى هذه الجزر أخذوا يتمسكون بل ويبالغون فى تمسكهم بطريقة نطقهم التقليدية وتعابيرهم والفاظهم المحلية التى تعبر عن أسلوب حياتهم ونمط معيشتهم الخاصة وذلك فى مقابل مابدأوا يلمسونه من إقبال الاجيال الأصغر وانحرافها فى الأخذ عن أولئك الزوار والسواح وكأنما هذه الاجيال الاكبر قد ارادوا بهذا التمسك بلغتهم ان يعلنوا ذاتيتهم الاجتماعية والثقافية ، واستقلال هذه الذاتية من ناحية

وايضا تمسكهم بقيمهم القديمة التى يعتبرونها أحد مظاهر تراثهم الوطنى الـــذى لاينبغى المساس به أو التفريط فيه • وان كانت هذه الظاهرة تعنى فى الوقـــت نفسه ان الطريقة القديمة ، أقصد تلك التى درجته عليها الاجيال فى النطـــق وفى الكلام ، ما زالت تمارس وظيفتها فى تأكيد الاتجاهات التى تعارض اى تدخل غريب • وكله يعنى ان اللغة بمقدورها إذن أن تقوم بدور خطير كعامل مـــن عوامل التوحد identification والتماسك الاجتماعى social coesion تماما مثلما تقوم بابراز التغايرات والاختلافات التـــى سرعان ما تتوارى وراء مظهر التجميع والاتفاق إذا ماتعرضت وحدة الجماعة لمـــا يهددها من الخارج •

وبالرغم من ان هذا كله قد يتم بطريقة بسيطة وربما بطريقة تلقائيـــة أيضا ، فقد ينجم عنه فى كثير من الأحايين وقوع الانسان فى غير قليـــل من التناقضات إن لم يكن الصراعات المرتبطة بالدور ، وذلك عندما تختلـــط أنواع السلوك والمعايير التى يتعين العمل بها فى الوضعيات اللغوية الجديدة • لأن مايحدث فى معظم الاحيان أن تظل هناك فجوة واسعة بين اللغـــة المكتسبة وماتفرضه من ألوان ومظاهر للسلوك الاجتماعى والثقافى وبين اللغـة الأصلية ، والمظاهر والانماط السلوكية التى تعتبر مظاهر وانماط متأصلة فيها • وهو مايتخذ مظهرا اكثر وضوحا اذا لم يستطع الشخص أن يوفق بين هـــذه النواحى جميعها ، فيبقى من ثم متذبذبا بين اللغة الاصلية وما تمليه من تقاليد سلوكية ، وماتفرضه اللغة المكتسبة الجديدة من أوضاع وتصرفات وكلها جوانـــب لاشك فى ان لها تأثيراتها السلبية على الشخصية والعلاقات الاجتماعية ذاتها •

ومع ذلك فمن المهم ألا يفهم من كل هذا اننا نقصد إلى القول بـــأن الطبقة الاجتماعية هى وحدة مغلقة على ذاتها • فالواقع ان الطبقة أيا كانـــت خصائصها الاجتماعية والاقتصادية ، أو حتى تلك الخصائص التى قد تصطبـــغ ببعض الملامح الروحية والدينية لاتعدو أن تكون فى آخر الأمر بناءاً مكونا مـــن افراد يتحركون صعودا وهبوطا ، كما يتحركون فى كل الاتجاهات ، وذلـــك مايظهر فى المجتمعات الصناعية الحديثة على وجه الخصوص•

واذا كانت الحركات الاجتماعية الواسعة او الهجرات الكثيفة قد اعتبرت دائما عاملا من أهم العوامل فى تكوين اللهجات التى قد تختلف فيما بينها بدرجة أو بأخرى تسبة الى المناطق الجغرافية التى ينزل فيها او تستقر جماعات المهاجرين والنازحين ، فان ادراك هذا البعد (الحراك الاجتماعى) أياما كان مستواه وشدته ومداه مما يجعل من مهمة عالم اللهجات أو عالم الاجتماع اللغوى اكثر صعوبة عندما يريد دراسة التوزعات اللغوية واللهجات التى قد تظهر فى مثل هذه المجتمعات سواء الطاردة أو الجاذبة٠

وبوجه عام يمكن القول بانه كلما زاد عدم التجانس الاجتماعى وأصبح اللاتجانس أشدوضوحا تعقدت هذه المسألة نظرا لانعكاس هذه النواحى على الظاهرة اللغوية ذاتها وماينبثق عنها من لهجات٠ وتترتب على ذلك واحدة من أهم النتائج التى لها دلالتها حيث ان القول بوجود لغة ما أو لهجة ما نقية تماما يكون إذن اقرب الى الزيف وعدم الواقعية ، لأن كل اللغات خاضعة لقدر من التفاضل ، باعتبار ان كل المجتمعات عرضة لهذه الظاهرة٠ كما ان بكل لهجة من اللهجات ايا كانت درجة ريفيتها عنصرا أو آخر من عناصر التفاضل اللغوى وهو مايصدق بالنسبة الى اكثر اللهجات الريفية بعدا وانعزالا ٠

وبالتالى فيكون مثل هذا التصور القائل بوجود لهجة متجانسة تماما تصورا غامضا واسطوريا الى أبعد الحدود ٠ فكل لغة من اللغات عرضة للتفاضل الاجتماعى والبنائى لأن كل المجتمعات الانسانية هى بدورها مجتمعات متفاضلة وظيفياوبنائيا بما يظهر خاصية اللاتجانس كواحدة من أبرز خصائصها وأعمقها ٠

(٤)

واذا كنا لم نتحدث حتى الآن عن تلك العوامل التى يقول العلماء انها تعمل على صيانة اللغة فى وجه ماتتعرض له من عوامل الاضعاف والفناء ، أو مختلف مظاهر التغاير اللغوى التى عرضنا لها بتعبير آخر ، فذلك لأن هناك

من الزوايا والجوانب الأخرى مانعتقد فى ضرورة مناقشتهاونحن بصدد هذه الظاهرة ارتباطا بعاملى البعد الجغرافى من ناحية والبعد الاجتماعى من الناحية الثانية وهما البعدان اللذان مازال معظم العلماء يركزون كل انتباههم •

فقد درج اللغويون بعامة وعلماء اللهجات بخاصة على إبراز الآثار المترتبة على ظواهر الهجرة والتحرك الاجتماعى ولكن من زوايا معينة تدور حول التمييز بين المصاحبات التى توجد فى المناطق المختلفة سواء اكانت مناطق انتقالية Transitional ومايعرف بمناطق التصدير أو الاشعاع Focal ومناطق البقايا Relic areas ، وهو تمييز يقيمونه فى الحقيقة فى ضوء بعض المحكات والمعايير الاجتماعية والجغرافية فى آن واحد •

وقد يبدو للبعض ان من السهل الوقوف على معنى المصطلح الاول أعنى المناطق الانتقالية أو مناطق العبور ، أو بلغة اكثر حداثة مناطق (الترانزيت) • ولكن الشىء الذى يعنيه هنا علماء اللهجات هو مالاحظوه من ان التخوم أو الحواف borders التى توجد بها اللهجات الاقليمية عادة ماتشتمل على مثل هذه المناطق الانتقالية التى تشترك فى بعض الملامح من الجانبين المجاورين •

ويعتقدالكثيرون ان مثل هذه التداخلات انما هى نتيجة طبيعية لظاهرة الانتشار diffusion غير المتساوى للبدعوالتجديدات والمبتكرات من كل من الجانبين • وبطريقة مشابهة يقرر العلماء ان الانتشار غير المتوازى أو غير المتكافىء فى اللهجات المختلطة فى أى من الاقليمين مما قد يكون بدوره نتيجة للاختلاط والامتزاج السكانى الذى ينجم عن ظواهر الهجرة والحراك الاجتماعى العشوائية•

ولكن مناطق أو بؤر الاشعاع التى تعتبر بمثابة المصادر التى تقدم البدع والتجديدات فانها عادة ماتتوافق أو تتطابق وتتسق مع مراكز النشاطات القطاعية الاقتصادية ، على حين تكون المناطق من النوع الأخير Relic هىتلك الاماكن التى تتجه اليها مثل هذه المبتكرات والبدع وهى فى طريق

انتشارهاولكنها لاتصلها فى اغلب الاحيان.[(١)]

ولكن هذا الكلام ليس معناه ان مناطق البقايا ليست بدورها مناطق تجديد أو ابتكار ذلك ان لها فى الواقع مبتكراتها وبدعها الخاصة التى عادة ما تكون محدودة الانتشار بحدود المناطق الجغرافية الصغيرة . وانما الشىء المهم فى ذلك كله هو ما تتخذه هذه الظاهرة (البدعوالبقايا والمأثورات) من صفة الشيوع وبالتالى الامتداد الى خارج الجيوب الاقليمية ، أى على طول امتداد الحدود والتخوم القائمة بين المناطق اللغوية المختلفة.

وليس من شك فى ان الضغوط الاجتماعية الجغرافية التى يتضمنها انتشار البدع والمبتكرات اللغوية اكثر تعقيدا مما تناولناه ، أو حتى ماقد تعكسه عملية انتشار المودات المختلفة ، ذلك على الرغم من ان الظاهرتين قد يتبعا نفس الأسلوب فى انتشارهما من حيث انه يبدأ (عادة) من المراكز الحضرية ويتجه الى المناطق الريفية نتيجة للتفوق الاقتصادى والديموجرافى فى الحضر بعامة نسبة الى الريف ، وبالنظر الى تعقد بناء الاتصال نفسه فى كل من المجتمعين .

ومع ذلك فمن الخطأ أن نقدم على تعميم مثل هذه الوضعية بالنسبة الى المبتكرات االلغوية حيث لايعتبر الجوار proximity أو القرب وحده أهم عوامل الانتشار . فقد تخرج احدى البدع اللفظية (التقليعة أو النغمة اللفظية إن صح التعبير) من القاهرة مثلا أو لندن فتصل إلىالاسكندرية أو بريستول قبلما تصل المناطق الريفية التى قد تكون اكثر قربا من هاتين المنطقتين .

اما النتيجة المنطقية لكل هذا فتتمثل فى انه اذا كان للبعد الجغرافى أهميتهالتى لاشك فيها فى الانتشار اللغوى فان البعد الاجتماعى له من الأهمية مالا يقل عنه بحال .

---

(١) The New Encyclopoedic Britannica .22.o.p. cit p.577.

وعلى العموم فانه من وجهة النظر الاجتماعية البحتة فلابد من القول بأنه في الاقاليم التى تتركز فيها اعداد ضخمة ممن يتكلمون لغتين Bilingual كما هو الحال على سبيل المثال على طول الحدود التى تفصل بين منطقتين لغويتين ، فالمؤكد ان لهجات كل إقليم سوف يطرأ عليها غير قليل من مظاهر التغير نتيجة لتأثيرات الاتصال باللسان الآخر.

ولاتكون المظاهر الواضحة لهذه التأثيرات فى تلك الصور المتعددة لاقتباس الكلمات واستعارة الالفاظ فحسب ، ولكن أيضا ، وربما كان بشكل اكثر وضوحا ودواما ، فى تبنى الملامح والخصائص النحوية والفونولوجية . وربما من هنا مايؤكد عليه العلماء من ان هذه الظواهر دائمة الوقوع بين الشعوب والسكان التى كانت لها لغتها الاصلية الاولى ولكنها اضطرت لسبب أو لآخر إلى تبنى لغة أو أخرى فأصبحت تتكلم فيما بينها بها . وقد تظهر فى الحالات المتطرفة لهذه الظاهرة مايعرف باسم اللغة المولدة Creoles أو مايوصف بانه لغة محرفة أو تم تخريجها من اللغة الاولى . فكأن هذه التخريجات pidgins او اللغة المولدة هى فى ذاتها اللغة التى تم تخريجها ولكنها أصبحت اللغة الوحيدة أو لغة الكلام الرئيسية فى المجتمع.

ولكن الواضح ان هذه الزوايا جميعها المتعلقة بالاتصال وبالحواجز الجغرافية والاجتماعية وبمشكلات الحدود ، وماقديوجدهناك أيضا من قوى سواء اكانت مرتبطة بتفوق جماعة داخلية أو اخرى ، أو قوى خارجية مسيطرة أو مستعمرة، بالاضافة الى ارتباط كل هذا بالجماعات العرقية ethnic والجماعات اللغوية وكلها متداخلة ، خليقة فى النهاية بأن تثير أمامنا كل المسائل المتعلقة بما يعرف باللغات المنضبطة standard من ناحية وكذلك اللغات الاصطلاحية الاتفاقية lingua franca من ناحية ثانية.

أما كيف تظهر اللغات من النوع الاول فثمة اتفاق على ان ذلك لايكون إلا مع تحول لهجة معينة كى تصبح مستخدمة فى صورة كتابة بغرض تسهيل

الاتصال وتوفير نمط لغوى يسهل تداوله وتلقينه للصغار الامر الذى لايتم على اى الاحوال الا عبر مناطق اكثر اتساعا من تلك التى تحد اللهجة ذاتها ٠

ومع أن المنتظر طبقا لهذا الهدف أن يؤدى استخدام اللغة المنضبطة أو المعيارية فى مختلف أوجه النشاط الادارى والحكومى بالاضافة لبعض المجالات الاخرى كالادب ، إلى التقليل من حدة هذه التغايرات اللغوية وآثارها ، وبخاصة تلك الآثار السلبية ، فان الملاحظ ان عملية تحويل اللهجة الى لغة منضبطة لاتتم بمثل هذه السهولة ، لانها عادة ما تكون خاضعة لاتجاهات السلطة من ناحية ، اضافة الى ان المكانة أو المنزلة الاجتماعية التى ترتبط تقليديا ، بكلام وحديث الطبقات الموسرة والاكثر قدرة ونفوذا وفى الوقت نفسه الأرقى تعليماوثقافة مما يؤدى كله الى أن تصبح لغتهم وطريقة كلامهم وحديثهم النموذج الواجب اقتدائه من قبل الآخرين ٠ وبالتالى فان عدم الاخذ بهذا النموذج مما يعتبر دليلا على الانحراف فى مختلف الاشكال والصياغات اللغوية٠

ومهما كانت الوسائل المستخدمة لتحقيق هذه الغاية سواء تم ذلك عن طريق التدخل فى العملية التعليمية والتربوية والتخطيط للغة ، أو عن طريق القواميس والمعاجم التى تحددالقواعداللغوية وتعمل على ارساء المعايير الواجب اتباعها ، فالاغلب على أية حال أن تكون اللهجة التى تؤسس عليها اللغة المنضبطة هى تلك اللهجة الاصلية لعاصمة الدولة كأن تكون مثلا لهجة مدينة القاهرة فى مصر أو لهجة باريس فى فرنسا أو لندن فى انجلترا ٠٠٠ الخ٠

بيدأنه ينبغى ألا نفهم من كل هذا ان هذه اللغة المنضبطة التى قلنا إنها تنبنى أساسا على إحدى اللهجات المحلية هى بمنأى عن التغيرات ٠فالواقع انسوف يلحقها ـ مع مر الزمن ـ العديدمن ملامح وعناصر اللهجات الاخرى ٠ وربما ساعد فى ذلك كثيرا وقوع الاحداث التى قد تغير من حدود المناطق والاقاليم بما يمس لغاتها ولهجاتها ٠

والحقيقة انه فى كثير من الاحيان لايتطابق توزع اللغة المنضبطة مع وضعيات اللهجات ٠ فالملاحظ فى المانيا على سبيل المثال ان بعض المناطق

توجد بها اللغة المنضبطة على أساس اللهجات الموجودة في الشمال، بينما في [illegible]
مناطق أخرى نجد اللغة المنضبطة (القياسية) هي الهولندية أو [illegible]
الأمر الذي يرجع كثيرا إلى مواقف السكان ومعتقداتهم و[illegible]

وتقدم لنا الولايات المتحدة الأمريكية نموذجا آخر لا يخلو من [illegible]
نظرا لعدم وجود مراكز أو مناطق ثقافية أو سياسية مسيطرة كما هو الحال بالنسبة
إلى لندن مثلا أو باريس ، وبالنظر أيضا إلى تعدد الولايات والأقاليم [illegible]
أدى ذلك كله إلى ان تكشف اللغة المنضبطة عن كثير من التنوعات [illegible]
خاصة في ناحية النطق ٠

ومع انه يمكن القول بوجه عام ان معظم الدول النامية تمتلك شعوبهـا
لغاتها المنضبطة التي تتحدث أو تكتب بها ، كما انها تمتلك وعيا عاما بالدلالـة
السياسية والاجتماعية لهذه الناحية ، فان هناك من المشكلات مايتعين التوقـف
أمامه مع ذلك ، وهي مشكلات يمكن أن نصفها بأن لها اكثر من جانب واكثـر
من زاوية ٠

فمن ناحية نجد في معظم الأحيان ان غالبية السكان الريفيين ومعهـم
بعض الشرائح والفآت أو الطبقات الأدنى في المدينة ، لايتكلمون لهجات واضحـة
ولكن مايمكن ان يوصف بانه لهجة فرعية أو لهجة جانبية Bidialect ٠

ولا تقف اهمية هذه الملاحظة عندحد هذه الازدواجية ، ولكنها تتجـاوز
ذلك إلى مايختفي وراءه من دلالة اجتماعية عندما يستخدم الناس في المواقـف
الرسمية اللغة الاساسية المنضبطة ، ولكنهم في لقاءاتهم الحميمة وفي جلساتهـم
الضيقة التي تجمعهم ومعارفهم وأصدقائهم ، يتركون هذه اللغة جانبا ليتبادلـوا
الحديث بلهجاتهم المحلية ، التي قدتكون لهجة بلدتهم أو قريتهم٠

ولا تقتصر هذه الظاهرة على من ينتمون إلى أصول ريفية فحسب، ولكنهـا
تنتشر أيضا بين أهل المدينة وسكانها عندما يستخدمون فيما بينهم مايعـرف
باللغة الدارجة (العامية) Colloquial التي يساندها وتدفـع

اليها العديد من العوامل السيكولوجية والاجتماعية مثل الشعور بالتضامن والفخر والانتماء إلى منطقة (مثلا) من المناطق أو تقليد من التقاليدالتي توجد بهذه المنطقة أو تلك.

(٥)

ومع ذلك فقد شغلت ظاهرة التغاير اللغوى تفكير العلماء ولكن من زاوية أخرى .

فالمعروف فى البحوث اللغوية ان كثيرا من المجتمعات تختلف فيها لغة الرجال عن لغة النساء اختلافا قد يكون بسيطا أحيانا أو واضحا وملموسا حتى ليلفت أنظار الباحثين فى أحيان أخرى . ويصل الامر ببعض هذه الاختلافات اللغوية بين الرجال والنساء ان بعض المجتمعات تلقنها لاطفالها من الجنسين منذ الصغر فى اثناء عملية التربية أو التنشئة الاجتماعية كى يتمثلوها ويشبوا عليها .

ولقد شغلت هذه الظاهرة التى اطلق عليها علماء الاجتماع اللغوى ظاهرة التغاير اللغوى الجنسى sex أذهان العلماء وكان أحد الاسئلة التى تساءلوها تدور عن الكيفية التى تنشأ بها هذه الاختلافات والأسباب التى تجعل الرجال والنساء يتكلمون بطريقة مختلفة وماهى أيضا طبيعة العوامل التى قدتجعل هذه الاختلافات اكثر أو أقل وضوحا ؟

ولقد كانت احدى الملاحظات المنهجية التى توصل اليها هؤلاء العلماء انيصعب تفسير هذه الاختلافات فى ضوء مصطلح البعدالاجتماعى وحده إذ لاحظوا وجودها حتى فى تلك المجتمعات التى تسمح بقدرملحوظ من الحرية فى اتصال الرجال والنساء وحيث لايوجدالكثير من الحواجز الاجتماعية التى قد تحول دون تدفق الاتصال . ومن هنا فقد استبعدوا فى تفسيرهم لهذه الظاهرة تلك العوامل التقليدية التى ترتبط بالطبقة أو الجماعة العرقية أواللهجات الاقليمية أو المحلية.

والمثال المألوف لدى دارسى التغاير اللغوى الجنسى مستمد من قبائل الغرب الامريكى بصفة خاصة ، فقداكتشف الرواد الاوائل الذين وصلوا الى الانديز وأقاموا الصلات المبكرة مع هذه القبائل ان الرجال والنساء يتكلمون لغات مختلفة بشكل لم يكن معروفا فى أى مكان فى العالم حتى ذلك الوقت.

ويكشف أحد التقارير الحديثة التى ترجع الى القرن السابع عشر عن أن الرجال لديهم الكثير من التعابير الخاصة بهم والتى تفهمها النساء ولكنهن لاينطقنها أو يتفوهن بها والا كن مثارا للسخرية الأمر الذى يجعل الاحاديث العادية تظهر وكأن لكل من الرجال والنساء لغته الخاصة.

ولقد كان المعتقد فى أول الامر ان لغة الرجال تختلف عن لغة النساء اختلافا كليا . ولكن البحث فى هذه الفوارق بين أن الامر لايعدو ان يكون اختلافا فى الكلمات والتفاسير ذاتها وليس فى اللغة ككل، بمعنى ان الرجال والنساء يتكلمون لغة واحدة وانما الذى يختلف هو مضمون أحاديث كل من الجنسين .

ولقد ذهب أحدالتفاسير المبكرة لهذا الاختلاف الى انه نتيجة امتزاج مجموعتين لغويتين مختلفتين هما لغة الكاريب Carib ولغة الارواك Arowak نتيجة لما تم بينهما من غزو.

غير أن هذا التفسير الذى يقوم على نظرية الغزو Invasion قد لقى كثيرامن الانتقادات أهمها أولا ان هذه الاختلافات التى وجدها العلماء بين هنودالكاريب تشبهكثيرا الاختلافات التى وجدت فى لغات غيرهم من الهنود الامريكيين . وثانيا ماذهب إليه أوتويسبرسن من أن التغاير الجنسى قديكون فى بعض الاحوال مرتبطا بظاهرة التابو أو التحريم التى تسود هذه الجماعات والشعوب البدائية . فالمعروف انه فى تلك الظروف التى كان الرجال يخرجون فيها للغزو والحرب كانت هناك مجموعة من الكلمات التى يحرم على المرأة استخدامها تماما والا أصيب زوجها بالشر والسوء وأصابه النحس . ويرى يسبرسن

انمن المحتمل ان هذا التحريم كان من القوة والنفوذ على تطور كلام الجنسين بشكل أوضح الفوارق فى استخدامات كل منهما للكلمات والمصطلحات والتعابير . وحتى اذا ما ارتبطت هذه الكلمات والمصطلحات فى الاستخدام العادى فالارجح أن يظهر الامر وكأن للرجل والمرأة عالمه اللغوى الخاص بوذلك على مانجد بين قبائل الزولو Zolo التى لاتسمح للمرأة ان تنطق باسم حميها أو اخوته وانها تتعرض للموت إذا خرقت هذا التابو وخرجت عليه . وهو تحريم كان يمتدليشتمل على كثير من الكلمات والاصوات على الرغم من ان هذه التفاسير التى ترتكز على فكرة التابولم تسلم بدورها من الانتقادات على اعتبار انها لاتوضح تماما الكيفية التى حدثت بها الاختلافات فى اللهجات الجنسية أو الكيفية التى انتشرت بها هذه الاختلافات لتصبح ظاهرة تكادتكون عامة بالنسبة إلى المجتمع كله .

وتعكس اللغات الحديثة مثل هذه الاختلافات القائمة بين الجنسين . وقدكشفت احدى الدراسات الاجتماعية عن حقيقة ان المرأة فى المجتمع الانجليزى مثلا تكون اكثر انتباهاوادراكا لمكانتها الاجتماعية أثناء حديثها مع الرجل . وتذهب هذه الدراسات إلى انه نتيجة لذلك نجدأن المرأة اشد حساسية من الرجل من حيث الدلالة الاجتماعية التى تعكسها المتغيرات اللغوية المرتبطة بالطبقة .

ومن الناحية الأخرى فقد كشفت هذه الدراسات أيضا عن أن حديث الطبقة العاملة بصفة عامة يعكس كثيرا عن خصائص الخشونة والرجولة التى تجعل الرجال أقل ميلا للخضوع الى قواعداللغة واشكالها المنمطة اكثر من النساء اللائى يعتبرن اكثر تأنقا فى اختيارهن للالفاظ والكلمات وطريقة التعبير عنها .

ويمكن فى ضوء هذا كله تفسير الاختلافات اللغوية بين الجنسين على الاقل فى المجتمعات الناطقة باللغة الانجليزية واستنادا الى البعد الطبقى بمعنى ان هذه الطبقة العليا تمتلك لغة أدق واكثر فصاحة من لغة الطبقة الدنيا أو الطبقات الأدنى عموما . ومن هنا نجدبعض الضغوط الاجتماعية التى تمارس فعلها على المتكلمين لكى يكتسبوا المهابة ويظهروا بمظهر ذوى اللغة الراقية باستخدامهم الاشكال اللغوية التى يتناولها أفراد الطبقة الراقية .

واذا افترضنا تساوى كل الظروف ، فالارجح أن تكون هذه الضغوط الاجتماعية أقوى بالنسبة الى المرأة عن الرجل بسبب احساسهن المتيقظ باستمرار بالشعور بالمركز وبوضعيتهن الاجتماعية . واذا اضفنا إلى ذلك كله ان التحدث بنفس كلمات وتعابير الآخرين ومصطلحاتهم مما يؤخذ عموما كدليل على التضامن الاجتماعى والتماسك بين أفرادالجماعة الكلامية فإن هذا يبرر انتشار كلمات بذاتها بين كل جنس من ناحية كتعبير لاشعورى عن مدى الانتماء إليه.

والواقع ان تلك النقطة التى أشرنا اليها فيما يتعلق بالرجولة هى أهم مايلفت النظر فى القضية كلها من حيث انها توضح لنا الاجابة على ماسبق أن تساءلناه عن الأسباب التى تقوم وراء الاختلافات اللغوية بين الرجل والمرأة ، حيث نجد ان المجتمع نفسه يفرض على كل من الرجل والمرأة أدوارا اجتماعية بعينها ويتوقع من كل منهما أن يسلك بطريقة معينة تختلف أيضا بالنسبة الى كليهما . ويمكن القول ببساطة ان اللغة تعكس هذه الحقيقة الاجتماعية ذاتها . فحديث أو (كلام) الرجل والمرأة لايختلفان فحسب ولكن يمكن القول ايضا ان (كلام) المرأة افضل اجتماعيا من لغة الرجل وهذا انعكاس للحقيقة الاجتماعية ايضا القائلة بأن المرأة ينتظر منها ان تسلك سلوكا اجتماعيا أرقى وأسلم من الرجل لا لشىء إلا لأن المجتمع نفسه يتوقع ذلك من المرأة وينتظره منها .

ويترتب على هذا احدى النتائج الهامة وهى انه كلما كان التفاضل والاختلاف فى الادوار الاجتماعية أوضح بين الرجل والمرأة فى مجتمع بذاته كانت الفوارق اللغوية أوضح بين الجنسين كذلك. بمعنى آخرفانه يمكن القول إذن ان مختلف التغايرات والاختلافات الجغرافية والعرقية وحتى تلك المرتبطة بالطبقة إنما هى فى جانب كبير منها نتيجة للبعدالاجتماعى ، على حين ان الاختلافات المتعلقة بالجنس نتيجة للتغاير أو الاختلاف الاجتماعى . فالاختلافات الاجتماعية وبالتالى أوجه السلوك هى امور يتوقعها المجتمع من كل من الرجل والمرأة على السواء وما التغايرات الجنسية سوى تجريد أو رمز لهذه الحقيقة . فاستخدام المرأة لألفاظ بذاتها وكلمات بذاتها وبطريقة بذاتها إنمايقوم بمثابة دليل على التوحد بمقولة الأنثى التى يتعين عليها أن تتصرف كأنثى فى ضوء مايضعه المجتمع المعين من قواعد ومعايير للفعل والسلوك.

فالتغايرات الجنسية هي اذن نتيجة لتغاير الاتجاهات الاجتماعية المختلفة تجاه سلوك الرجل والمرأة . وربما من هنا يمكن فهم ردود الفعل التي يظهرها البعض استحسانا أو استهجانا عندما يتلفظ الرجال بألفاظ النساء أو عندما يحدث العكس إذ يعتبر ذلك إخلالا بالدور الاجتماعي المرسوم للجنس المعين من ناحية ، وهزة للاتجاه الاجتماعي في الوقت نفسه وما تعود عليه من سلوك لفظي من ناحية ثانية .

الباب الرابع

اللغة ومشكلات التطور اللغوى العام

الفصل الثانى عشر

التغير اللغوى

يشتمل لفظ " اللغة" على كثرة Multiplicty من المعانى والمضامين • وقد يكون فى مقدورنا الآن أن نميز بين معنيين رئيسيين لهذا اللفظ أولهما اللغة باعتبارها امكانية أو قدرة نوعية عامة يتمتع بها الجنس البشرى والمعنى الثانى هو اللغات باعتبارها المظاهر أو التجسيدات المختلفة لهذه القدرة النوعية كاللغة العربية على سبيل المثال أو اللغة الفرنسية أو اللغة الانجليزية أو اللاتينية أو السواحيلية ••• الخ•

وعلى الرغم من انه لاتوجدحتى الآن لغة يمكن أن توصف بأنها لغة شاملة أو عالمية يتداولها كل افرادالنوع سواء اكانت لغة منطوقة أو لغة مكتوبة ، فان فى مقدور الباحث ان يتخذ من " اللغة " فى عمومها ــ أى من حيث هى لغة ــ موضوعا لدراسته وذلك بتركيزه على الملامحوالخصائص والمكونات العامة التي تشترك فيها مجموعات من اللغات المختلفة فيصف هذه الجوانب جميعها ، وبالتالى الطرق التى يتم بها تفسير العلاقات او الارتباطات المختلفة فيما بينها •

ولكن سواء اكان تركيز الباحث على اللغة فى عمومها او على لغة بذاتها ، أو على مجموعة بعينهامن اللغات ، فثمة عدة أمور لاجدال فى انها سوف تكون موضع اهتمامهومحط انتباهه • وهذه الامور هى أولا ، ان كل لغة من اللغات الحية Living لهاتاريخها الخاص • وثانيا ان اللغات جميعها تخضع لكافة التغيرات التى تصيب الثقافة الانسانية اثناء عملية انتقالها ، وهذه خاصية من الواضح انها تضيف إلى تلك الاختلافات الجذرية بين الثقافة الانسانية وبين السلوك الحيوانى • وثالثا ، ان اللغة تتسم بالمرونة البالغة ولذا فهى عرضة للتحول الدائم والتبدل المستمر ، استجابة لكل مايطرأ على الثقافة وعلى المجتمع من تغيرات•

والحقيقة ان هذه الظاهرة التى يعرفها العلماء بظاهرة التغير اللغوى

Linguistic change قد مثلت دائما احدى المشكلات الرئيسية التى طالما شغلت أذهانهم،فالتغير اللغوى ولو انه ظاهرة عامة تخضع لها كل اللغات الا انه لايحدث مع ذلك بدرجة واحدة او حتى عن وعى من الافراد الذين يتكلمون هذه اللغة أو تلك ٠ كما قديكون التغير بطيئا لدرجة يصعب معها التعرف على ملامحه أو حتى الانتباه إلى آثاره إلا بعدأجيال عديدة ، أو بعد فترة طويلة نتيجة لتراكم مظاهر التغير على مر الزمن ، أو قد يكون ـ التغير سريعا حتى ليمكن التقاط مظاهره والوقوف على آثاره ونتائجه خلال فترة قصيرة نسبيا من الزمن ، قدلاتزيد عن الجيل الواحدأو حتى على العقدالواحد ، وبخاصة فى تلك الاوقات والظروف التى تتسم بالتغيرات الاجتماعية والثقافية السريعة والمتلاحقة ٠

وعلى الرغم من ان هذا كله خليق بأن يلقى بمزيدمن الصعوبات أمام الباحثين ، فان طبيعة التغير اللغوى ذاتها ، والكيفية التى يقع بها هذا التغير وبالتالى محاولة التعرف على أسبابها قدأضافت دائما إلى هذه المشكلات فالتغير يصيب كل عناصر ومكونات اللغة ،إذ يصيب النطق كما يصيب شكل الالفاظ وصيغها وتراكيبهاوكذلك المعانى أو مايعرف بد لالة الالفاظ والمفردات ٠وان كانت المعانى أو الدلالات هى اكثر العناصر التى تتعرض للتغير أو التى تنعكس فيها بالتالى آثار هذا التغير ٠

واذا كانت السجلات المحفوظة قد أكدت على حقيقة ان اللغة الانجليزية التى كانت متداولة فى القرن الخامس عشر مثلا تختلف اختلافا واضحا عن اللغة الانجليزية التى يعرفها القرن العشرين (١) ، والشىء نفسه أيضا بالنسبة

(١) والحقيقة ان واحدة من اشق مهام علماء اللغة فى القرن التاسع عشر كانت تتمثل لا فى محاولة الكشف فحسب عن جهودالسابقين فى محاولة فهم ظاهرة التغير اللغوى ولكن فى ان يضعوا بحوثهم العلمية فى داخل اطار منتظم ومتسق يسبغ المعقولية على هذه البحوث فى ضوء متطلبات المنهج المقارن بصفة خاصة ٠

إلى اللغات الأخرى مثل فرنسية أو المانية القرن التاسع عشر بالمقارنة بفرنسية والمانية القرن العشرين، فلعل أوضح النماذج التى تشير إلى التغيرات الحاسمة التى تطرأ على دلالة كلمات اللغة ومفرداتها ، هو ما أصبحنا نشاهده اليوم فى لغة العلم والتكنولوجيا التى اصبحت من أبرز السمات فى القرن الذى نعيشه. والشيء ذاته يصدق بالدرجة نفسها بالنسبة إلى تلك العناصر والجوانب المتعلقة بالمفردات التى تستخدمها وتنطوى عليها الصور (والانماط) الحديثة والمبتكرة من الكلمات العامية (الدارجة) Slang وكذلك مايعرف بالكلمات المدغومة أوالسرطانة والبرطمات Jargons وهى الانماط والطرز التى يتوقف تداولها ورواجها بين من ينتمون إلى الجماعة او الفئة العمرية الواحدة بصفة خاصة ، على مدى ما يتمتع بمن جدة وطرافة وحيوية باعتبار انها تمثل جميعها مظهرا من المظاهر التى يعبر به الافراد عما يوجدبينهم من ترابط وتضامن من ناحية ، وعما يتخذونه حيال الآخرين ـ وبخاصة الأجيال الاكبر ـ من مواقفواتجاهات من ناحية ثانية.

(٢)

هذه الخاصة التى يصفها البعض بانها خاصة فطرية فى اللغة وأعنى بها تغيرها خلال الزمن من الطبيعى ان تنتهى باللغة ـ أية لغة ـ إلى التشعب والتفرع إلى لغات أصغر والى العديدمن اللهجات ، وهى عملية يبدو انه من الطبيعى أيضا ـ استطرادا مع منطق التغير واستمراريته ـ أن تظل الى مالانهاية حتى تفقداللغة الأصلية كل مقوماتهاووحدتها ، ذلك إن لم يكن هناك عوامل مضادة فى الطبيعة البنائية والوظيفية ذاتها للغة تحول دون ذلك وتعوقه.

والحقيقة ان إحدى الظواهر المثيرة للدهشة والاستغراب بالفعل تتمثل فى ذلك التعددالهائل والاختلافات البينة التى أصبحنا نراهابوضوح فى اللغات واللهجات (١) لدرجة ان ثمة عدة آلاف من اللغات مازالت قطاعات كبيرة من البشر

(١) يصل الامر فى ذلك الى حدانه يمكن القول بأن شخصين ما يتكلمان لغتين مختلفتين اذا لم يتيسر لكل منهما ان يفهم الآخر. ونتيجة لهذا يذهب بعض العلماء الى ان الخطوط الفاصلة بين اللغة والفهم وحتى =

في مختلف انحاء العالم تستخدمها في أحاديثها وفي التفاهم والاتصال . وقد بلغ عددهافي القارة الافريقية وحدها حوالي ثمانمائة لغة ولهجة. ومثل هذا يمكن ان يقال بالنسبة الى لغات العالم ولهجاته حيث يقدر عددها بما يتراوح بين ٢٥٠٠و ٥٠٠٠ لغة ولهجة. ذلك بخلاف مايؤكده علماء اللغة من انه كانت هناك ولاشكاعدادتفوق هذه الآلاف بكثير من اللغات واللهجات الميته dead التي لم يعد يستخدمها أحداًو حتى اختفت من المجتمعات التي وجدت فيها (١) .

وعلى الرغم من أن هذا المنظر الشامل كاف في ذاته لأن يكشف عن مدى تفرع الظاهرة اللغوية وانشعابها ، فانهيصعب الاقناع بأن كل هذا يتم بطريقة غير عشوائية.بمعنى انه يوجدبالفعل فيماوراء هذه البرقشة أو هذه الألوان التي تنكشف لنا الظاهرة اللغوية من خلالها نوعمن النظاموالترتيب والمبادىء الاساسية التي تحددشكل وطبيعة مثل هذا الاتساق المطلوب للوفاء بغايات الانسان وحاجاته (٢) . وهو الاتجاه الذي تأدى بالعلماء على اى الاحوال الى أن يؤكدوا على حقيقة ان اللغات المختلفة أيا كان المدى الذي تفرعت به ، لابد

= وحتى الكلمات العامية (الدارجة) أو بعض انماط السلوك اللغوي الاخرى كالبرطمة مثلا ليست خطوطا قاطعة معايجعل من السهل ان تتداخل جميعها وتتشعب فيما بين بعضها البعض.

(١) تؤكد بعض الاحصاءات انه كانت هناك مع منتصف القرن كثرة من اللغات التي تستخدمها شعوب يزيدعدد سكانها على الخمسين مليونا . وذلك مثل اللغة الصينية (٤٥٠مليونا) واللغة الانجليزية (٢٥٠مليونا) واللغة الهندوستانية (١٦٠ مليونا) والروسية (١٤٠ مليونا) والاسبانية (١١٠ مليونا) والالمانية (١١٠ مليونا) واليابانية (٨٠مليونا) والفرنسية (٧٥مليونا) والملاوية والبنجالية (٦٠ مليونا) والايطالية والبرتغالية (٥٥ مليونا) واللغة العربية (٧٥ مليونا) .
يمكن الرجوع في ذلك الى Crystal David ., linguistics. language and Religion. Barns & Oates, London. 1965. p. 111.

(٢) Greenberg, Joseph., Universals of language cambridge mass: the M I.T. press. 1963. pp. 21-3.

وأن تكون قدانبثقت أو تفرعت أساسا عن بعض أصول محددة هى ما أطلقوا عليه اسم الفصائل أو العائلات Families العامة الكبرى التى اعتبرت الأصل الاول لكل ما هنالك من لغات ولهجات ٠

وقد يكون من الصعب حقيقة الوصول الى ما اطلق عليه فيتجنشتين النظرة الجلية perspicuous أو الواضحة للغة تلك التى يشتمل إطارها على مختلف الاشكال التى يتم فيها التغير اللغوى وتؤدى الى الكشف ايضا عن تلك المبادىء الاساسية او مايعرف بالعموميات اللغوية linguistic universals التى تكشف بدورها عن طبيعة اللغة ومن ثم إمكانية التوصل إلى نظرية عامة يمكن أن تفسر فى ضوئها العلاقات والمشابهات مابين اللغات المختلفة ومايقوم فى هذا الكل المركب من حقائق لغوية٠

وليس من شك فى ان الاهتمام بدراسة هذه النواحى جميعها هو اهتمام قديم ٠ ونحن وان كنالن نقف طويلا أمام هذه الناحية الا انه من المهم القول انه قدظهر لدى الاغريق القدماء فنجده فى محاورة أفلاطون cratylus التى اهتم فيها بابراز دور الاتفاق والتعارفات conventions فى اللغة ذلك على الرغم من انهم (الاغريق) كانوا يلحقون دراستهم للغة بدراسة بعض ألوان المعارف الأخرى كالفلسفة والمنطق الصورى بخاصة٠

ومع ان الدراسات اللغوية المعاصرة قد أمكنها الكشف عن الكثير من الاخطاء فيما قدمه الفلاسفة وعلماء النحو الاغريق من تحليلات ، وبخاصة فيما يتعلق باعتقادهم ان كل لغات العالم انما تجرى على مقياس لغتهم أى اللغة اليونانية القديمة ، ومن ثم فقداعتبروا هذه اللغة مقياسا أومعيارا لكل اللغات التى تشتمل بالضرورة على مبادىء عقلية (نزولا على نزعتهم العقلية) ، فان الكثير من مباحثهم اللغوية قدانتقلت إلى الرومان وبخاصة فى مسائل النحو والصرف والتراكيب(١) على مانجدفى القواعدالقياسية أو المعيارية climactic

---

(١) Black, M., Op.cit.p.7.

التى خلفها ديونسيوس ثراكس Dionysius thrax فى القرن الثانى قبل الميلاد وتلك التى خلفها فى القرن الثانى الميلادى أبولونيوس ديسكولوس Dyscolus والتى اعتبرت بمثابة نماذج يحتذ يها النحويون لفترة طويلة امتدت إلى نهايات العصور الوسطى (١).

كذلك فقدقدمت لنا الهند كتاب بانينى Panini فى قواعد نحو اللغة السنسكريتية sanskrit لغة الهنودالقدماء والذى يرجع الى حوالى عام ٢٥٠٠٠ ق٠م ويعتبر من وجهة نظر الكثيرين واحدا من أعظم الاثار أو التذكارات التى انجزها الذكاء البشرى (٢). وهى مرحلة أسبق على أى الاحوال بكثير من تلك المرحلة التى شهدت اعمال فلاسفة الصين القديمة وعلمائهم فى الفيلولوجيا Philology أو مايعرف بفقه أو فلسفة اللغات وهى الأعمال التى مازالت اثارها قائمة منذ عصر كونفوشيوس Confucius.

بيدانه ايا ما كانت المتعة التى تثيرها هذه البدايات المبكرة فقد حجبها جميعا الانفجار الهائل الذى عرفه القرن التاسع عشر فى الدراسات اللغوية حيث برزت مجموعة من الاسماء العملاقة التى يرجع اليها الفضل الحقيقى فى ارساء حجر الأساس لعلم اللغة الحديث٠ وفى مقدمة هؤلاء من العلماء الالمان فرانزبوب Popp وجاكوب جريم Grimm (٣) وأوجيست شليشر

(١) Robins,R.H.,Ancient and mediaval grammatical theory in Europe.London.Bell&Sons.1951.p.131.

(٢) Bloomfield,L.,Language Holt,Rinehart & Winston, Inc.,N.Y.1933.p.11.

(٣) يرجع الفضل الى جريم فى الكشف عن القوانين والقواعد التى تحكم الاصوات والعلاقات الصوتية فى اللغات المختلفة وهو ما اصبح معروفا باسم قانون جريم Grimm Law على الرغم من ان جريم نفسه لم يستخدم مصطلح القانون وعلى الرغم من المعارضة الشديدة التى لقيها هذا الاتجاه القائل بانتظام التغير الصوتى وبخاصة كما عبر عنه علماء النحو والصرف الجدد Neogrammarians فى السبعينات والثمانينات من القرن الماضى فقد اصبحت الدراسات المتعلقة بالتغيرات الصوتية التى تطرأ على اللغة او اللهجة خلال حياتها أمرا مسلما به بين العلماء فى اواخر القرن وذلك بفضل ما القاه قانون جريم على هذه النواحى من اضواء٠

وقد كشف الاول فى كتابه" نظام تصريف Schleicher ·
السنسكريتية" systéme de la conjugaison du sanscrite
الذى قدمه فى عام ١٨١٦ عن العلاقات التى تربط بين اللغة السنسكريتية وبعض اللغات الأخرى كاللغة الجرمانية واللغة اللاتينية·

كذلك فقد تمكن هؤلاء العلماء من إماطة اللثام عن قوانين التغير الصوتى والعلاقات المتشعبة الدقيقة التى تقوم بين مختلف اللغات التى تضمها الفصيلة (العائلة) الهندو أوربية الامر الذى ينظر اليه البعض على انه كان وراء ذلك التصور الذى اصبح يأخذ به الكثيرون والقائل بانتماء السنسكريتية ومعظم لغات الفصيلة الهندو أوربية الى سلف واحد مشترك هو الهندو أوربية البدائية أو الام . Primitve Indo -Europen

وهكذا فقد انبثقت عن تلك الجهودتلك البحوث التى تراكمت معارفها لتشكل فى آخر الامر تلك الاتساق العلمية التى اصبحت معروفة لنا باسم علم اللغة المقارن comparative linguistics الذى يختص بدراسة مجموعة من اللغات التى تنتمى الى فصيلة لغوية واحدة بمعنى انها ترجع جميعها الى أصل واحد مشترك بغرض إعادة بناء اللغات القديمة فى ضوء ماينكشف من علاقات التشابة أو التغاير والاختلاف · وكذلك علم أصول الكلمات أو الاتيمولوجيا _ كماسبقت الاشارة _ والذى يهتم بالبحث فى الأصول الأولى التى تجيء منها الكلمات فى لغة معينة بذاتها ·

ويكفى أن ينظر الباحث إلى احد تلك المعاجم أو القواميس الضخمة ليجد أمامه دليلا حيا على تلك المبادىء التاريخية التى انتهجتها تلك الجهود العملاقة التى مازالنا ندين لها بالعرفان على اكثر من نحو·

والواقع ان النجاح الذى لقيته تلك المناهج التى سعت الى تطويرها المدرسة الالمانية قد أدى الى اتساع دائرة استخدامهاوتطبيعتها بنجاح فى دراسة العديدمن المجموعات والأسر اللغوية وبخاصة تلك التى لها صلات قرابية باللغة

الهنجارية Hungarian مثلا وغيرها من اللغات التى تستخدم بصفة خاصة فى جزر الباسيفيكى والمحيط الهندى كاللغات الاسيوية القديمة والملايوية البولينزية وهى دراسات أثبتت نتائجها تلك الروابط القرابية الوثيقة القائمة بينها ، كما اثبتت أيضا ان هذه الروابط هى مظهر عالمى وعام يمكن الالتقاء به فى كل تاريخ تطور اللغات مما جعل من السهل الاحاطة بالعديد من المشكلات المرتبطة بالتطور وأوضح فى الوقت نفسه الأسس والمبادىء التى يتسنى حلها فى ضوئها .

(٣)

من الواضح ان هذه الدراسات اللغوية التاريخية Historical or Diachronic التى قلنا إنها انبثقت أساسا من المنهج المقارن قد ركزت بصفة رئيسية فى دراسة اللغة من خلال التغيرات التى تطرأ عليها وفى محاولة فهم الكيفية التى تتم بها هذه التغيرات والاسباب التى ترجع اليها فى الزمان . أو بتعبير آخر الكيفية التى تتشعب بها اللغات الاصلية الأولى أو اللغات الأم إلى العديدمن اللغات المستقلة .

ولقدأخذ العلماء بهذا الصدد بوجهتى نظر أساسيتين أولاهما النظر الى فصائل اللغة أو الفصائل اللغوية من ناحية التطور والارتقاء Genetic Classifications بمعنى ان هؤلاء ربطوا مسألة التطور والتشعب اللغويين بما يطرأ على اللغة من تغيرات تتعرض لها اثناء حياتها كماسبق القول . أما وجهة النظر الثانية فتتمثل فيما ذهب اليه البعض الآخر من العلماء من النظر إلى هذه المسألة من حيث الاتفاق فى الاصول وفى القواعدوالبناء Typologi- cal classification أو وفقا لخصائصها البنائية .بمعنى انهم قسموا اللغات الى عائلات وفصائل ترتبط كل منها بروابط وصلات لغوية تنعكس فى أصول الكلمات وفى هيكلها التركيبى(البناء) ومن حيث قواعدالنحو والصرف التى تجرى عليها ،ومن ثم تتكون نتيجة لهذا مجموعات متمايزة ذات أصول واحدة أو متقاربة تقاربا شديدا على الاقل . اضافة الىبعض الروابط الجغرافية والاجتماعية والتاريخية التى تشارك فيها على نحو أو آخر .

وربما كانت نظرية شليجل Schlegel هى أشهر النظريات التى نجحت فى أن تجذب اليها العديد من الانصار حيث قسم اللغات الانسانية إلى ثلاثة اقسام أو ثلاث فصائل هى أولا اللغات غير المنعزلة او العازلة Isolating ، وثانيا اللغات اللصقية أو الوصلية agglutinating ، وثالثا اللغات المنصرفة أو التحليلية Inflecting .

وفيمايتعلق بالفصيلة الاولى أى اللغات غير المتصرفة (العازلة) فقد قصد بها شليجل تلك اللغات التى لاتقبل كلماتها التصريف سواء عن طريق تغيير الشكل والبناء ، أو عن طريق الوصل أو لصق الحروف مما قديؤدى بدوره إلى تغير فى المعانى ذاتها نزولا على المبدأ الاساسى فى ارتباط الدلالة او المعنى بالتركيب. فكل كلمة تلازم صورة واحدة وتدل من ثم على معنى ثابت لايتغير . ومثال ذلك اللغة الصينية واللغة الفيتنامية Vietnamese الصينية التبتية sino -tibetan فقدسميت غير متصرفة لأن كلماتها لايتغير معناها ولاتتصرف ، كما اعتبرت عازلة لانها تعزل أجزاء الجملة بعضها من بعض ولا تكشف عن الصلات أو الروابط والعلاقات القائمة بينها .

وفيما يتعلق بالقسم الثانى وهو الخاص باللغات اللصقية أو الوصلية فالمقصود بذلك إن تغير معنى الاصل إنما يحدث نتيجة لما يحدث من وصل للحروف سواء تم هذا الوصل إما قبل الاصل أو بعده ومثال ذلك اللغات التركية turkich التى يمكن أن ينقسم شكل الكلمة فيها الى شكلين من أشكال الوحدات الصوتية لكل منها وضعية أو مكانة نحوية . وكذلك بعض لغات وسط وشرق اسيا مثل اللغة المنغولية mongol- Mongol , ian وهذه تنتشر فى وسط آسيا وبصفة خاصة مابين افغانستان ومنشوريا manchuria بالاضافة الى مساحات واسعة من اقصى الشرق وشمالها . واللغة اليابانية ولغات البانتو Bantu التى تضم

مجموعة ضخمة من لغات جنوبووسط افريقيا [1] وكذلك لغات الايراكــــــوا Iroquios أو الهنودالحمر أو السكان الاصليين لامريكـــــا American Indians .

أما اللغات المتصرفة أو التحليلية فتمتاز من حيث البناء والتركيــب أو الناحية المورفولوجية عموما بتغير دلالتها ومعانيها بتغير شكل هذا البنـــاء والتركيب الامر الذى يتم إما نتيجة لاتصال أجزاء الجملة بعضها ببعض بروابــط تدل على مختلف العلاقات . واما بتغير مواقع الكلمات واخضاعها لنوع أو آخــر من التقديم أو التأخير بحسب ما يمليه النظم أو التركيب (النحو) السليم .
ومثال ذلك اللغة العربية واللغة الفارسية والهندية والاغريقية والعبرية وغيرهــا من اللغات السامية Samitic . واللغات الهند أوربيـــة القديمة .

والواقع انه لاتوجد حدود على مدى التغاير الذى يمكن أن تصنف بــه اللغات وفقا لهذا المبدأ ، اذ يستطيع الباحث أن يميز بين اللغات التى تتمتـع بوفرة نسبية فى فونيماتها phoneme وتلك التى تفتقر إلى مثل تلــك الوفرة فى الاصوات الاولية. كما قد يستطيع الباحث ايضا أن يميز بين تلـــك اللغات ذات المعدلات المرتفعة أو العالية من الصوامت consonant نسبة إلى حروف الحركة Vowels أو مايعرف بالمقاطع المغلقــة

---

(1) لغات البانتو هي اكثر اللغات الافريقية انتشارا سواء من حيث عـــدد اللغات أو عدد الناطقين بها حيث بلغ تعدادهم اكثر من ١٧٠ مليـــون نسمة وتذهب الاحصاءات الى انه هناك اكثر من١٥ لغة من لغـــات البانتو يتحدث بكل منها مايزد على ٣ ملايين نسمة على حين يتحـــدث اكثر من ٥ملايين نسمة كل من لغة روانذا Rwanda وشاونـــا والكونجو Kongo واللوبالولا luba-lula والهوســـا xhosa والزولو Zulu .

انظر فى ذلك : The New Encyclopaedia Britannica vol.22.op.cit.p.598.

التى تنتهى بصوت صامت closed syllable ، عن تلـــــــك ذات المعدلات المنخفضة بالنسبة إلى الأصوات المتحركة أو الحركة ، أو حتى بيـــن اللغات التى تتمتع بنظام مفتوح وحر فى ترتيب أو تركيب كلماتها على العكس مـــن اللغات التى لاتعرف مثل هذا النظام أو النمط المفتوح٠

وبالرغم من كل مايبدو فى مثل هذا التصنيف من وجاهة على اعتبار ان هذه المراحل قد اعتبرت من وجهة نظر البعض أشبه بالتطور العام الذى نجده فى لغـة الطفل ، فقد قوبل بغير قليل من النقدوالهجوم والتجريح وذلك بسبب الاختـلاف حول نوعية الخصائص التى ينبغى الالتفات إليها ، وبالتالى الاتفاق على الدلالـــة التى يمكن القول بها لهذا التصنيف اللغوى أو ذاك ٠

والمعروف ان جانبا كبيرا من العلماء قد سادبينهم ــ وحتى وقت قريب ــ الاعتقاد بأن اللغة الانسانية كانت فى المبدأ من النوع الأول الذى حددتــــه نظرية شليجل أى من اللغات غير المتصرفة (العازلة) ثم ارتقت مع التطـــور لتصبح من النوع الثانى (اللغات الوصلية) وأنها قدأصبحت مؤخرا وبعد ماتطورت تماما من النوع الثالث أى من تلك اللغات التى وصفت بأنها لغات متصرفـــة وتحليلية٠

وعلى الرغم من أن البعض قدعبر عن عدم اقتناعه بمنطق هذا التصنيـــف تأسيسا على انه لاتوجدمن الشواهد ما يؤكد الاعتقاد بأن المراحل الثلاث هـــى مراحل منفصلة كما نزعم النظرية ، ولكنها توجدواقعيا فى كل اللغات الانسانيـــة فان الأهم من ذلك هو ماقرره البعض الآخر من أن هذا التصنيف لايكشف فى ذاته عن وجود علاقات تطورية بين اللغات٠

وفيما يتعلق بالناحية الاولى فالواقع اننا نجدالكثير من اللغات مليئـــة بمظاهر التصريف والتحليل ٠ ومثال ذلك اللغة العربية التى توجدبها مظاهـــر التصريف والتحليل وفى الوقت نفسه يوجدبها أيضا الكثير من المبدأين الآخريين ٠ بمعنى أن اللغة العربية تسير على مبدأ الربط أو اللصق بالحروف اللاحقـــة

أو السابقة التى تأتى بعدالجملة أو فى آخرها مثلما نجدفى جمع المذكر السالــــم وجمع المؤنث السالم والتعدى بالهمزة فنقول على سبيل المثال قائم وقائمـــــون وزينب وزينبات وقام على وأقام على الصلاة ٠

وفى الوقت نفسه تسير اللغة العربية أيضا علىطريقة العزل فى غير قليـل من تراكيبهابأن نجد بعض الجمل الاسمية والجمل الفعلية لاترتبط عناصرهـــــا بعضها ببعض بأية رابطة منطوقة وانما تفهم العلاقة بينهما من الترتيب فى السيـاق الصرفى الذى يحدد شكل الصيغ ومايقوم بينها من علاقات تصريف واشتقاق ، أو ماقد يلحق بها منلواحق suffixes أو يسبقها من سوابـــــــق prefixes أو يظهر فيها من ترديد وحشو Infexes وكلها تؤدى الى تغيرات أساسية فى التركيب وفى المعنى والدلالة وكأنالمعنى يتـم التعرفعليهإذن من ترتيب الكلمات ذاتها بطريقة محددة معلومة ٠ وربما كان مــــن هنا تأكيد بعض علماء اللغة من المعاصرين والمحدثين لاعتقادهم بأن الجملـــة لا الكلمة هى التى تعتبر أهم وحدات المعنى ، وذلك بحجة ان الكلمة بذاتهـــا لاتتمتع بمعنى خاص ، وانما المعنى هو مايحدده السياق أو المستوى التركيبـــى الذى توجد فيه (١) ٠ والشيء نفسه نجده فى اللغات الهندوأوربية حيث نجــــد اللغة الانجليزية أو اللغة الفرنسية على سبيل المثال تسيران على طريق التحليل والتصريف ، كما تسيران فى أحيانأخرى على طريقة اللصق أو الوصل وعلـــــى طريقة العزلفى بعض الأحيان ٠

وعلى أى الاحوال فمن المهم القول بأن البحوث الحديثة قد كشفت عنزيف الكثير من هذه الادعاءات القائلة بارتباط لغات بعينها ومعايتصف بطابع أو نمـــط معين ، وبصفات معينة ببعض الثقافات بذاتها أو حتى ببعض المراحل من مراحـل التطور دون المراحل الأخرى ٠وان كانت هذه المجالات مازالت على الرغم من كـل

---

(١) Lyons.J.,Introduction to Theoretical linguistics Combridge press.London.1975.pp 408-10.

الجهود فى حاجة إلى بذل المزيدمنها للكشف عن جوانبها المتعدده وخفاياها •

(٤)

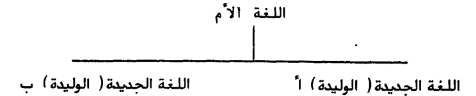
وكنا قد ذكرنا ان هناك اتجاها ثانياسار فيه علماء اللغة وهم يدرسون أصل اللغة والتعبير اللغوى ، وقلناآنذاك ان هذا الاتجاه قدنظر أنصاره إلى اللغة الانسانية من ناحية الاتفاق فى الاصول والبناء والقواعد Genetic classification •

ولقد كانت نقطة البداية فى هذا الاتجاه تلك الملاحظة البسيطة التى لاحظها العلماء والتى مؤداها انمع تقدم اللغة وتطورها ، فإن هذا التقدم وهذا التطور يؤديان بها دائما إلى المزيدمن التفرع والتشعب•

والحقيقة أن هذه الملاحظة على الرغم من بساطتها تنطوى على كل بالغ التعقيد • فاذا كانت اللغة – أية لغة – عند انشعابها فى شكلين متغايرين يمكن وصفهما بأنهما لهجتين ، فانه قد يحدث بعدمئات السنين أن تظهر التفاوتات البيئية والثقافية لدرجة تصبح معها كل من هاتين اللهجتين لغة قائمة بذاتها تنمو كل منهما فى سياقها الخاص وتستمر فى التغير أيضا • ولكن المهم مع ذلك أنه اصبحت لدينا الآن لغتان لالغة واحدة كما كان الحال من قبل •

هذه الظاهرة التى ترجع فيها اللغات المختلفة إلى أصل واحدمشترك أو لغة أم واحدة يمكن توضيحها بجلاء بالنظر الى الشكل التالى على الرغم من تسليمنا بأن التغير اللغوى ظاهرة اكثر تعقيدا من ذلك بكثير •

اللغة الأم



اللغة الجديدة (الوليدة) أ   اللغة الجديدة (الوليدة) ب

وهناك فى الواقع العديد من الامثلة التى يقدمها لناتاريخ اللغة الانسانية على هذا التطور الذى أدى الى تكوين لغات جديدة تربط القرابة والأصل المشترك بينها . فعندما سيطر الرومان على الجانب الاكبر من أوربا وعلى شمال افريقيا والشرق الأدنى مثلا ، فقدأدى هذا إلى انتشار اللغة اللاتينية Latin عبر هذه المناطق المترامية باعتبارها اللغة الرسمية أصبح يتم بها التعامل فى الادارات الحكومية .

ولكن مع بدايات أفول نجم هذه الامبراطورية الرومانية فى القرن الرابع الميلادى وتعرض أقاليمها لغزوات وهجمات السلافيين وقبائل الهان Huns والجرمان ، بدأت تتولدالعديد من اللغات وبخاصة فى غرب أوربا لتحل محل اللغة اللاتينية تدريجا . وهكذا حلت اللغة الانجلو سكسونية فى انجلترا محلها ، واللغة العربية فى شمال إفريقيا ، وان لم يمنع هذا من أن تكون اللاتينية متينة الجذور فى بعض المناطق فظلت نتيجة لذلك لغة الأمم الجديدة مثلما حدث فى إيطاليا على سبيل المثال وفى فرنساوفى أسبانيا .

بيد أنه نظرا لعدم وجود القوة الموحدة التى تجمع هذه اللغات معا ، فقدأخذ التغير والتشعب تظهر آثارها من جديد ، وبذا فقد تطورت اللغة اللاتينية وانقسمت إلى عدة لغات جديدة ، أخذت كل منها تطور من تراكيبها الخاصة ونظامها الصرفى والنحوى وان ظلت جميعها معذلك تحمل بعض ملامح اللغة الأم الاصلية (اللاتينية). فنجدعلى سبيل المثال ان الكلمة اللاتينية bonus للمعنى الانجليزى good واصبح Buno فى الايطالية و Bueno فى الاسبانية و *Bon* فى الفرنسية على حين تنطق bonn فى البرتغالية وفى الرومانية bun .

كذلك أصبحت كلمة Homo اللاتينية ومعناها الانسان أو الرجل Man فى الانجليزية و nomo فى الايطالية و Hombre فى الاسبانية و homme فى الفرنسية و homem فى

البرتغالية و OM فى الرومانية٠

اللغة اللاتينيــة

البرتغالية	الاسبانية	الايطالية	لغة بروفنسال (جنوب فرنسا)	الفرنسية	الرومانية

والحقيقة ان هذا التفرع والتشعب اللغوى قد حدث اكثر من مرة فـــى تاريخ الانسانية٠ وعلى ذلك فمهما قيل فى ديناميات هذه العملية والأسباب التـــى تقوم وراءها ، فان المتفق عليه أن هناك ثلاث فصائل أو عائلات لغوية أساسيـة هى أولا الفصيلة الهندوأوربية Indo-European ، وثانيا الفصيلـــة السامية الحامية Hamito -Semitic ، وثالثا الفصيلة الطورانيـــــة Ural - Altaic ٠

وقد يكون من الصعب عندالحديث عن صلات القرابة التى تقوم بين هـــذه اللغات المختلفة أن نكتفى بمجرد مقارنة بعضها بالبعض (١) كما يفعل البعـــض من العلماء فتذهب الى مقارنة اللغة الانجليزية الحديثة مثلا باللغة الفرنسيــــة الحديثة فذلك حرى بأن يوقعنا فى كثير من المزالق ، إضافة الى سوء فهـــــم التطور التاريخى نفسه الذى مرت به اللغة حتى وصلت إلى الشكل الذى هو عليه الآن ٠

ويرى البعض انه بدلا من مقارنة اللغة الحديثة بأخرى غيرها حديثـــــة أيضا ، فلا بد من الرجوع الى أسلاف الفرنسية مثلا وهى اللاتينية ومقارنتهـــــا بأقدم الأشكال التى نعرفها للغات الجرمانية Germanic ، وبخاصة من ناحية النمو والتركيب وشكل الكلمات ذاتها ودلالاتها ، لنرى المشابهـــــــات والاختلافات التى قد تكون هناك٠

(١) Barber.Op.cit.p.80.

ولعل المقارنة التالية التى يتضمنها الجدول رقم(١) توضح لنا مانريـــد أن نقولهبشكل أكثر تحديدا ونحن نردد العد من رقم (١) الى رقم (١٠) فى الكلمات المختلفة فى اللغات المختلفة.

الجدول رقم (١)

اللاتينيـــــة	الاغريقيـــة	السنسكريتية	الجوتيـــة	الانجليزية القديمة
unus	heis	eka	ains	An
dua	duo	dva	twai	Twegen, twa
tres	treis	trayas	trai	tri
quattuor	tettares	catvoras	fidwor	feower
quinque	pente	penca	fimf	fef
sex	hex	sas	saihs	siex
septem	hepta	sapta	sibun	seofon
ecto	okto	astau	ahtau	eahta
nouem	ennea	nava	niu	nigon
decem	deka	dasa	taihun	tien

وبالنظر الى هذا الجدول السابق يظهر لنا بوضوح مدى وجه الشبه بيـن اللغة اللاتينية والاغريقية والسنسكريتية • كما يبدو لنا ايضا أن هناك مظهـــر منتظم من المطابقات Correspondences أو على الاقـــــل المشابهات الوثيقة بين بعض اللغات• فحيث تبدأ الكلمة اللاتينيةأوالسنسكريتيـــة بحرف S تبدؤها اللغة الاغريقية بحرف H • وحيث يوجــــــد الحرف O فى اللاتينية أو الاغريقية نجد أن السنسكريتية يوجد بها حرفA

ومع ذلك فليس من السهل القول بأن هذه المطابقات هي كل مايوجد بين اللغات ذات القرابة وانما يمكن ملاحظة مثل هذا أيضا في الاصوات وفي القواعد النحوية .

وعلى العموم فقد يكون هذا القدر من الامثلة كافيا لأن نتناول بالحديث تلك العائلات أو الفصائل اللغوية ذاتها التي قلنا أن أفرادها تتفق من حيث البناء والقواعد والأصول .

اولا : الفصيلة الهندو أوربية

تعتبر اللغة الهندية الايرانية Indo-Iranian أو الآرية Aryan إحدى الشعب أو الفروع في العائلة الهندو أوربية وذلك نسبة إلى الاجيال الاولى التي تحدثتها وهم الآريون أي النبلاء .

وتتضمن هذه الشعبة مجموعتين كبيرتين هما المجموعة الهندية Indian والمجموعة الايرانية Iranian . وتنتمي الى المجموعة الهندية لغة الفيدا Veda القديمة التيترجع الى ماقبل عام ١٤٠٠ ق .م . وكذلك السنسكريتية الكلاسيكية التي أصبحت منذ حوالي عام ٣٠٠ ق .م اللغة الرسمية للهند (مثلها اللاتينية في أوربا) .

أما فيما يتعلق باللغات الحديثة نسبيا لهذه المجموعة فهي البنجالي Bengali والهندي Hindi وبعض لغات شمال الهند ومعها بعض لغات الجنوب مثل السنهاليزي Sinhalese .

أما الشعبة الآريةالثانية (الايرانية) فتشتمل على اللغة الفارسية الحديثة وعلى بعض اللغات الأخرى مثل الكردية والبهلوية والافستية . وقد وصلت الينا هذه اللغات عن طريق العديد من النقوش القديمة مثل نقوش الملك داريوس Darius التي ترجع الى عام ٥٠٠ ق .م . وأيضا في تعاليم زرادشت باللغة الافستية القديمة التي ترجع الى ماقبل عام ٦٠٠ ق .م . والواقع ان ثمة كثير من المشابهات بين كل من هذه اللغات مما يجعلها ميدانا خصبا للبحث

والدراسة المقارنة.

والى جانب هذه اللغات السابقة نجد أيضا مجموعة أخرى هى اللغة أو بالاصح اللغات الاغريقية التى ازدهرت منذ القرن السابع قبل الميلاد وسجلتها أشعار هوميروس بصفة خاصة فى وقت أسبق من هذا ربما رجع الى القرن التاسع أو العاشر قبل الميلادوتضم هذه اللغات الاغريقية كافة اللغات الهلينية القديمة التى تعتبر لهجة الاتيك من أحدثها.

كذلك نجدشعبتى اللغات الايطالية والكلتية Italic - Celtic وتتكون الايطالية من مجموعة من اللهجات الايطالية القديمة مثل الامبرية واللاتينية والاسكانية.

أما الكلتية فقد تشعبت فى كل اوربا الى ثلاث مجموعات يمكن التميز بينها هى الغال Gaulich والبريطانية والجاليس أو الايرلندية القديمة . ولقد سادت لغة الغال فرنسا وشمال إيطاليا فى عهد الامبراطورية الرومانية وكذلك بعض المناطق فى وسط أوربا وأواسط آسيا وانتهت مع القرون الاولى من ظهور المسيحية ولم يبق منها سوى بعض الاثر المتضمن فى التراث اللاتينى.

أما البريطانية فهى الفرع من الكلتية الذى كانت تتحدث به بريطانيا قبل الغزو الانجلو سكسونى وتظهر آثارها الحديثة فى كل من لغة كورنيش ولغة ويلز Weleh ولغة بريتون Breton . على حيت تشتمل الجاليس أو الايرلندية القديمة على الاسكتلندية والايرلندية ولغة المانكس.

كذلك تشتمل الفصيلة الهنداوربية على اللغات البلطيقية السلافية Baltic -slavonic وتشتمل البلطيقية على لغة لتوانيا والبروسية القديمة أما شعبة اللغات السلافية فتضم أعضاء كثيرين مثل البلغاريا والعربية القديمة والبولندية وعدة أشكال من الروسية. وتعتبر أقدم اشكال الشعبة السلافية حيث سجلت بها بعض الكتابات الدينية التى ترجع إلى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين.

وبالاضافة الى هذه الشعب فى الفصيلة الهندو أوربية نجد شعبة اللغات الجرمانية التى تضم ثلاثة مجموعات هى اللغات الجرمانية الشرقية والجرمانية الشمالية ، والجرمانية الغربية • والاولى تضم لغة الجوت Gothic القدامى أو اللغة الجوتية• والثانية تضم لغات أيسلندا وسويسرا والنرويج على حين تضم الثالثة (الغربية) الانجليزية السكسونية والهولندية والانجليزية الحديثة •

وأخيرا نجد ضمن هذه الفصيلة أيضا شعب اللغات الارمنية Armenian واللغات الالبانية Albanicn •

ويظهر من ذلك كله مدى تعقد وتشعب العائلة الهندو أوربية ومدى أهميتها بالنسبة إلى العالم الحديث وذلك على اعتبار ان لغاتها والشعب التى تتشعب اليها تجعلها اكثر الفصائل انتشارا وذيوعا حيث يتحدث بها الآن مايزيد على ألف مليون نسمة فى مختلف بقاع العالم•

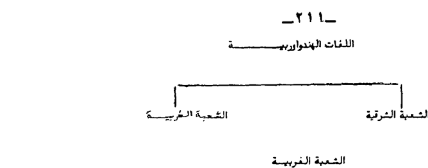
ثانيا : الفصيلة الحامية السامية :

وتشتمل هذه الفصيلة على مجموعتين من اللغات هما مجموعة اللغـــات السامية Semitic ومجموعة اللغات الحامية Hamitic

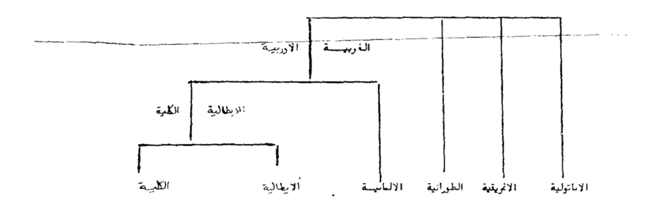
---

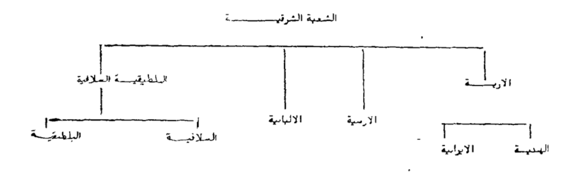
أما المجموعة الاولى(السامية) فتتكون من اللغات السامية الشرقيــــة التى تضم البابلية والآشورية • واللغات السامية الجنوبية التى تضم العربيــــة واليمنية القديمة والحبشية السامية • واللغات السامية الغربية وتضم الآراميـــة والكنعانية والفينيقية والموحابيتية والعبرية • ولقد كادت تندثر تماما بعض هـــذه اللغات القديمة على حين ظلت بعضها الآخر يجرى على الألسنة حتى اليـــوم وحتى بعد أن كانت تستخدم فحسب فى الاغراض الدينيـــة •

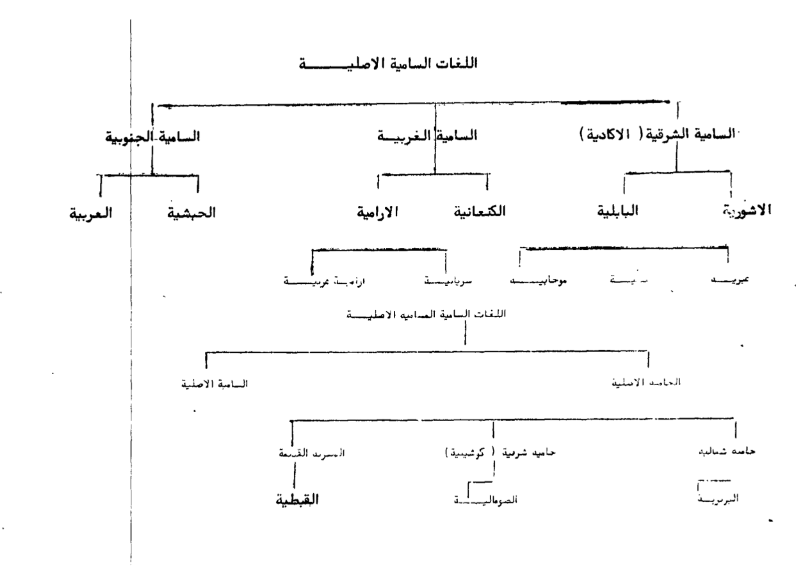
اللغات الهندواوربيــــــة










اللغات السامية الاصلية
السامية الشرقية (الاكادية)
السامية الغربية
السامية الجنوبية
الاشورية
البابلية
الكنعانية
الارامية
الحبشية
العربية
عبرية
موحابية
سريانية
اللغات السامية الحاميه الاصلية
الحامية الاصلية
السامية الاصلية
حامية شمالية
حامية شرقية (كوشيية)
المصرية القديمة
البربرية
الصومالية
القبطية

أما فيما يتعلق بالمجموعة الثانية (اللغات الحامية) فتتكون من ثلاث طوائف هي اللغات المصرية القديمة واللغات الليبية أو البربرية واللغات الحامية الشرقية أو الكوشيتية التي كانت تسود مناطق شرق إفريقيا ماعدا الحبشة وبعض مناطق السودان .

ثالثا : الفصيلة الطورانية :

ويقصد بها مجموعات من اللغات الآسيوية والاوربية التي لاتدخل في الفصيلتين السابقتين ولكنها تتداخل فيما بينها بشكل ملحوظ وتتحدث بها مناطق مختلفة قريبة وبعيدة من العالم . وتنقسم هذه الفصيلة إلى مجموعتين أساسيتين هما أولا مجموعة الآلتيك الاصلية وثانيا مجموعة الأورليان الاصلية . وتضم المجموعة الاولى اللغات التركية والمنغولية والمنشورية على حين تضم المجموعة الثانية السيامية واللغات القوقازية والصينية الأصلية وبعض اللغات الاسيوية القديمة والملايوية والبولوينيزية التي تتكلم بها طائفة من جزر المحيط الهندي والمحيط الهادي علاوة على بعض لغات الهنود الحمر والاسكيمو . وعليه فيذهب بعض العلماء إلى أن هذه الفصيلة لاتكون فصيلة بمعنى الكلمة ولكنها بالاحرى بعض اللهجات أو اللغات الصغيرة المتفرقة .

(٥)

ولقد سعينا ـ عن قصد ـ الى أن نستطرد بعض الشيء في توضيح تلك الجوانب التي كشفت عنها النظرة التطورية التي تهتم بدراسة اللغة من خلال مايطرأ عليها من تغيرات أثناء حياتها في الزمن ، وذلك على أمل أن تتكشف لنا طبيعة العلاقات ـ وذلك من الناحية الأخرى ـ التي تربط بين اللغات التي تنتمي إلى عائلة واحدة أو أصل لغوي واحد ، مما قد يلقي بالضوء في النهاية على تلك العمليات التاريخية الطويلة التي انشعبت اللغات الأم بسببها .

ومع ذلك فالملاحظ إنه في السنوات القليلة الأخيرة أخذ عدد متزايد من علماء اللغة يكشفون عن اتجاه إلى تبني موقف مؤداه ان الدراسة التزامنية

synchronic الوصفية للغات لاتعتبر نوعا مستقلا أو بعيدا عـــن اهتماماتهم بالنواحي الدياكرونية ، ولكنها أيضا اكثر أهمية بالنسبة إلى النظريـــة العامة فى اللغة .

وقد يبدو تقريرنا لهذا الاتجاه منطويا على كثير من التبسيط الزائد الـذى قد يخل بالأمور . فقد شاهدنا حتى الآن كيف أن البحث فى علم اللغة قـــد اتخذ طابعا تاريخيا مميزا على مدى القرن التاسع عشر ، وأن احدالاغـــــراض الرئيسية لهذا الاتجاه كان تجميع اللغات فيما عرف بالفصائل أو العائلات اللغوية. وقدتأكد هذا الاتجاه لدرجة ان الاقدام على وصف لغة معينة كان يبدو أمرا جانبيا ، أو هامشيا بالنسبة الى هذا الهدف . بالاضافة الى أن البحث فى لغة بذاتهـــا فى مجتمع من المجتمعات دون وضع الاعتبارات التاريخية فى الحسبان كان بدوره أمرا يثير غير قليل من الانتقاد.

ولقد شارك فردينان دوسوسير نفسه وبصفة خاصة فى كتاباته المبكرة مشاركة فعالة ظل لها تأثيرها فى إعادة بناء اللغات الهندو أوربية . كما انه يرجـــــع اليه اطلاق مصطلح Diachronic بمعنى تاريخى أو خـــلال الزمن أو تطورى على علم اللغة الذى يدرس اللغة من خلال التغيرات التـــى تطرأ عليها .

ولكن هذا الموقف طرأ عليه بعد ذلك غير قليل من التعديل . حيـث بدأ يظهر عنده وبخاصة فى كتابه الشهير محاضرات فى علم اللغة العام course de linguistique génèrale نوعمن التمييزبين دراسة اللغة دراسة تاريخية diachronic ، ودراستها دراسة وصفيـــــة descriptive وهو مايتبلور فيما بعد باسم علم اللغة التركيبـــى أوالتزامنى ، وهو الذى يشير الى الاهتمام بدراسة الكيفية التى يتحدث بها الناس فى مجتمع كلامى معين ،وذلك فى ضوء المنهج الوصفى الذى أصبح مسيطرا علــى الدراسات اللغوية الحديثة . فمنذ دوسوسير وحاول العديد من العلمــــاء اللامعين من أمثال بنفنيست Benveniste وجاكوبســـون

Jakobson ومارتينيه Martinet ، التوفيـــــق بين وجهات النظر المتصارعة التى أخذت تتردد من حول هذين المنظورين فـــى دراسة اللغة وان كانتمعظم هذه المحاولات قدركزت بصفة خاصة على بعـــض المجالات والنطاقات اللغوية دون غيرها ، حيث تظهر التغيرات بشكل واضـــح كالتغيرات الصوتية والتغيرات الدلالية والنحوية.

وليس من شك فى أن هذه الاتجاهات الحديثة تعتبر تتمة لتلك الجهـــود الرائدة التى تمت فى دراسة التغير اللغوى . فمنذ بدايات القرن التاسع عشـــر عندما لاحظ اللغويون ان ثمة مجموعة من التطابقات المنتظمة فى الكلمات الغريبـة بين اصوات اللغات الجرمانية وبين أصوات ماعرف فيما بعد باللغات الهندو أوربيـة كان ذلك بمثابة حافز لتوجيه أنظار المهتمين بالدراسات اللغوية التاريخية إلـــى التغيرات التى تطرأ على نظم الاصوات اللغويـــة Sound systems ذلك على الرغم من حقيقة ان التغير الصوتى sound change لايحدث فجأة ولكنه يستغرق زمنا طويلا حتى تتضح ملامحه وتستقر فى الألسنة.

ولعل أوضح الامثلة على هذا التغير هو ما نشاهده فيما يعرف بالمماثلـة assimilation والمخالفة dissimilation (١) الذى يمكن فهمه ــ ولو بشكل جزئى ــ من خلال الموقف أو من السياق التركيبـى ذاته.

---

(١) المماثلة والمخالفة كما يراها اللغويون المحدثون فى مقدمة المظاهر التـى يتخذها التغير الصوتي. ويقصدبالمماثلة عموما مجاورة صوتان لغويـــان فيتبع الصوت الاول الثانى حتى تتحقق سهولة النطق بسبب التوافـــق والانسجام الذى حدث بين الصوتين. أو قديحدث العكس فيتبع الصو ت الثاني الاول .
اما المخالفة من الناحية الأخرى فهي قلب أحد الاصوات إلى صوت آخـــر يختلف عن الصوت المجاور له فى الكلمة اى العملية التى يكون نطـــق احد الاصوات مخالفا لنطق الصوت المجاور.
انظر فى ذلك Wardhaugh, R., Introduction to linguistics. N.Y. 1972. pp. 206-207.

ولكن نظرا لاكتشاف البعض ان التغيرات الصوتية ليست جميعها مما ينظر بالضرورة من خلال السياق أو الظروف التركيبية (التأليفية) فقد كان ذلك دافعا إلى محاولة تطوير نظرية عامة فى التغير الصوتى ، وبخاصة على أيدى عالم اللغويات الفرنسى أندريه مارتينيه Martinet ، وان كان من الصعب القول بأنه قد أمكن التوصل الى نظرية تتمتع بقبول عام فى هذا الصدد وهو مايرجعه الكثيرون إلى تعدد الأسباب التى ينجم عنها التغير الصوتى٠

وربما كانت المشكلة الاساسية فيما يتعلق بالتغير الصوتى مما يمكن فهمه من خلال ذلك التمييز الذى وضعه العلماء بين مايعرف بالاداء performance واصدار أو تكوين الكلام production of speech وملكة اللغة أو القدرة والاستعداد اللغوى الفطرى competence والبناء الصرفى أو النحوى Grammatical فكل تغير صوتى هو تغير فى كل من الأداء والقدرة٠

والواقع ان النظريات التى تهتم بالناحية الاولى أو مايعرف بنظريات الأداء فى التغير الصوتى إنما تقوم بعيدا أو فى خارج النطاق اللغوى نفسه من خلال التعديلات التى تطرأ على النطق والتى ترجع الى العوامل الخارجية التى تؤثر فى الاداء ٠

وقد يبدو مثل هذا المفهوم (الأداء) والانحرافات التى تظهر عليه والتى تقود إلى تغيرات فى القدرة لأول وهلة تصورا أو مفهوما سخيفا ٠ ولكن إذا نحن سلمنا على سبيل المثال بأن الجريمة ايا كان تكرار معدلات وقوعها ليس بمقدورها أن تغير من القوانين التى تخرج عليها ، فكيف يمكن إذن تصور الاداءات أو مظاهر الانحرافات التى ترجع إلى ظروف لغوية خارجية مما يؤدى الى إحداث تغير فى النظام اللغوى نفسه ؟

وقد يمكن الاجابة على ذلك بالطريقة ذاتها التى نقول بها إن القوانين على سبيل المثال يتم تعلمها كمعايير خارجية تتم صياغتها ، بينما النحو

والصرف هى أمور مجردة وغير محسوسة • والمعايير من هذه الطبيعة المجـــردة قد تبقى موضوعا للمراجعة التى تجعلها على اتساق مع الاداء السليم• بمعنى آخـر يمكن القول بأن نظريات الاداء فى التغير الصوتى تسلم مبدئيا بنوع من التغذيـة المرتدة تتعدل بمقتضاها التصورات والمعايير النحوية والصرفية •

وعلى الرغم من كافة الصعوبات التى تثيرها هذه النظريات فلابد مـــــن الاعتراف بالانتشار الهائل الذى تتمتع بهوالمكانة التى تحتلها وذلك بسبب تعزيــز الشواهد الامبريقية لكثير مما ذهب إليه علم اللغة التاريخى،بالاضافة إلى انــــه يبدو أمرا منطقيا تماما مايستند إليه اصحاب هذا الاتجاه من أن أى تغير صوتـى يمكن وصفه وصفا دقيقا بمصطلحات علم الأصوات وذلك دون الرجوع الى علم القواعـد اللغوية • وهذا افتراض يعنى كما هو واضح أن التغير الصوتى مما يمكن إذن أن يحل محل اللواحق والتتابعات الصوتية ، ذلك على الرغم من وجود اتجاه آخــــر على الناحية المقابلة يؤيد النتيجة المضادة القائلة بأن التغير الصوتى بمقـــدوره أن يعتمد على البناء الصرفى • أو على الاقل يعترف بالتفاعل فيما بين البنـــاء المورفولوجى والتغيرات الصوتية (١) •

ولكننا نجد فى الناحية المقابلة تلك النظريات التى تقول بالقــــــدرات اللغوية النظرية فى التغير الصوتى بمعنى أن التغير الصوتى متأصل فى هــــذه الامكانية ولايتصل بشكل مباشر بأية تغيرات خارجية فى الأداء ومن هنا يبـــدو التغير وكأنه تغير فى الجانب الفونولوجى •

والحقيقة ان التغير الصوتى لايكون بالضرورة تغيرا فونولجيا أى متعلقا

---

(١) Postal.p.M.,Aspects of phonological theory.Harper & Row.p.263.

بعلم الاصوات التشكيلي أو التركيبي [١] الذى يختلف عن علم الأصـــــوات اللغوية [٢] الذى يهتم بدراسة أصوات الكلام بوجه عام ، أى دون أن يهتم اهتماما خاصا بلغة معينة من اللغات وانما يركز أسلسا على البحث فى أقسام الاصوات ومقومات كل قسم منهاوخصائصه الطبيعية والطرق التى ينطق بها الانسان وكيفية إخراج الاصوات ٠ والالفاظ والعمليات الفسيولوجية التى تتم فى

(١) Harmann & Stark.,Dictionary of language and linguistics .p.257.

(٢) الحقيقة ان الدراسة الفونولجية تختلف من علم الاصوات اللغوية phonetics من حيث اهتمام الاولى بالنظام الصوتى نفسه بمعنى التركيز على توضيح الوظيفة التى تقوم بها الاصوات فى البناء اللغوى وتوضيح طبيعة العلاقات التى تربط الاصوات بعضها ببعض لتبدو فى آخر الامر كنظام أو نسق محدد له دلالته٠ وربما من هنا كان علم الفونولوجى يعرف احيانا بعلم الاصوات الوظيفى أو علم الصوتيات٠

والجدير بالذكر ان هذه الدراسات المتطورة ترجع فى صورتها الاولى الى مابذل من جهودفى القرن التاسع عشروأدت الى تطوير علم الاصوات اللغوية وعلم الاصوات التركيبي معا ، والتى ادت فى النهاية الى ما اصبح يعرف وبخاصة بعد جهود فردينان دوسوسير باسم اللغويات البنائية structural linguistics التى اصبحت احدى السمات الاوربية منذ منتصف القرن ٠

وما دمنا بصدد الحديث عن مسيرة علم الاصوات التشكيلى فلابد من الاشارة الى جهود مدرسة أو جماعة براغ Prague school التى كان يمثلها نيكولاى سيرجيف تروبتسكوى Truberskov (توفى فى عام ١٩٣٨) وروما ن جاكوبسون Jakobson (ولد فى ١٨٩٦) وهما من المهاجرين الروس وكذلك جهود مدرسة كوبنهاجن التى يعتبر لويس هيلمسليف Hielmslev الذى توفى عام ١٩٦٥ اشهررواده وزعمائها وبالمثل جون رابرت فيرث Firth (مات ١٩٦٠) وكذلك اتباعه الذين يطلق عليهم احيانا مدرسة لندن التى تعتبر اقل انتماءا لتقاليد دوسوسير وان كانت تتخذ المدخل البنائى فى الدراسة اللغوية ٠

فى الجهاز النطقى والتى يقوم بها المتكلم من غير أن يربطها بوظيفتها اللغوية .
فنطق واحدة أو اكثر من الاصوات التى تنتج فونيمة phoneme (وحدة صوتية) معينة قد يتغير دون أن يمس ذلك أى من التمييزات الفونولوجية (التركيبية) الموجودة من قبل . وهو مايحدث بالفعل فى عملية انتقال اللغة من الجيل الاكبر إلى الجيل الاصغر .

وهنا يميز الباحثون بين مرحلتين تطوريتين تبدوان فى اللغة ولابد أن يختلفا بهذا الصدد كما نجد فى تلك الاحوال عندما نجد تجاورا مكانيا أو جغرافيا وثيقا أو مثلما تختلف النبرات أو اللهجات الاجتماعية فى اللغة الواحدة .

ومع ذلك فيكاد يكون فى حكم المتفق عليه ان التغير الصوتى لابد وأن يعتبر بشكل حاسم على أنه تغير فونولوجى فى تلك الحالة فقط التى قد تندمج وحدتان مختلفتان من الوحدات الصوتية (فونيمتان) أو عندما ينقسم الفونيم الواحد إلى صورتين وهو مايقع عندما تتحول الالفونات Allphones أو التعبيرات والتنوعات الصوتية Allphonic Variations إلى فونيم أى يتحول المنطوق بالفعل إلى صورة ذهنية وذلك على اعتبار ان الفونيم هو صورة ذهنية بينما الالفون هو المنطوق الفعلى الذى لايمكن حصر تشكيلاته وهو الذى يتوقف كثيرا على مكان " الصوت" وموقعه من الكلمة وكذلك على الاصوات المجاورة سابقة أو لاحقة عليه ونوعها أيضا ما إذا كانت صامتة أو صائتة ... الخ .

وليس من شك فى أن التغير الصوتى لابدوأن يصاحبه أيضا تغير صرفى تكون له صفاتهوخصائصه الجوهرية التى تكتسب بها الصيغ تراكيبها ومعانيها وسواء مس هذا التغير الصرفى الوحدات الصرفية كلمات كانت أو جملا أو الانماط الصرفية التى تختلف من حيث النوع والعددوالتعريف والتنكير ، وبالتالى المعانى الصرفية ما إذا كانت مفردات أو أسماء مذكرة أو مؤنثة أو أفعال ، فلكل

منها دلالتها ولاشك ومعانيهـــا [1] التى تختلف باختلاف الأزمنة النحوية والأبنيـــة والصيغ والتراكيب.

واذا كان النظام الصرفى هو الذى يحددالشكل المورفولوجى أو التركيبى بما يتضمنه من اشكال الصياغات والاشتقاقات والتنوعات والتصريفات التى تعتبر- فـــى رأى أغلب العلماء - الكلمة وحدتها الاولى ، فإن لكل هذا ولاريب انعكاساتـــه فى المعانى والدلالات .

وعلى الرغم من اننا لن نخوض تفصيلا فى دراسة التغير الدلالـــــــــى Semantic change فقد يكون من المفيد أن نشير إلى أنه فى أواخر القرن التاسع عشر تمكن ميشيل برايل Breal من أن يحدد مجموعة مـــن القواعد والقوانين التى ذهب الى انها تحكم وتضبط التغيرات التى تطرأ على معانـــى الكلمات . وكان ذلك بمثابة أهم عمل تم فى مجال الدراسات الدلالية حتـــــى الثلاثينات من القرن ، عندما أخذ الدارسون يحولون أنظارهم الى دراســـــة المعانى من منظور آنى أوتزامنى synchronic .

ولقد نتج عن هذا الاهتمام أن قدم كثير من العلماء العديد مـــــن التصنيفات والمبادىء التى حاولوا بمقتضاها توضيح التغير الدلالى ، كما أفاضوا فى الوقت نفسه فى شرح الاسباب التى ينتج عنها هذا التغير سواء كان ذلك مرتبطـــا بالتغيرات التى تطرأ على اللغة نتيجة لما تخضع له من تأثيرات ذاتية أي ترجـــع إلى اللغة ذاتها أو تأثيرات خارجية تكون اللغة وبناءاتها موضوعا لها . وهى أسبـــاب قد تكون اجتماعية أو ثقافية أو جغرافية ... الخ ، كما قد تكون مقصودة أو غيـــر مقصودة ولكنها جميعا تتم فى أشكال معينة هى مايعرف بأشكال التغير الدلالـــى التى يعتبر تضييق المعانى فى مقدمتها narrowing وعلـــــى العكس منه توسيع المعانى widening أو انتقال الكلمة مـــن

---

(1) Jespers en,O.,the philosophy of Grammer.London,George Allen & Unwin.1964.p.92.

لغة إلى لغة أخرى ، أو حتى استعارتها •

وعلى النقيض من هذا تدهور اللغة ذاتها وتعرض مفرداتها لتغيـــــــر معانيها وفقا للمساحات والمناطق التى يجرى استخدامها فيها مما قد يؤدى إلى هجر كثير من الكلمات وانقراضها وربما مواتها • وكله لايبتعد فى آخر الأمر عن الاطار الاجتماعى والثقافى والمحددات العامة التى يضعها المجتمع وتمليها الثقافة علـــــى السلوك اللفظى للافراد وسواء أكانت هذه الاصوات مما يعتبر من التراث الاجتماعى الثقافى للمجتمع نفسه أى لغته الأصلية ، أو مما هو وافد عليه حيث تتدخـــــل هنا كثرمن الاعتبارات التى تحدد الكلمات والعبارات.وطريقة استخدامها وكيفيـــة التعبير عنها أو حتى النهى عن ذلك كله • وقديصل الأمر فى ذلك إلى الاستهجـــان والتجريم•

وعلى العموم فانه إلى المدى الذى تقودنا اليه هذه المناقشة للتغيـــــر الصوتى فمن الواضح ان هذا التغير أيا كان شكله أو شدته إنما يتوقف على قــــدر الضغوط التىتدفع إلىإحداث نوع من التواؤم أو التوافق اللغوى فى المجتمع .

وسواء تم ذلك بطريقة مباشرة كأن يكون مثلا من خلال ما تلقنه المدار س لاطفالها ، أو بطريقة غير مباشرة من خلال ميكانيزمات التنظيم الاجتماعى ذاتهـا فإن مايثير الدهشة حقيقة هو الكيفية التى تقع بها هذه التغيرات والآثار التــــى تصاحبها والتى تنجم عنها •

ولقد حاول البعض وخاصة من أصحاب الاتجاهات النحوية التوليديـــــة Generative من أمثال هوكيت Hockett القـــــول بأن مباحث التغير الصوتى قد أصبحت تواجه مأزقا يتعين عليها أن تخرج منه حيــث اعتبرت ذاتياته النظرية مثل القواعد والتنظيم والاشكال الأساسية على انها ذاتيـات حقيقية أو واقعية بينما هى ــ وفقا لهوكيت ــ (١) ليست سوى أدوات• ذلـــك فى الوقت الذى يساند علم اللغة التاريخى الناحية المضادة بشكل مباشر • ففـــى

(١) Hockett, C.F. the state of the Art, the Hague. moutor. 1968. p.13.

رأى الكثير من علمائها إن التغير الصوتى والقياس والتمثيل هى تغير فى نظـــام اللغة الصرفى(النحوى) يشتمل بخاصة على الاحكام والقواعد ونطاقها • فـــاذا كانت هذه وقائع حقيقية ، فان التغيرات فى الاحكام بكل نظامها وترتيبها تبـد و كذلك أيضا ، ومن‌ثم فلابد أن تكون الاحكام وترتيبها ذاتيات وكيانات حقيقيـــــة أيضا •

ويترتب على ذلك إذا ماشئنا الاستطراد ، وراء منطقة ضرورة الاعترا ف بأن علم اللغة التاريخى يمثل أداة من افضل أدوات البحث ليس فيما يتعلق بالبنـا ءات والتراكيب النحوية فحسب ولكن ظاهرة التغير اللغوى ذاتها •

ولقد كان عدد كبير من اللغويين فى نهايات القرن الماضى يوافقون هرمان بول Paul على أن الدراسة العلمية للغة هى دراسة تاريخية بالضرورة، وهو مابدأ يتغير تحت تأثير محاضرات دوسوسير • أما اليوم وقد عادت التطـــورات فى نظرية اللغة تؤثر بشكل ملموس فى الاتجاهات والنظرات التاريخية ، فقـــد اعتبر ذلك بمثابة إحياء لقواعدها مما جعل النظرية اللغوية ذاتها تتأرجح بيـــــن الدراسة التاريخية والوصفية وتبحث من خلال جهودأنصار الاتجاهين عن وضعيـــة او اطار يتمتع بمزيد من التحديد والاستقرار •

الفصـل الثالث عشـــــر

التغاير اللغوى : ١- الانماط اللغوية بين القصدوالتلقائية

أعترف أن هذا الفصل - وربما أيضا الفصل الذى يليه - سوف يثيران دهشة القارىء ان لم يكن تساؤله واستغرابه ٠أولا ،نظرا لما أرجو أن أتناوله فيهما من أمور - وثانيا بصدد الحكمة من وراء هذا التناول الذى يبدو مجرد التفكير فيه أمرا غريبا ، خاصة وأنها أمور سوف تبدو معروفه لنا تماما ،وانها تدور باستمرار على ألسنتنا حتى أصبحت شيئا مألوفا وعاديا ،لدرجة أن العجب قد لايكون من مجرد الاصرار على تناولها ،ولكن من الاسباب التى جعلتها - أى الامور - بعيدة عن التناول حتى الآن ٠ على الرغم من ألفتنا بها واعتيادنا عليها٠

ولكن مدخلنا على هذا النحو قد يبدو بدوره مثيرا لغير قليل من الدهشة،لأن الذى لاشك فيه هو ان هناك طرقا أبسط من هذه التى استخدمتها الآن وأساليب أقصر ،ومن ثم ،أوضح كان من الممكن ان يقال بها للقارىء مايراد له ان يعرفه بدلا من هذا التلاعب الملحوظ بالكلمات ،والالتفاف والدوران من حول المعانى والدلالات٠

وقد يكون فى مثل هذا القول بعض مايغضب البعض من اللغويين خاصة المغرمين منهم بالاصرار على الوقوع فيما يطلق عليه"انيميا الدلالة" Semantic anaemia "(١) وذلك عندما يصر المتحدث أو الكاتب على أن يستخدم من الالفاظ والكلمات والجمل والتعابيرما يعتقد أنه يكشف عن قدره لغوية خاصة، فلا يكتشف فى النهاية سوى أن الامر كله لم يكن غير لغو ليست له دلالة واضحة أو معنى محدد ٠وتكون النتيجة الطبيعية لذلك ألا يخرج السامع أو القارى بشىء مفيد مما يقال بعدما تكون الحيل قد أعيته لالتقاط المقصود من خلال تكثر المعانى وتعددها polysemy ،ومن تداخل ما قد يكون هناك من ألفاظ مشتركة

---

(١) Black,M.,Op.cit.p.166.

homonymy ، ومن اشتمال hyponymy ومن ترادفات synonomy الى غير ذلك مما يحشدون من العلاقات الدلالية التى تمتلىء بها جعبة اللغويين والنحاة والتى يفترض ان فى وجودها تتحدد معانى الكلمات وان تستقر دلالات الالفاظ.

وحتى لايلتبس الأمر فى ذهن القارىء أسارع إلى القول بأن هذا كله لايمثل فى شىء أى نقد للغويين أو النحاه فما الخطأ خطئوهم بقدرما هوفى الحقيقة نتاج استخداماتنا نحن ـ أو على الاقل بعضنا ـ للغة ، فيبدو منها ،أو قل يبدو فيها ما هو أكثر من ذلك البعض اليسير الذى طاف بخاطرى .

(١)

والحقيقة أن القضية بهذه الوضعية هى محط شكوى منذ زمن قديم .ولكنها كانت دائما تعود فتنبض بالحياة فى حين ،لتهدأ بعده وقتا ،ثم لتحيا ولكن وهى أعلى صوتا بعد حين .فعلى الرغم من أن اللغة قد اعتبرها اللغويون دائما الاداة الرئيسية لتوصيل الفكر وللتعبير عنه وذلك الى الدرجة التى حصر البعض وظائفها جميعا فى هذا الغرض وحده دون غيره من الاغراض (عرضنا لهذه النواحى فى مناقشتنا النظرية الكلاسيكية فى اللغة) فقد كان الملاحظ دائما أن الكثيرين ممن يكتبون أو يتكلمون عرضة لأن يستخدموا فى كتاباتهم وفى كلامهم الكثير من الكلمات التى ليس لها أى معنى واضح ،أو حتى مما يمكن أن يرتبط به أو يلحقه مثل هذه المعانى التى تتصف بالجلاء والوضوح .وهو ما عبر عنه جوته Goethe بقوله انه حينما تغلس الفكرة تصبح الكلمة قريبة وسهلة المنال .

وتدفعنا قولة جوته هذه التى تتضح بالرقة وبالشاعرية التى وقفة علها بداية الخيط لابراز ما نحن بصدد الخوض فيه .فمن ناحية ،ينبغى أن تتضح فى الاذهان تماما إننا عندما نستخدم هنا كلمة (معنى) meaning فانما نقصد بذلك الحديث عن تلك العلاقة بين اللغة وبين العالم الحقيقى الواقعى،أو بين نسق الرموز والاشارات والاشياء التى تمثلها هذه الرموز والاشارات أو التى تشير إليها . ومن هنا يصح القول بأننا نقصد إذن المعنى المرجعى Referential، أو الذى يمكن الرجوع إليه والاستشهادية.

ولكن هذا المعنى المرجعي لابد وأن نعترف بأن ليس من السهل اكتشافه أو ملاحظته إلا من خلال الكيفية التي تستخدم فيها اللغة في المواقف الواقعية المعينة ذاتها ٠

ومع أن البعض من علماء اللغة المعاصرين يميلون الى تركيز اهتمامهم فحسب على المعنى الصوري formal[1] وذلك بحجة ان المعنى المرجعي لايعنيهم أويخصهم في شيء وقد يستندون في ذلك الى بعض الاسباب التاريخية التي ترجع الى بدايات القرن ، عندما أخذ علم اللغة الحديث يستقل بنفسه بعيدا عن تلك التعريفات والمعايير المستقاة من العلوم الأخرى كالمنطق وعلم النفس ، ومن ثم برز التأكيد على ضرورة المعايير اللغوية الصورية الخالصة لتساعد في تشكيل مقولاتهم ومفهوماتهم وتحليلاتهم الخاصة ، وكله كانت له آثاره الطيبة ولاشك، فان هذا كله قد ساعد ، من الناحية الأخرى ، على إبراز الاتجاه الآخر المقابل الذى يفيد ان محاولة الهروب من المعنى المرجعي الى عالم خالص pure من الشكل لايعدو أن يكون وهما من الأوهام ، حيث يستحيل تماما التعرف أو حتى اكتشاف بناء أية لغة مجهولة لنا ، وبالتالي اكتشاف المعاني الشكلية أو الصورية التي ينطوي عليها أحكامها ومقابيسها ، بدون أن نهتم اهتماما حقيقيا بذلك المعنى المرجعي ٠

إن المسلم به أن الكلمات والالفاظ إنما تستخدم أساسا في سياق الجمله الكاملة أو الجملة التامة وذلك على اعتبار أن الكلمات والجمل هي في آخر الامر وسائل لتحقيق بعض الاغراض الانسانية الرئيسية مثلا الاتصال والتفاهم ونقل المعاني والتعبير ٠٠٠٠٠٠ الخ ٠

ومع أننا لن نشغل أنفسنا هنا بالكيفية التي تتم بها مثل هذه الصياغات أو

---

(١) يقصد اللغويون عادة بهذا المصطلح الاشارة الى مكان الكلمة وموضعها "أو أي عنصر لغوي آخر" في النسق اللغوي ٠ وبذلك يكون المعنى الصوري بمثابة القدرة او امكانية الانطواء على رسالة أو معارف أو معلومات وهو مايتوقف على العناصر الاخرى التي يمكن مقابلته بها في هذا النسق ٠

انظر في هذا : Barber.op.cit.p243.

حتى الطرق التي تتغير بها المعاني والدلالات ، ولا صور هذه التغيرات سواء بالنسبة إلى الكلمة الواحدة أو المجموعة من الكلمات ، الأمر الذى لايخرج فى النهاية عن كونه النتيجة الطبيعية لتعدد الاستعمالات والاغراض التى تستخدم فيها هذه الكلمات فان الشائع بين معظم العلماء ان السياق اللفظي verbal context هو فى العادة ما يدلنا على معنى الكلمة ٠كما ان السياق هو الذى عادة أيضا ، يوضح لنا تلك الفوارق التى قد تعكسها المعانى ذاتها ما اذا كانت معانى مركبة او معانى متشابهة أو عامة أو متضادة ٠٠٠الخ،الأمر الذى يكتشف فى الحقيقة من السياق ذاته خاصة اذا كنا ندرك من قبل معانى بعض الاصوات التى يتضمنها السياق ، فيمكن من ثم اكتشاف المعنى بمقابلته بالموقف الواقعى٠

بمعنى آخر نريد أن نقول ان المعرفة السابقة أو الادراك السابق بالألفاظ والأصوات وبدلالاتها ومعانيها المختلفة هو الذى يجعل من عملية التعرف على المعنى الجديد واكتشافه مسألة سهلة وممكنة٠

ولكن التساؤل الذى يبدو منطقيا هنا هو : وماذا عساه يكون الحال إذا كان الموقف الكلامى بأكمله مما يتم فى سياق لغة لانعرفها ولا عهد لنا بها ؟ وقد نضيف الى ذلك عدم وجود مايشير إلى طبيعة الموقف (المواقف) التى تصدر فيها الأصوات ؟

الأرجح عندنا إننا سوف نعجز عن اكتشاف معنى أية كلمة أو صوت من أصوات هذه اللغة٠ كما اننا سنظل عاجزين إلى أبعدالحدود عن تحليل الاصوات أو أية محاولة لبناء هذه اللغة وذلك لسبب جوهرى هو انه فى غياب الموقف لايكون بمقدورنا التأكد أبدا من طبيعة الاشياء أيها يعمل كاشارات فى هذه اللغة ، وأى الملامح أو الخصائص هى التى يمكن ان توصف بأنها متضادة أو متناقضة وأيها ليس كذلك ٠٠٠٠ الخ٠

هذا الوصف أو التصوير قد يفيد كأداة للتحليل والتفسير ولكن بالنسبة فقط لتلك المواقف التى يمكن أن توصف بأنها مواقف استاتيكية ثابتة وربما غير حقيقية

أو واقعية لانه اكتفى باعطاء جانب أو (لقطة) أو منظر واحد افترض انه قائم بذاته ، على الرغم من انه في الحقيقة منتزع انتزاعا من سياقه الحركى أو من حركة السياق إذا شئنا تعبيرا أدق . وهذه الناحية بالذات هى ما تؤكد عليه ليس فحسب مختلف العلوم التى تنظر الى اللغة من منظور اجتماعى وثقافى كعلم الاجتماع اللغوى وعلم اللغة الاجتماعى والانثربولوجيا اللغوية ... الخ . ولكن أيضا علم اللغة فى معناه الحديث . فالاهتمام الرئيسى لهذه العلوم جميعها إنما ينصب على إدراك تلك التغايرات والانماط اللغوية التى تتشكل فيها المعانى فى المحيط الاجتماعى والثقافى. ولايختلف فى ذلك ما اذا كانت تلك التغايرات والانماط مألوفة لنا أو غير مألوفة . فالشىء المهم هو أنها تتم فى قلب عملية التفاعل الاجتماعى الدائبة والتى لايغير من حقيقة الأمور بالنسبة إليها ما اذا كانت هذه التغايرات مما يتصل بهذه الثقافة أو تلك أو بمجتمعات أوجماعات اجتماعية معينة ، أو بلغات أو بلهجات محددة . فالمهم هو ذلك التفاعل الاجتماعى الذى يجعل الاتصال ممكنا وفى الوقت نفسه يجعل من التغاير والتغير أمورا واقعية كذلك.

والانماط العديدة التى تتشكل فيها التغايرات اللغوية التى تتشعب اليها اللغات المختلفة فتتخذ صور اللغات الصغيرة أو اللهجات المتباينة سواء كانت لهجات اجتماعية أو لهجات إقليمية،تظهر فيها كل خصائص هاتين الظاهرتين اللتين قصدنا الى تعيينها وهما ظاهرة التفاعل الاجتماعى من ناحية ، والموقف الاجتماعى الذى يتشكل بحكم عناصره النمط اللغوى من ناحية ثانية.

فأيا كانت الصور التى يتخذها التغاير اللغوى ، فاننا لانستطيع التحدث عنه كشىء صورى تماما لاتربطه بالتفاعل وبالافعال وبردود الافعال أو بالمواقف الاجتماعية ذاتها التى تتدخل أبعادها وديناميتها فى تحديد طبيعة النمط وشكله، أو أى الانماط التى يمكن حدوثها والظروف التى غيرت فيها . وحتى وان كنا لانقصد بذلك مجرد الاختلاف فى الصياغات والتراكيب على المستوى العام وحده، ولكن بالنسبة أيضا الى المتحدث نفسه مونلك على اعتبار أولا ، أن التراكيب أو الصياغات ، ومن ثم الكلمات والالفاظ ليس لها فى ذاتها أية معانى أولية أو ذاتيه intrinsic ولكن الكلمة تعنى مايقصد المجتمع الكلامى نفسه الى أن تعنيه.وثانيا ، لأن هذا

كله مما يفترض مسبقا موجود الموقف الاجتماعى نفسه الذى يقوم بمثابة معمل لفظى أو صوتى يصعب بدونه القول بأن هذه الكلمة أو هذه الصياغة هى انعكاس أو رؤية خاصة للهجة أو النمط اللغوى الذى يستخدمه نزولا على مطلبات هذا الموقف أو السياق ٠

ولقد قلنا من قبل ان اللهجات الاجتماعية تفترض مسبقا بعض الفهم والادراك الواعيين بطبيعة البناء الاجتماعى كما ينظر إليه الاجتماعيون ٠

وعلى الرغم من ان هناك من يسعون الى ان يضيقوا من هذا المنظور الذى يعتبر البناء الاجتماعى (وهو مفهوم من الاتساع حتى ليشمل النسق الاجتماعى بأكمله) ، ويميلون بدلا من ذلك الى التركيز فقط على الموقف الاجتماعى ، وهو مايرفضه البعض نظرا لأن الموقف الاجتماعى لايعكس كل ملامح البناء الاجتماعى، فالواقع أن مثل هذا الاتجاه ينطوى على غير قليل من التعسف ٠ وذلك على اعتبار ان الموقف الاجتماعى بملامحه المحددة يمثل من غير شك جزءا من كل ٠ كما انه لايمكن أن ينفصل عن هذا الكل أو حتى يمكن أن نتصوره بعيدا عنه٠

ولعل القارىء قد لاحظ بفطنته ان حديثنا الذى أدرنا به اهتمامنا بالتغايرات اللغوية حتى الآن قد أسفر عن نتيجة أساسية هى أن هذه التغايرات اللغوية التى تناولناها فى معرض حديثنا عن اللهجات الاجتماعية والاقليمية هى تغايرات طبيعية natural أى انها تنبثق إلى أبعد الحدود من طبيعة الظروف الذاتية لاستخدام اللغة وانتقالها من مكان لآخر وبدون أن يوجد أى قصد إرادى لاحداث التغير من جانب المتحدثين أو المتكلمين ومن ثم فهى طبيعية بهذا المعنى٠

ولكن من المهم القول إنه إلى جانب هذا الشكل من أشكال التغاير توجد بعض التغايرات المقصودة أى التى يقصد الانسان الى أن يوجدها فى اللغة وهى القضية التى درج العلماء على اثارتها وعلى الحديث فيها ضمن ما أطلقوا عليه القوى أو العوامل الاجتماعية الموحدة أو القوى المفككة على اعتبار ان العوامل من النوع الاول هى التى تعمل على صيانة اللغة وحفظها بينما تعمل الثانية على ابراز

نواحي الاختلاف وبالتالي كل مايصاحب عملية التفرع والانتشار من مظاهر التباعد والعنف والصراع ٠

وقد لاتكون القضية الرئيسية التى تشغلنا هنا هى قضية هذه العوامل والقوى التى يعزى اليها المحافظة على اللغة أو فنائها٠ ومع ذلك فنحن لو نظرنا الى معظم اللغات واللهجات الموجودة فى مختلف البقاع ، فلابد سوف نتذكر على الفور الدور الذى لعبته اللغة فى تأجيج الشعور بالقومية الأوربية فى القرن التاسع عشر وهو الدور ذاته الذى مازالت تقوم به فى مختلف الحركات القومية المعاصرة٠

فالمعروف ان اللغة اللاتينية كانت هى اللغة السائدة فى أوربا خلال العصور الوسطى، ولكن ما أن جاء عصر القوميات حتى بدأت الجماعات الاجتماعية فى تلك المجتمعات التى تخلع قيمة عالية خاصة على بعض المفهومات مثل وحدة الجماعة والشعور بالانتماء ٠٠٠ الخ تسعى عن قصد الى العناية بتطوير لهجات خاصة كانت معروفة للافراد من داخل الجماعة ولكنها تبدو غامضة ومحيرة بالنسبة للغرباء الذين لاتربطهم روابط الانتماء الى هذه الجماعات٠

(٢)

على الرغم من القناعة التامة بتعذر الوصول الى المعنى الا من خلال السياقات الثقافية والاجتماعية وذلك على اعتبار ان " المعنى" لايمكن فصله عن هذه السياقات وانما هو يتخذ منها محتواه الى أبعد الحدود فيتغير من ثم بتغيرها فهى جوانب ملتحمة على حد تعبير دوسوسير ، فان الملاحظ ان الكثير مما أطلقنا عليه " الفقر الدلالى" أو الاستخدام اللغوى الذى يفتقر الى المعنى ويتسم بمظاهر السطحية والتفاهة عادة ما يكون مغلفا بما يحاول اخفاء ضحالته وفقره٠

وما من شك فى أن الاصل فى الامور أن يكون الكلام ـ بصرف النظر عن المواقف المختلفة أو المناسبات التى يتم فيها ـ كلاما واضحا ومعقولا وله معنى أو على الأقل من المفترض فيه أن يبدو هكذا ولو ظاهريا٠

ولكننا مع ذلك كثيرا ما نلتقى بفيض من الكلام والحديث الذى يتخفى وراء بعض

ما يلجأ اليه الحاذقون من أساليب اللف والدوران والتكرار والمراجعة والترديد وما يستدعيه كل هذا من التلاعب بالكلمات والالفاظ واستخدامها في غير معانيها أو بمعاني جديدة tautology تضيع في ثناياها حقيقة أن الكلام لاينطوى بالمرة على أى قصد ، أو يحتوى على أى معنى ، أى انه ليس سوى مهارة لغوية لاخفاء أنه (اى الكلام) لايقول - على طوله وترجيعه - أى شيء في واقع الأمر وحقيقته٠

وقد يكون هذا الجانب من أوضح الجوانب التى تعكسها ظاهرة الفقر الدلالى، والتى قد لاينجم عنها فى الوقت نفسه سوى القليل من الآثار٠ ومع ذلك فقد كان هذا كافيا لأن يجعل المهتمين بالسسيولغويات يلتفتون الى ما قد يكون هناك من مصطلحات وصيغ وأساليب تكشف عن الفروق الدلالية التى تقوم بين اللهجات واللغات المختلفة ، وأوجه الاختلاف بين هذه المصطلحات والصيغ والأساليب ارتباطا بالسياقات الثقافية والاجتماعية المختلفة من ناحية ، وبالنسبة أيضا إلى اللغات الاصلية والكلمات المتخصصة أو ذوات المعنى الخاص مثل لغات الثقافات الفرعية sub-cultures من ناحية ثانية٠ وهو الاهتمام الذى أدى على أى الاحوال الى التعمق فى دراسة مختلف جوانب مشكلات التغير اللغوى بشكل لم يسبق له مثيل ، ونتج عنه الوقوف على كثير من الظروف والسياقات التى تحيط بالحدث اللغوى وتؤدى الى وقوعه ، مما قاد بدوره إلى الكشف عن خصائص العديد من هذه الاحداث اللغوية بالنظر الى مايطرأ عليها من تغيرات سواء تعلقت بالموضوعات ذاتها أو الافراد أنفسهم (متكلمين ومستمعين) أو نتيجة لغير ذلك من العوامل التى تتعلق بالمواقف والسياقات أو حتى العوامل التى تبدو وكأنها بعيدة عن طبيعة اللغة ، وبصرف النظر عما قد يقوم بينها من ظروف البعد أو ظروف التقارب فى الزمان والمكان ٠

وربما كان فى مقدمة الأساليب اللغوية التى اهتم العلماء بدراستها اهتماما خاصا مايعرف بالكلام الخاص أو التعبيرالاصطلاحى الخاص Jargon الذى يجرى استخدامه وتداوله بين أفراد بعض الطبقات أو الجماعات الاجتماعية أو حتى بين

أفراد المهنة الواحدة أو الحرفة الواحدة وما إلى ذلك من الأعمال التى يتصل أصحابها بالجماهير اتصالا مباشرا ٠

وعلى الرغم من أن الأصل الاول الذى جاءت منه الكلمة gobbledygook أو Jargon غير معروف لنا بصفة مؤكدة (١) فان دراسة هذه الكلمات أو بالاصح الكلمات او اللهجات الاصطلاحية والتى يطلق عليها البعض (الرطانه Gibberish) بمعنى اللغة التى لايفهمها ولايستطيع التقاط مضامينها أو حتى الفاظها المتداخلة والخفية فى الوقت نفسه إلا أفرادالمهنة أو الجماعة الوظيفية الواحدة ، قدنجحت فى أن تكون محور اهتمام متزايد من الباحثين ٠

وعلى العكس مما قد يعتقده البعض فقد اكتشف الباحثون ان لهذه الرطانة العديد من الوظائف التى تقوم بها فى حياة هؤلاء ٠ فمن وراء سمات التظاهر والتعالى pretention والادعاء التى تنسج بها هذه التعابير والمصطلحات ، تختفى فى معظم الاحيان ضحالة افكار المتحدثين التى يريدون الايهام بأنها ليست كذلك ، ولهذا نراهم يلجأون الى استخدام الالفاظ ذات اللمعان والبريق والجمل والتعابير الطنانة التى وان كانت تؤثر فى العواطف وفى النفوس ، إلا انها لاتنطوى مع ذلك إلا على خواء٠

ولكن هذه المصطلحات تستعمل فى بعض الاحيان بشكل مقصود لأجل تحقيق بعض الاغراض اللاأخلاقية أو حتى غير المشروعة كأن تكون " سيما " أى شيئا أشبه بالشفرة التى يتفق على معانيها مسبقا ويستخدمه المشبوهون والمنحرفون فيما بينهم لخداع المجتمع ولتضليل السلطات٠

والشيء المهم هو أن هذه المصطلحات تتخذ شكل لغة تامة لايتم التفاهم

---

(١) The lexicon Webster Dictionary(Encyclopaedic Eddition. vol.1.1983.p.516.

بين افراد مثل هذه الجماعات المنحرفة الا عن طريقها وبواسطتها ، وذلك تحقيقا لغرضين؛ فهى من ناحية تعمل كعامل يؤكد على الرابطة (المهنية) فيما بينهم ، ومن الناحية الثانية تعمل كوسيلة للتضليل والخداع التى لايفهم الآخرون مضمونها أو مرماها .

ولكن الرطانة من غير شك ليست وقفا على هذه الصورة المنحرفة وحدها ، بمعنى أن وظائفها تتجاوز هذه الوضعية الضيقة إلى غير ذلك من المجالات . فنجد على سبيل المثال كثيرا من المهن التى يشعر أصحابها بنوع من الاعتزاز لانتمائهم لها نظرا لما تسبغه عليهم من مكانة مرموقة فى المجتمع، عادة مايحاول المشتغلون بها (المهن القانونية والطبية بخاصة) تأكيدهذه المكانة واعطائها (هالة) خاصة عن طريق استخدام ألفاظ ومصطلحات خاصة بالمهنة وتكاد تكون وقفا على أصحابها وحدهم . وكذلك نلتقى بالصورة ذاتها فى كثير من أوجه النشاطات اليومية والتجارية التى تستخدم مثل هذه المصطلحات التى لايعرفها إلا العاملين فى المجال . وقدتكون لغة المزاد من أهم وأوضح الامثلة التى تكشف لنا عن طبيعة بناء هذه اللغات والدور الذى تقوم به . فالمزادات كما هو معروف تستخدم من الالفاظ والتعابير والمصطلحات مايسهل للقائمين بها الوصول الى أغراضهم التجارية والاقتصادية على حساب المشتركين فى العملية لانهم لايفهمون ماتنطوى عليه لغة المزايدة من رموز ومصطلحات خاصة بالمزايدين أو الدلالين أو المنادين وغيرهم من السماسرة والوسطاء وسائر المشتغلين بالمهنة .

ولا خلاف فى ان اللغات فى استخدامها العام لابدوأن تتصف بكل من الضبط والدقة والوضوح والا فقدت المرونة والتدفق اللذان يعتبران من أخص خصائصها .

ولكن هناك فى الوقت نفسه بعض الاغراض التى تحددها بعض المواقف مما قد يتطلب المزيد من الاختصار والضبط . ويرى الكثيرون انه نتيجة لوجود هذين الميلين فى اللغة (الميل الى المرونة والتدفق والميل الى الضبط والاختزال)

يقع غير قليل من مظاهر اللبس والابهام والغموض ambiguity (١).

ومع أن المصطلحات الوظيفية مفترض فيها بوجه عام أن تكون عاملا مساعدا فى إزالة بعض جوانب هذا الغموض نظرا لما استقر فيها من تقنين واتقان ، فـــان المشكلة التى لاينبغى التغافل عنها تبدأ حالما تنتزع هذه المصطلحات الفنيـــة أو التعابير الاصطلاحية من سياقها العام فيتكشف من ثم ما يحيطها من مظاهـــر التحذلق أو السخف اللذان يبدوان من أفضل المناسبات للهزء والسخرية ، أولا ، من حيث ان هذه الكلمات الخاصة Jargons (٢) قد تثبـــت فيها الى حد الانطباع والجمود غير قليل من المعانى المعقدة والتى قد تكـــون متنافرة فى السياقات المختلفة ، وثانيا (٣) لأن الاصرار على استخدام هـــذه الصياغات كثيرا مايكشف عما يحرك البعض من ميول للاستعراض وللتشدق وحـــب للظهور والمباهاة كدوافع أساسية للفعل والسلوك. وهذه نواحى وان كان البعض قد حاول اخضاعها للتجريب والتهذيب بغرض السيطرة عليها والتحكم فيها بغية اذكـــاء روح التنافس بين الافراد كخطوة نحو التعرف على ماقد يكون هناك من قيـــادات وزعامات (خاصة فى مجالات التربية والتعليم) ، إلا أن وجه الخطورة يتمثـــل

---

(١) والحقيقة ان هذا اللفظ نفسه ambiguity يتسم بغير قليل من الغموض الذى يلف مايقصد منه تماما . وبناء على ذلك فنحن نأخذ هنـــا بالمصطلح فى اوسع معانيه ذلك على الرغم من انه من الضرورى لأجـــل الفهم السليم أن نميز معانى الكلمات فى سياقها بشكل دقيق .
انظر فى ذلك Empson, William., Seven Types of Ambiguity. rev.ed., chatto & Windus. London. 1974. p. 3

(٢) The New Encyclopaedia Britannica. vol. 22. op. cit. p. 574

(٣) Wilson, Logan., the functional Bases of Appraising Academic performances. American Association of University Professors Bulletin. October. 1941. vol. 27. p. 449.

في ذلك التبسيط الزائد الذى ننظر به إلى المصطلحات فتختلط المعانى وربما تناثرت كذلك ، على الرغم من ان القضية اللغوية الاساسية تحتم كما يقال أن توزن الكلمات وان تقدر حق قدرها ، وأن نتذوقها ونستشعر طعمها حتى تستخدم استخداما سليما [١] ٠

وقد يكون من الصعب حصر مختلف المجالات التى تعمل فيها هذه الكلمات أو اللهجات الاصطلاحية فهى لاتنهج نهجا واحد كما انها ليست وقفا على مجال دون آخر ولكنها ترتبط بشكل وثيق بكل الميادين التى يسعى افرادها إلى تقوية أو تأكيد عوامل الروابط والتضامن فيما بينهم ٠ فنحن نجدها بين أعضاء الفرق الرياضية على سبيل المثال وذلك عندما يستخدمون فيما بينهم بعض التعابير المتفق على معانيها والتى لايعرفها سواهم مثلما يقول احدهم " game " أو Love 5,7 ٠

كذلك فقد لايفهم الكثيرون منا المقصود من بعض الكلمات مثل score التى تعنى عندهم " العلامة" أو حتى" النقطه" ، أو " النقاط" وهذه الاخيرة أيضا قد لايفهمها البعض عندما يسمع الآخرين يعدونها لحساب المغلوب والمنتصر ٠

والشىء نفسه نجده أيضا فى تلك الرطانات الغريبة ذات المعانى الخفية التى تتطاير فى عالم سباقات الخيول والمغامرات مثل " الجوكى" والسباتى" و"قايم" وباقى القائمة الطويلة الخاصة بالمراهنات وبأسماء الخيول وبفرص الربح وكله مما يحير السامعين من خارج المجال ٠

وربما كانت لغة السحر والدجل والشعوذة بدورها من أوضح هذه الانماط اللغوية التى يعز فهمها وادراك معانيها على السامعين على الرغم من انها قد اتخذت شكل الصياغات الجامدة التى تتردد فى كل مناسبة من هذه المناسبات ٠ فقد

---

(١) Black,M.,op.cit.p.168.

يسمع المرء الفاظا مثل " حادرجه" أو" بادرجه" ولكنه لايفهم مع ذلك المقصود من هذا (او هذه) " الحادرجة" أو تلك " البادرجة"٠ناهيك عما تنطوى عليه التمتمات والبرطمات والبرطلات التى لانعى لها أى معنى ، وان كانت تلعب بالنفوس لما يحيطها عادة من طقوس ٠

وتقترب من هذا كله لغة الحواة أنفسهم وهم ينفثون فى الجو مع حركات أياديهم السريعة الخاطفة الفاظا مبهمة ولكن لها وقعها وتأثيرها مثل " جلا ٠٠ جلا " و" ياالله هوب " ٠ ولكن دون ان يدرك المشاهد أو السامع ما الذى حدث تماما بين هذه اللفظة وتلك٠

(٤)

ولكن اذا كانت بعض اللغات واللهجات الخاصة أو المتخصصة Specialized يهدف المتفوهون بها إلى الابقاء على الغرباء بعيدا عن معانيها ودلالاتها أى إبقائهم فى خارج مايعكسه المحيط أو الموقف اللغوى من دلالات حقيقية ، فان هناك من الظروف المغايرة ما قد يكون سببا فى خلق بعض اللغات بطريقة مقصودة لاجل تسهيل الاتصال بالاجانب والغرباء٠

ونحن نعرف ان الاصوات هى المظهر المادى للغة٠ ولكننا فى كثير من الاحيان قد (نسمع) الاصوات ولكن دون أن " نفهم" اللغة وهو مايحدث عندما يجمع عمل من الاعمال (مثلا) بين مجموعة من الافراد الذين يتكلمون لغات مختلفة٠ كما نجد فى بعض الانشطة التجارية أو فى بعض الاعمال الادارية والوظيفية عندما تكون لغة أحد الاطراف غريبة عن لغة الطرف الآخر٠

مثل هذه المواقف تكون سببا فى خلق مايعرفه العلماء باسم pidgin بمعنى التخريجات التى تتكون مما يمكن التقاطه من كلمات الجمل والعبارات التى تحتويها كل من اللغتين ، الأمر الذى يتم فى العادة باسقاط أو هجر التعقيدات والتركيبات النحوية فيهما معا مما ينجم عنه وقوع مختلف الاطراف المتحدثة بهذا النمط اللغوى الجديد" pidgin " فى غير قليل من مظاهر الخلط

والغموض نظرا لغياب قواعد اللغة والعلاقات التى تربط الاجزاء بعضها ببعض بطريقة تجعل من السهل تحقيق المعنى ٠

ولقد كان طبيعيا أن يلتفت العلماء (وفى مقدمتهم بلا شك علماء الاجتماع اللغوى والانثربولوجيا اللغوية) الى هذه الظاهرة وان يهتموا بها فى دراساتهم خاصة وان اللفظ pidgin مما يستخدم على نطاق واسع يشتمل على عدد من انماط الكلام المتغايرة بشكل ملحوظ على الرغم من انها قد انبثقت عن لغات أخرى وبخاصة اللغة الانجليزية ، ومن ثم انتشرت فى أنحاء عديدة من العالم منذ القرن السابع عشر ٠ وربما لأجل ذلك نجدالعلماء يصفونها بأنها لغات خاصة غير شرعية bastoral كما يطلقون عليها أحيانا اسم اللغات المنهجية mongrel lingos وماشابه من أسماء نظرا لتخلط اللغات واللهجات فيها وتداخل الكلمات والتعابير والالفاظ وتدفقها على الالسنة وان لم يمنع ذلك من الاعتراف بأنها لغات يمكن أن تحدد خصائصها وملامحها مثلها فى ذلك أية لغة أساسية منضبطة أخرى ٠

ولقد ذكر الانثربولوجيون بصفة خاصة ، ان هذه اللغات من هذا النوع الذى نتحدث عنه هنا قد ارتبط ظهورها — على الرغم من صعوبة وضع تعريف محدد للفظ pidgin — بصفة خاصةبتلك المناطق والاوضاع التى ارتادها الرحالة والتجار والمبشرون الأوربيون فى مختلف الجهات ٠ وانها سلكت فى تطورها مسلكا طويلا ارتبطت خلاله ، كما تولدت فيه أيضا (أعنى المسلك) بعض الانماط اللغوية الأخرى ذات الصلة الوثيقة وذلك مثل لغة ولهجة الشينوك الخاصة Chinook Jargon التى يصفونها على انها لغة مولدة Lingua franca خرجت من لغة الهنودالحمر الامريكيين واللغة الانجليزية وكانت تستخدم منذ قرون فى واشنطن وولاية اريجون ٠

وكذلك لغة بيشرلامار Beach-la-mar كنموذج

للتخريجات من اللغة الانجليزية التى انتشرت فى أنحاء عديدة من بحار الجنوب(١).

ومن الواضح ان المشكلة الرئيسية التى تثيرها هذه الانماط اللغوية المتغايرة هى مشكلة ذات شقين أحدهما باعتبارها مشكلة اتصال والثانية اذا اعتبرنا البعدالمكانى او المسافة ولكن الاثنان معا يضعانا وجها لوجه أمام مختلف الصعوبات والقضايا التى ترتبط بمسألة انتقال هذه الانماط من مكان الى آخر ، والطرق التى سلكتها فى هذا الانتقال وما طرأ من ثمة على عناصرها البنائية والوظيفية من تغيرات.

ومن حيث المبدأ لابد أن تتضح لنا حقيقة ان هذه التعبيرات اللغوية الخاصة انما تظهر أساسا نتيجة الافتقار المبدئى لأية روابط كلامية تصل بين الناطقين بلغات مختلفة • ففى مثل هذه الظروف التى يستخدم فيها لغة ما كوسيلة من وسائل الاتصال بين الاشخاص الذين لايشاركون فى لغة عامة، كما كان الحال الذى لقيته الدبلوماسية الفرنسية مثلا فى القرن الثامن عشر ، فانه هنا تظهر ما اصطلح على تسميته بمصطلح Lingua franca اى اللغة التى يتصل عن طريقها أناس لاتربطهم أو تجمعهم لغة وطنية مشتركة.

---

(١) يرى البعض ان اللغة الانجليزية ومثلها اللغة الفرنسية تعملان فى انحاء كثيرة من القارة الافريقية كنوع من لغة lingua franca على الرغم من انهما ليستا من اللغات المحلية فى المناطق التى تستخدمها وانما يتم تعليمهما عن طريق المدرسة والتعليم الرسمى.
كذلك يرى هؤلاء ان كثيرا من اللانجوافرانكا الافريقية على الرغم من كونها لغات افريقية محلية انما ترجع أساسا إلى السيطرة السياسية للمتحدثين الوطنيين الافارقة • ويضربون لذلك مثالا بلغة Luganda .
أو ربما بسبب انتشارهم بسبب التجارة عبر مناطق شاسعة مثل السواحلية swahili ، كما توجد فى غرب افريقيا لغة الهوسا hausa وهى أيضا نمط من lingua franca الافريقية انتشر لاسباب اقتصادية وتجارية وان كانت تعتبر من حيث الاصل لغة أفرو اسيوية Afro-Asiatic يتحدث بها اساسا اقليم بحيرة تشاد chad فى شمال افريقيا الوسطى ولكنها انتشرت نتيجة للتجارة وغيرها حتى اصبحت لغة للملايين فى كثير من المناطق والبلدان مثل غانا ونيجيريا وداهومى
انظر : Trudgill, p., op.cit p.146.

ولكن الامر لايقف عند هذا الحد . لانه اذا ما استخدم هذا النمـــــط اللغوى Lingua franca الذى لايعتبر - كما قلنا - لغة أصليـــة أو وطنية Native لاى من الاطراف التى تتكلمه ، ولكن بشكـــــل يتحلل من قواعد النحو ومن صور الكلمات الاصلية فيطلق عليه من ثم لفظ pidgin إذ يصبح تخريجا كما قلنا . ولكن فى الوقت الذى يهجر المجتمع الكلامى كليـــة لغته السابقة أو لغاته التى كان يتكلم بها ويتخذ من هذا النمط المعروف باســـم pidgin لغة لمولسانا ، تصير هى اللغة الأم، فان هذا النمـط يتحول إلى مايعرف باسم creole أو النمط المولد سواء كان مــــن أصل أوربى أو أصل زنجى.

وبالرغم من اننا لن نقف هنا امام تلك القوائم الطويلة التى يسوقها العلمـاء والباحثون كنماذج يوضحون بها هذه العملية المتشابكة التى يتم بها هذا التطـــور، فان الشيء المهم بالنسبة الى هذه الدراسة هى تلك القاعدة المبدئية القائلة بـــأن هناك العديد من التخريجات واللغات المولدة التى انبثقت أساسا من بعض اللغات الأوربية،فكثيرا مايحدث نتيجة للاقامة الطويلة (والمسألة هنا نسبية بالطبـــع) وللتمازج الداخلى الذى يقوم بين مجتمعين كلاميين ، أن يصير الكلام الخـــاص الذى تم تخريجه pidgin هو اللغة الأولى او اللسان الأم بالنسبـــة إلى الاجيال اللاحقة وهى بذلك تكون قد حلت محل اللغتين الأصليتين . ولعل من أول هذه الانماط والصور اللغوية لغة هاييتى Haiti التـــــى تعرف باسم haitian Creole التى انبنت أول ما انبنت على الفرنسية التى كان يتكلمها الفرنسيون المقيمون واللغة الافريقية لبعض الزنوج الاول ، حيـث مازالت اللغة الجديدة تعكس مفرداتها وقواعدها النحوية بعض ملامح هذيــــــن الأصليين البعيدين .

وكذلك لغات السرانانتونجو Sranantongo وبابيامنتــــــو papiamento اللتان انبعثتا عن الهولندية واللغة الميلانميزيـــة Melanesian .

وهناك مع ذلك بعض الفوارق التى يبرزها العلماء ودارسو الثقافة عموما

بين كل من مصطلحى Creoles و Pidgin فالاخيرة تخضع لكل عمليات التغير الطبيعية مثلها فى ذلك أية لغة. علاوة على انه بالرغم من كل مظاهر التبسيط التى تطرأ على شكل التخريجات pidgins الاصلية فانه مع مرور الزمن ودوام استخدام الاجيال المتعاقبة لهذا النمط يصير النمط المولد Creoles موضوعا لمزيد من التعقيد .

ويفسر العلماء ذلك بأن الاستخدامات القليلة والمحدودة التى كانت تستخدم فيها الصورة الاولية من التخريجات لم تكن تستدعى توافر قدر كبير من المرونة ، ولكن ما أن تصبح هذه اللغة اللغة الاصلية الاولى أو اللغة الوحيدة التى يتحدث بها الكثيرون فلابد هنا من أن تتحدد طبيعتها الذاتية المعقدة التى تستطيع بفعلها أن تتواءم مع مختلف الاحتياجات التى تشبعها اللغة الطبيعية.

من الواضح إذن أن التخريج هو لغة تعمل أساسا كوسط Medium يتم من خلاله التواصل الشفاهى oral مثلما نجد فى اللغات المولدة creoles تماما وبخاصة فى مراحلها الاولى. ولايحدث إلا فى وقت متأخر ونتيجة لتزايد الاتصال بالخارج أن تبدأ مثل هذه اللغات فى تكوين نظمها الخاصة بها سواء فى التهجئة والضبط والاصوات ومستخدمة فى الاغلب الانماط التى تجرى عليها اللغات الاوربية التى ظهرت منها كالانجليزية والفرنسية.. الخ . وقل مثل هذا أيضا فيما يتعلق بالنطق وبالاصوات والبناء والتراكيب . فمثل هذه الانماط اللغوية لاتنعدم فيها هذه العلاقات جميعها وذلك على اعتبار انها لغة وما اللغة من حيث الاصل والأساس إلا نسق من العلامات والرموز الصوتية الذى يخضع بشكل أو بآخر لقواعد محددة ، حتى وان اختلفت

أشكال هذه الرموز وطبيعة هذه العلاقات والقواعد [(١)] .

(١) والحقيقة انه يمكن القول بوجه عام انه طالما كانت الكلمات والمفردات الخاصة بمثل هذه الانماط اللغوية ايا كان الاصل الذى انبعثت عنه هي مفردات محدودة العددفي آخر الامر فنجد على سبيل المثال انها لاتزيد على ٧٠٠ كلمة في النمط الصينى Chinese pidign وحوالي ٢٠٠٠ كلمة في لغة ماليزيا كان لابد كنتيجة لهذا العدد المحدود ان يكون لكل كلمة دائرة اوسع او نطاقا اوسع من المعانى التي تعنيها الكلمة اكثر مما نجده في الانجليزية إذا قارنا بعض الكلمات المعنية بعضها ببعض، فكلمة اسف مثلا بالانجليزية sorry لاتوجد على هذا النحو في اللغة المالينيزية melanesea pidgin ولكنها كلمة Sori بمعنى تحرك عاطفيا Emotionaly moved وذلك نظرا لان الكلمة في هذا النمط ترتبط بكل مايعنى التعاطف والامتنان والسرور والاحساس بالدين والعرفان ... الخ .

(انظر : The New Encyclopaedia Britannica vol.22.op-cit.p.804.

الفصل الرابع عشر

التغاير اللغوى : ٢ـ الاصول الاجتماعية والثقافية للغة العامية (الدارجـــــة)

على الرغم من اننا عرضنا فى فصل سابق الى بعض الانماط التى يظهر فيهـــا التغايراللغوى بطريقة مقصودة، فقد آثرنا إذ ذاك ان نؤجل الحديث عن اللغـــة العامية (الدارجة) slang واكتفينا بالاشارة فى موضعه إشارة عابرة الى هـــذا النمط اللغوى الذى قلنا ان الناس عادة ما يتحدثون به فى لقاءاتهم الحميمـــة وجلساتهم الخاصة التى تجمعهم بأحبائهم وأصدقائهم من نفس السن ومن نفـــس المشارب والأهواء..

والواقع انه قد دفعنا الى ذلك دافعان الاول هو اننا نعتقد بأن اللغـــة العامية أو الدارجة كما يطلق عليها هى من الاهمية التى ينبغى أن يفرد لها فصـــل خاص، اذ لايكفى أن نشير اليها اشارة عابرة ضمن تلك المظاهر المختلفة التى تتشكل فيها التغايرات اللغوية كاللهجات على إختلاف تصنيفاتها وتنوعاتها ، أو تلك الصور المتخصصة من اللغات واللغات المقننة أو المنضبطة standard أوحتى تلك اللغـــات التى وصفناها بأنها ذات طابع متخصص والتى دار الحديث بشأنهـا حول مايعـــرف بالكلمات او التعابير الاصطلاحية Jargons والتخريجات Pidgins واللغات واللهجـات المولدة من أصول أوربية أو زنجية والتى يطلق عليها اســـم creoles .

وربما عزز من ذلك الموقف مالهذه اللغة العامية من أهمية لا باعتبارها ظاهرة لغوية تستحق الدراسة المتأنية فحسب ،ولكن على اعتبار ان الكثيرين ينظرون اليها عـــلى انها الوجه الاخر للغة المنضبطة أو المعيارية ،وهذا فى ذاته سبـــب كاف لكى نحاول اظهار ما فى ذلك من صحة بالاضافة الى ما يعنيه كل هذا من اهمية اجتماعية وثقافيه على حد ســـواء..

أما الدافع الثانى فهو اننا اردنا بهذا التأجيل لمعالجتنا التفصيلية للغة العامية

أن يبدو بناء هذه الدراسة اكثر تكاملا من حيث ما تزعم انها سوف تفرد دراسة ميدانية تكون هذه اللغة العامية محورها وموضوعها ٠ومن هنا فلم نشأ ان يتأرجح الذهن ، طويلا بين طرفي مسافة على قطبها من ناحية هذا الفصل الذى نحن بصدده وعلى قطبها الآخر الدراسة الميدانية ،وهذا الامر وان كان قد يعتبر بمعنى من المعاني وكأنه تمهيد للدرساة الميدانية،الا انه تمهيد غير مباشر مع ذلك لأنه -اولا وقبل أي شيء - ضمن البناء المتكامل للشق النظرى في هذه الدراسة٠

(١)

والتركيز على الدراسة العامية ينبغى ألا ينظر إليه على انه مبحث منفصل عن دراسة التغايرات اللغوية بعامة ٠وذلك لسبب بسيط هو انه مهما كانت النظرة التحليلية التى قد يأخذها الباحث،ومن ثم فقد يستلفت نظره جانب أو آخر ،فلا بد مع ذلك من أن ينظر إلى الظاهره اللغوية ككل ، بمعنى ان المعلومات التى قد تمده دراسته لهذا الجانب أو ذاك ، لايمكن ان تكون منفصلة فصلا تاما عن بقية جوانب الظاهرة ،طالما ان هذه الجوانب لاتمثل فيآخر الأمر سوى اجزاء من كل وان هذا الكل ينتمي ،او بالاصح ،يقوم بوظائفه في داخل النسق الاجتماعى والثقافى ذاته بكل مايعمل فيه من تأثيرات ومتغيرات تمارس بدورها فعلها وتأثيراتها،وهذه النظرة التي حاولنا ان نوضح اطارها العام هي إذن التي سوف توضح مختلف الارتباطات الواجب اخذها في الاعتبار ونحن ننظر الى ما يعترى هذه اللغة من تغيرات كما انها سوف تساعد ايضا على التعرف على طبيعة هذه التغيرات ونوعيتها والعوامل المسببه لها والمؤثره فيها ٠وليس من شك في ان كل هذا انما يتصل اتصالا وثيقا بالمكانات الاجتماعية والخلفيات الا قتصادية والمستويات الثقافية والتعليمية للمتكلمين ،اضافة الى تلك العوامل التى ترتبط بالسن والجنس وبطبيعة المواقف الاجتماعية ذاتها التى تضم هذه المتغيرات جميعها ويتشكل فى داخلها ما يتم تداولة من ألفاظ ورموز ومعانى لايمكن أن تنفصل فى آخر الأمر عن النسيج الاجتماعى والثقافى للمجتمع بأكمله ،وعلى الرغم حتى من انهاقدتكون أكثر تعبيرا عن ملمح او نمط ثقافى بذاته على تحدده العلاقات والروابط البنائية التى تعمل فى جماعة بذاتها أو فىشريحة اجتماعية أو حتى فى هذه الفئة الاجتماعية أو تلك٠

ولعل أول ما يمكن تقريره عن اللغة العامية هو ما تتصف به من عمومية وما تتمتع به من انتشار فى كل المجتمعات الانسانية المعروفة وبخاصة تلك التى قطعت مرحلة فى التقدم الاجتماعى والثقافى ، تسمح بظهور بعض صور التفاضل الذى يرتبط بالنباءات الاجتماعية المختلفة والوظائف التى تقوم بها هذه البناءات والاساليب التى تتبعها الجماعات والمجتمعات المختلفة فى حياتها ٠ وكذلك الطرق التى تستخدمها فى التعبير عن احتياجاتها ومتطلباتها ٠ وهى طرق تختلف ولاشك ليس فقط تبعا لتوزيع الاعمال والمهن ، ولكن أيضا وفقا لمظاهر التفاوت الثقافى والاجتماعى المرتبطين بالاختلافات فى الادوار الاجتماعية والمكانات التى يمثلها افراد المجتمع٠

والحقيقة ان استخدام اللغة العامية وذيوعها على هذا النحو يعتبر بوجه من الوجوه انعكاسا لطبيعة التغيرات الاجتماعية ذاتها التى تطرأ على المجتمعات٠ فقد استدعت هذه التغيرات ولاشك التوسع فى الكلمات المتدولة التى تضمنها لغة من اللغات على اعتبار ان ذلك قد اصبح ضرورة لمقابلة التصورات والمفهومات أو حتى الاتجاهات الجديدة حيال النظم والافراد والجماعات أو حتى الاشياء ذاتها ٠

ومع ذلك أن هذا يعنى ضمن ما يعنيه ان اللغة العامية تعتبر من حيث المضمون - على الاقل من هذا المنظور - إحدى المصاحبات للتغير الاجتماعى ، فليس معنى ذلك اننا نقصد ذلك المفهوم التقليدى للتغير الذى طالما درج علماء الاجتماع على استخدامه ولكننا نعنى به أساسا التغير بمعناه الواسع الذى يمكن ان نرتدبه إلى مختلف مراحل التطور الثقافى والاجتماعى التى شهدتها المجتمعات الانسانية ٠

فالملاحظ انه على طول هذه المراحل كانت تحدث دائما تحويل conversion الكلمات والمفردات والمعانى والصيغ التى يتحدث بها الانسان ٠ وفى كل هذا فقد كان الانسان يجد نفسه دائما مرتبطا بواحد من موقفين : فهو اما ان يظل مشدودا أو بمعنى أدق أسيرا لما بين يديه من كلمات اتاحتها له التجربة الاجتماعية والثقافية ، واما أن يحور فيها وان يبدل فيها وان ينتزع كلمة من مقولة نحوية إلى أخرى أو يخلع عليها دلالة جديدة فى ضوء بعض الاستخدامات الجديدة التى عنى

له ان يستخدمها فيها تسهيلا للاتصال من ناحية ولنقل المعانى التى يرغب فى نقلها فى طيات النمط الجديد الذى قد يكون الآخرين على دراية به - والا ففى جعبة هذه اللغة المحورة ما تتخفى به وتستتر من وراء حجبها وسترها دلالات بذاتها لايراد التعريف بها إلا لمن هو مقصود بأن توجه اليه ٠بعد ما أملت التحويرات من التغيرات ما يمس جانب النطق نفسه وليس مجرد التركيب والصياغة أو المعنى٠

(٢)

ولقد كنا ذكرنا من قبل ان اية دراسة واعية للغات وا للهجات الاجتماعية تفترض مسبقا وجود قدر من الفهم والادراك بطبيعة البناء الاجتماعى كما ينظر اليه السسيولوجيون بصفة خاصة٠

واستنادا الى مثل هذا الافتراض فقد رأى جانب كبير من الباحثين ان اللغة العامية (الدراجة) تنبثق أساسا من خلال عملية الصراع القيمى أو اصطراع القيم بمعنى أدق ٠أو على الاقل احتمال حدوث الصراع الذى تنطوى هذه القيم الاجتماعية على بذورة الاولية الى أن تتاح المواقف أو الظروف المواتية التى تهيىء لتفجيرة ربما بشكل سطحى super ficial أحيانا ،ولكن بشكل أساسى وجوهرى fundamental فى أحيان أخرى٠

ومع ان هذه النظرة أو بالأصح المنظور ،قد يبدو من وجهة نظر البعض بعيدا عما سبق ان قلناه بصدد ان ظهور هذه اللغات العامية يصاحب مظاهر التغيرات الحادثة فى المجتمعات ،الا ان الاكتفاء بذلك من الواضح انه يعكس فهما خاطئا للقضية برمتها، لان عملية الصراع القيمى هذه او الصراع بين القيم لاتنفصل فى جوهرها عن عملية التغير ا لاجتماعى والثقافى ذاتها وهذه نظرة دينامية لاتفصل فى الحقيقة بين التغير أو مظاهر التغير وبين مكوناته٠

ويضرب السسيولغويون مثالا يسعون به الى توضيح مايقصدون من هذه النقطة فهم يذهبون الى انه عندما يلجأ الفرد الى استخدام اللغه بطريقه جديده تختلف

عماكان سائدا أو مألوفا في الجماعة التي ينتمي اليها ،فان ذلك انما يحدث في العـــادة لكفاية احد امرين : فاما ان يكون الاستخدام استخداما عاديا يحاول بـه المتحدث أن ينقل على غيره الافكار او القيم او الاتجاهات حيال مااستحدث من تغيرات وهو ما يحدث بشكل سوى الى حد بعيد في حالة مالم تكن المصالح أو حتى الظــروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية العامة متعارضة أو متضاربة ٠واما ـ وهذا مـــن الناحية الاخرى ـان تكون هذه التغيــرات الواقعة مثيرة بالفعل لمثل هـــذه التعارضات سواء كانت تعارضات حقيقية أو ظاهرية ،ولكنها كافية على أى الاحوال ، لان يستخدم الفرد اللغة بطريقة تشكف عن العدوان hostility وعـــن السخرية أو ربما ايضا الاحتقار وما إلى ذلك من المشاعر التي توجه الى الاشخـــاص أو إلى الاشياء٠٠

فاذا ما تم هذا التعبير في قالب من الذكاء والفطنة أو حتى كان مغلفا بمـــا يجعله يبدو هكذا ، فان مثل هذا الفرد يكون عندئذ بصدد (نحت) كلمة عاميـــة لها مدلولها الخاص الذى أملته طبيعة الموقف ذاته من ناحية ،وكذا طبيعة العلاقة الاجتماعية التي ترتبط بين الافراد انفسهم من ناحية ثانية وايضا الغرض الذى من أجله تحدد التعبير في هذا النمط اللغوى بالذات ،ما إذا كان منبعثا من العلاقـــات الاجتماعية والثقافية أو بفعل العوامل التي شكلت الموقف من ناحية أخرى ،وانمـــا المهم مع ذلك هو ان هذا التعبير الدارج ايا كانت صورته لفظا كان أو نكته أو حتـــى ايحاء أو ايماءة لفظية ،لن يكتب له الدوام الا اذا قدر له ان يلتقطه الآخــــرون فيتردد من ثم فوق السنتهم وهم يستخدمونه في المواقف المشابهة لنقل المعنـــى الذى ينطوى عليه ٠وان كان قد يتحور نطقة أو حتى مضمونة بدرجة تقل أو تكبر٠

ويمكن القول بوجة عام انه بقدر ما يكون التعبير الجديد انعكاسا أو بالأصـــح اسقاطا عاطفيا لمشاعر باقى اعضاء الجماعة تجاه موضوعه سواء كان شخصا أو فكرة أو مبدأ أو نظاما اجتماعيا ٠٠٠٠الخ ،يكون اكتسابة لصفة الدوام وصفة الانتشار وهو ما يتوقف إلى حد بعيد على درجة تآلف أعضاء الجماعة واجماعهم أو اتحادهم فـــى الاتجاه ٠

ويكون معنى ذلك كله ان هناك اذن تفرقة ينبغى الالتفات اليها بيـــــن اللغة العامية (الدارجة) فى اطلاقها وكما تستخدم هذه الكلمة فى العادة لتشيـــر الى لغة الكلام (واحيانا الكتابة) العادية التى تجرى بين الناس دون مايتقيـــدون بالنواحى الاصولية أو القاعدية للغة أو حتى دون ان تتحدد المتأنى فى قوالبهـــا اللغوية السليمة بناءا وتركيبا ، وبين بعض ما تتشكل فيه هذه العامية من صياغات مقصودة تصبح الكلمة بموجبها (او التعبير) مصطلحا عاميا slang term خاصا له دلالته المعينة ، فلا يستخدم من ثمة الا فىظروف خاصة وفى أوســـاط اجتماعية وثقافية معينة ٠

والواقع ان هذه الخاصية التى يؤكد العلماء والباحثون انها خاصة أساسية فى المصطلح العامى (الدارج) هى التى تكشف لنا عن طبيعة مكوناته وخصائصـــه ، كما انها هى ايضا التى توضح لنا اوجه استخداماته وغير ذلك من الامور التى ترتبـــط به ٠

ولقد حاول البعض أن يستقصى هذه الناحية ليقف على الشروط التى لابـــد من توافرها لظهور المصطلح العامى، واكدوا فى ذلك ان أول هذه الشروط يتمثـــل فى ضرورة وجود الثقافة الفرعية sub - culture التى تعتبـــر بمثابة الارضية الحقيقية أو المناخ اللازم لتولد هذه المصطلحات ولاستخدامها على نطاق واسع ٠ فالمصطلح العامى الجديد يظهر اول مايظهر فى ثقافة فرعية ، قبلما يظهر فى النمط الثقافى السائد ٠

وبتعبير آخر يمكن القول اذن ان هذه المصطلحات او الكلمات العاميـــة الدارجة التى تظهر من آن لاخر والتى قد يكتب لبعضها ان يدوم ويستمر انما تعبر بالدرجة الاولى عن اتجاهات بعض الجماعات أو الطبقات الاجتماعية بعضها حيـــال البعض ٠ ولكن هذه الاتجاهات لاتكون بالضرورة عدوانية أو تستهدف التحقيـــر او التهوين من شأن قيم الجماعات أو الطبقات الاخرى ، ولكنها قد تكون منطويـــة على شعور عام ، ومن هنا يكون المصطلح منطويا فحسب على ايماءة تستخـــدم كاشارة على الشىء أو الفكرة أو القيمة ٠ وهنا ايضا يظهر الوجه الرمزى للمصطلـــح

العامى كبديل للكلمية الشائعة فى الثقافة العامة للمجتمع.

ومع ذلك فقد فطن الباحثون الى ان المصطلح العامى قد لايكون بالضرورة موجها من جماعة معينة الى جماعة اخرى أو من طبقة اجتماعية لطبقة اجتماعية أخرى كما قلنا . ولكنه قدينبت أيضا من داخل الجماعة ذاتها وانما ليسخر من افكارها وسلوكياتها أى انه يتهكم على القيم الذاتية للجماعة التى ينتمى اليها . وتبدو هذا الصيغة الانتقادية للمصطلح فى ثوبها بالغ الحدة وبالغ الصراحة فى آن واحد.

والواقع انه يصعب القول إزاء هذا كله بأن توليد أو نحت مثل هذه الكلمات أو المصطلحات العامية مسألة ترجع الى الفرد وحده أو حتى إلى أفراد منفصلين ، ولكنها تتم فى الغالب الاعم وسواء كان ذلك عن طريق التحدث أو عن طريق الكتابة كنتاج لتفاعل العديد من القوى والعوامل الاجتماعية التى تثير الموقف وفى الوقت نفسه تثير رد الفعل اللفظى تجاه هذا الموقف. ولعله من هنا بالذات تبدو الاسباب التى تجعل من الصعب حقيقة تحديد أصل المصطلح العامى والظروف التى أدت إلى ظهوره ونشأته .

(٣)

ومن المعروف ان المجتمع الحديث يزخر بالعديد من الثقافات الفرعية التى تتباين فيما بينها بدرجة أو بأخرى (١) . ومع أن معظم العلماء يقصدون بالثقافة الفرعية نسق القيم والاتجاهات وانماط السلوك أو أساليب الحياة التى تتميز بها جماعة اجتماعية عن باقى ملامح الثقافة العامة فى المجتمع ، فان الامر بالنسبة إلينا هنا ونحن نتحدث عن الصلة العضوية بين المصطلحات العامية وبين هذه الثقافات الفرعية التى قلنا انها تمثل التربة الخاصة المواتية تماما لظهورها وتطورها يثير أمرين لابد من التريث أمامهما بعض الشيء .

وأول هذين الامرين هو ان مصطلح الثقافة الفرعية يتضمن فى ذاته اذا ما أردنا تحليله صعوبة جوهرية تنعكس من غير شك على عملية (نحت) المصطلح

---

(١) محمود أبو زيد المعجم فى علم الاجرام والاجتماع القانونى والعقاب ، دار الكتاب للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - ١٩٨٧ الصفحات ٤٧٧ ، ٤٧٨

العامى . وبخاصة عندما نأخذ بنظرة البعض الذين يؤكدون ان معظم الثقافات الفرعية المعاصرة ليست سوى أشكال أو انماط تعمل ميكانيزماتها الذاتية على إبراز (انحرافات) بعض الطبقات والجماعات الاجتماعية عن الانماط المعيارية فى الثقافة السائدة .

أما الامر الثانى الذى يثيره ايضا مصطلح الثقافة الفرعية فهو انه يعنى (بهذا التحليل) التسليم الضمنى بوجود ثقافة كلية مسيطرة . وهذا معناه أيضا أن اى نوع من الارتباط بجانب أو بآخر من جوانب هذه الثقافة الكلية المسيطرة من المنتظر ان يثير كافة المشكلات المشروعة وغير المشروعة التى يدور من حولها الحديث عند التعرض للثقافة الفرعية (١).

وقد لايكون من المهم هنا ان نتتبع او حتى نشغل أنفسنا بما قيل فى أصل الثقافات الفرعية (٢) لأن مايهمنا فى الواقع هو ان نبرز حقيقة ان هذه الثقافات تكشف عن وجود بعض الظواهر اللغوية الخاصة التى تختلف فيما بينها اختلافا بينا من حيث الشكل والمحتوى ، وهو مايرجع بصفة أساسية إلى الجماعات الاجتماعية والعلاقات التى تقوم بينها من جانب ومن جانب آخر بينها وبين الثقافة الكلية السائدة فى المجتمع .

والمتفق عليه عموما هو أن تلك الصدمة shock أو القيمة المفزعة (حقا) التى يتمتع بها المصطلح العامى إنما ترجع الى التحويل اللفظى

---

(١) Brake, M., The sociology of youth culture and youth sub-cultures. 1980. pp. 15-9.

(٢) ويمكن الرجوع فى ذلك الى كتابات البرت كوهن وبصفة خاصة :

Cohen, A.K., Delinquent Boys: the culture of the Gang. chicago. 1955.

وانظر ايضا فى هذا السياق الدراسة القيمة التى اجراها أوهلن وكلووارد :

Clowarad, R, and Ohlin L. Delin quency and Opportunity: A Theory of Delinquent Gangs. 1960.

للقيم التى تشتمل عليها الثقافة الفرعية الى قيم مناهضة وعلى النقيض تماما من القيم الاجتماعية فى الثقافة العامة.

وينبغى الا يكون تقريرنا لهذا الامر على هذا النحو مثيرا للدهشة أو للاستغراب ، إذ من السهل الحصول على اكثر من مثال واحد يوضح هذه الناحية . فالكثير من المصطلحات والكلمات العامية التى توجه عادة الى بعض الفئات المهنية أو الوظيفية ولتكن رجال الشرطة مثلا لاينتظر ان تكون من صنع وخلق رجال القانون ولكنها بالاحرى من خلق أولئك الذين يخرقون القانون ويخرجون عليه عموما . أو بمعنى أدق اولئك الذين ينتمون الى مايمكن ان يطلق عليه الثقافات الفرعية المنحرفة Deviant sub - cultures (١).

وفى ضوء هذه الملاحظة فيكون المنتظر إذن ان تزداد حدة الطابع الهجومى أو حدة الموقف المعارض الذى ينطوى عليه المصطلح العامى كلما كان التعارض بين النمط الثقافى العام ومثل هذه الانماط الثقافية الفرعية كبيرا وواضحا . وهو مايظهر بشكل يصعب تخطئته بين جماعات الشباب بصفة خاصة والمراهقين باعتبارهم اكثر ميلا إلى التحول إلى هذه الانماط الثقافية الهامشية والفرعية لعدم توافر الثقافة التى تتكامل حول قيم أساسية مقبولة وايجابية من ناحيتهم.

ولاجدال فى ان الجماعات المهنية فى مقدمة الجماعات من حيث ضخامة العددوضخامة الحجم . وبالرغم من أن الاتجاه العام الذى تتحرك فى داخله مثل هذه الجماعات أو البناءات مما يعتبر متوافقا الى حد بعيد مع النمط الثقافى العام ،

---

(١) يقصد بهذا المصطلح تلك الانماط الثقافية التى تختلف فى بعض المظاهر وبخاصة القيم والمعايير والمعتقدات الاساسية عما يسود فى الثقافة العامة للمجتمع وهى انماط تتميز باحتوائها سواء على مستوى الطبقة او الحى أو الجماعة او حتى الشلة الصغيرة على عناصر ثقافية جانحة ، ومن ثم يكون الانتماء اليها احد الاسباب الرئيسية فى كثير من مظاهر السلوك الاجرامى والانحرافى عموما .

انظر فى ذلك: المعجم فى علم الاجرام والاجتماع القانونى والعقاب ،مرجع سابق صفحة ٢٠٥.

فان هذا التوافق لايمنع من وجودالكثير من مظاهر العدوان الاجتماعي واللغــوى الذى تسعى به بعض هذه الجماعات الى تأكيد التضامن الفئوى والمهنى فيمـــا بينها ٠

وصحيح ان كثيرا من الكلمات والمصطلحات العامية التى قد تقذف به مثـل هذه الجماعات المهنية فى وجه الآخرين أو حتى فى وجهها هى نفسها ، قد يظـل محصورا فى نطاق المهنة والقائمين عليها والمشتغلين بها نظرا لتخصصها وارتباطها الوثيق بطبيعة الاعمال وفنيتها ، ولكن هذا لايمنع من ان يتسرب بعضها الـــى خارج الجماعة المهنية ويسرى من ثم من جيل الى جيل ٠

وقد لانكون هنا بصدد اعطاء حصر شامل لكل انماط الثقافة الفرعية التـــى تولد هذه الكلمات والمصطلحات العامية فى تربتهاوبيئتها ٠ ولكن هناك بالاضافة إلى هذه الجماعات المهنية والحرفية التى اشرنا اليها كافة المظاهر التى يمكن ان تكـون موضوعا للهجوم أو التهكم أو السخرية أو حتى (التشنيع) سواء بطريقة مباشـرة او بطريقة غير مباشرة ، وسواء كان مضمون المصطلح واضحا وصريحا أو يكتفى فيـــه بالرمز والتلميح دون الافاضة والتصريح ٠

ولا تعتبر كافة مظاهر الانحرافات أيا كانت طبيعتها هى وحدها التـــى تصلح لان تكون موضوعا لهذه المبتكرات العامية ، ولكن البناءات والتنظيمـــات والمنظمات على اختلاف انواعها وبخاصة تلك التى تمارس نوعا أو آخر من أوجـــه النشاط السياسى أو الثقافى الذى قد يكون له انصاره ومعارضيه٠ فمثل هذه الكيانات الاجتماعية تعتبر فى الحقيقة من أهم المصادر لتوليدهذه المصطلحات ، عـــلاوة بالطبع على تلك الثقافات الفرعية الانحرافية التى تنطوى تحتها طوائف المجرميـــن المحترفين professional ٠ ويكفى ان نشير هنا إلى تلك الاجيا ل البعيدة التى هاجرت إلى امريكا منذ أخريات القرن السادس عشر فمازالت بعض فئات اللصوص يرمزون إلى انفسهم بالحروف ffv كاختصار للجملة الانجليزيـــة First Families of Verginia ٠

(٤)

وبوجه عام يمكن القول بأن معظم الثقافات الفرعية أميل الى ان تستخرج الكلمات والجمل والعبارات من اللغة القريبة وذلك الى درجة انها قد تعتمد على ذلك اكثر مما تعتمد على ما تنحته أو توجده هى ككلمات أو مصطلحات جديدة تماما. وان كانت تسبغ على هذه الكلمات والعبارات والمصطلحات التى تم استخراجها معانى جديدة خاصة تتفق ومواقعها التى تتخذها من الثقافة الأم .

ومع ان هناك من غير شك بعض الفئات المهنية التىيجنح المشتغلون بها الى خلق كلمات ومصطلحات علمية ومنطقية جديدة تماما وذلك مثل فئات رجال القانون والطب أو الاجتماعوالمهندسين والسيكولوجيين ... الخ ، فان هذه المصطلحات التى غالبا ما ترجع من حيث الاصل الى اللغة اللاتينية أو الاغريقية مما يصعب القول بأنها تمثل مصادر رئيسية للكلمات والمصطلحات العامية ، وذلك على الرغم ان بعض الفئات العاملة فى بعض هذهالمهن كالممرضات مثلا أو الطلبة فى تخصص أو آخر كثيرا مايستخدمونها فيما بينهم بعدما يقومون بتعديلمالديهم من مصطلحات بالشكل الذى يتوافق مع اتجاهاتهم انفسهم.

ولقد سعى بعض العلماء إلى الكشف عن العملية التى تتم بها صياغة الكلمة الدارجة أو المصطلح الدارج. ومع ان المتفق عليه عموما انه من الصعب الوصول الى شيء واضح ومحدد يمكن القول بأنه يمثل نظرية بهذا الصدد نظرا لأن مثل هذه الكلمات والعبارات مما يستحيل (أو على الاقل يصعب جدا) ترجمته ترجمة دقيقة وأمينة الى لغة اخرى بعيدا عن الاطار او الذاتيات والحقائق الثقافية التى تقوم وراءها ، وكله مما يضاعف من عناء البحث والاستقصاء ، إلا أن هناك مايشبه الاتفاق بين العلماء على ان العمليات التى تصبح الكلمة بمقتضاها كلمة أو اصطلاحا دارجا لاتختلف فى شيء عن تلك التى تتغير بها معانى الكلمات الاخرى أو صياغتها وبناءاتها تحت الظروفالعامة والعادية.

ولقد كان لاتساع معرفة علماء اللغة بالجوانب المتعددة للظاهرة اللغوية،

وبالتالى وقوفهم على مايعرف فى هذه الدراسات اللغوية بمستويات التحليل اللغوى اثره الكبير فى توضيح هذا الجانب • حيث نجد ان بعض الكلمات والمصطلحات الدارجة تمثل تحريفات distortion تطرأ على الاصوات الاساسية• كما أن بعضها الآخر قد يكون نتيجة للتعميم generalization أو التخصيص specialization أو التنافر uncompatibility • زد على ذلك انها قدتحدث احيانا نتيجة لتدنى المعانى وانماطاطها degradation أو تدهورها بسبب استخدام المجاز والاستعارة metaphor أو التشبيه simile والمشهابة أو المماثلة simulitude أو الكلمات والمفردات الشعبية بالاضافة الى الترادف والمبالغة أو الاطناب والغلو•

بيد أن هناك الى جانب ذلك كله بعض الاتجاهات والنظريات الأخرى التى حاولت ان تقدم بعض التفسيرات التى تقبلها السسيولوجيون بالفتور وعدم الحماس نظرا لاعتمادها بشكل أساسى على التحليلات السيكولوجية واللغوية وامتزاج ذلك بكثير من النظر الفلسفى مما لم يعد السسيولوجيون يتقبلونه أو يقفون أمامه إلا بمزيد من الحرص والتوجس•

فلقد أرجع البعض من علماء القرن التاسع عشر وبصفة خاصة ممن تأثروا بالاتجاهات التطورية والحيوية التى كانت سائدة آنذاك الكثير من مصطلحات اللهجة العامية الاصطلاحية إلى مراحل قديمة وسابقة فى تطور الجنس البشرى وحددوا هذه المراحل فى المرحلة الحيوية animism بالذات التى قالوا بأنها كانت تمثل ديانة عامة•

ونقطة الارتكاز التى حاول هؤلاء العلماء أن يبرزوها هى المبدأ الحيوى القائل بأن ثمة وجهين لكل الاشياء هما الوجه الخارجى والوجه الداخلى أو الظاهر والباطن • والاول موضوعى ومحسوس اى ما يمكن ادراكه بالحواس على حين لايستطيع الافراد الا من بين اولئك الذين وهبوا موهبة أو قدرة خاصة فائقة للطبيعة أن يدركوه • ولكنه متوحد مع ذلك مع ما أصبحنا نطلق عليه اليوم الشىء " الحقيقى" •

وفى ضوء ذلك فلا تتصف الاشياء (والانسان) بصفات الاستمرار والديمومة الا بقدر حيازتها او سيطرته على هذا المبدأ الحيوى ، أو على الاقل اقترابه واقترابها منه وهو ما دفع الى ظهور العديد من الوسائل التى سعى بها الانسان الى تحقيق ذلك كالسحر التعاطفى الذى لعب فيه استخدام اللغة دورا كبيرا . فكأن للكلمات من ثم قوى عظمى فائقة لأن بمقدورها اختراق الزمان وعبور المكان فتؤثر فى الاشياء التى توجه اليها .

والحقيقة ان مثل هذه الافكار لم تسلم من النقدوالتجريح مثلها فى ذلك باقى الاراء التى قال بها التطوريون وانصار النظرية الحيوية . ولكن هذا لايمنع ابدا من القول بأنها كانت من غير شك أحد العوامل الهامة التى استطاعت ان تلفت الانظار الى القوى التى تحوزها اللغة وتمتلكها الكلمات . كما انها لفتت الانظار ايضا الى تلك الحقيقة التى اصبح علماء اللغة من مختلف التخصصات المهتمة بدراسة اللغة يسلمون بها إلى حد بعيد وهى أن لكل كلمة تاريخها الخاص وحياتها الخاصة والاسباب التى تحظى من أجلها بمظاهر الشعبية والتقبل والشيوع . وكله مما لايمنع التسليم بأن هذا التاريخ بملامحه المميزة انما يتغير بفعل عوامل التغير التى تمس النظم والظواهر الاجتماعية . فاذا بلغ التغير فى المعنى حدا معينا كان من المحتمل اندماجه فى اللغة المنضبطة ، أو استمر فى الاستخدام باعتباره مصطلحا من المصطلحات العامية التى تتوافق مع فئات معينة يعيشون مزاجا ثقافيا معينا .

معنى هذا إذن ان لهذه المصطلحات مايمكن أن نصفه بأنه دورة حياتها الخاصة . فهى تحيا وتموت وتتعرض لكل ما تتعرض له سائر المظاهر الحياتية الأخرى من ظواهر الموات والحياة . والعادة ان تكون لها معدلات وفاتها وحياتها فى الثقافة العامة المسيطرة وترتفع معدلات حياتها اذا ماكانت قادرة على اشباع متطلبات التغيرات الحادثة والتى تتعرض لها مختلف نواحى الثقافة المادية والثقافة اللامادية على السواء .

(٥)

من الواضح اذن ان هناك عوامل كثيرة يرجع اليها دوام الكلمات العامية أو اندثارها • ومع انه يمكن القول انه على حين نجد الكثير من هذه الكلمات تقـــدم معانى ومفهومات أو تصورات جديدة ، فان جانبا كبيرا منها قد نجح أيضا فى اعطــاء تعابير جديدة مليئة بمختلف مظاهر الحيوية والسخرية والقدرة على (تعريـــة) الامور أو الاتجاه اليها مباشرة مما يحدث ما اصطلح على تسميته بالصدمة الاصطلاحية التى يرى الكثيرون انها مسألة لازمة لبقاء الكلمة الدارجة ولاستمرارها •

وقد يكون الصوت هو المحور الرئيسى أو الركيزة الأساسية التى يعتمد عليها المصطلح فى تحقيق فعاليته وانتاج اثره كما يحدث كثيرا فى حالات التحريف عـــن المصطلحات اللاتينية والاغريقية الاصلية • أو كلما نلمس فى تلك الايقاعـــــات المنضبطة التى تتدفق بها الاصوات وتعمل على خلق مزاج بين الصوت (الايقـاع) والصورة المتخيلة •

ولعلنا نعرف جميعنا مد ى ما أصبحت تمارسه اصوات معينة اليوم(بيب •• بيب) على فئات عريضة من جماهير الرياضة عموما خاصة اذا ما امتزج هـــــذا الصوت الايقاعى الذى يصدر من الفم مع ماتصدره أبواق السيارات إثر إحدى مباريات كرة القدم•

ولكن الايقاع قد لايكون ايقاعا لفظيا او صوتيا فى كل الحالات لانه كثيــرا مايكون ايقاعا حركيا ولكنه يحقق مايتضمنه المصطلح العامى من مضمون • ومثال ذلك تلك الحركة الانسيابية والدائرية ايضا التى ترسمها اليدان للاشارة الى جسد المــرأة عموما وهو مايعبر عنه بلفظ twist and twirl الذى يعنى تلـــك الحركة التى تتمايل بها المرأة أثناء سيرها •

وعلى أى الاحوال فان معظم الكلمات الاصطلاحية العامية تعتمد فى جانب كبير من صياغتها وفاعليتها على عدم ملاء مة أو مناسبة الوصف الذى قد يتحقق فـــى ضوء المتضمنات التى قد يثيرها التخيل العميق ، لما هو قائم بالفعل بمعنـــى

وجود نوع من التناقض بين الواقع وبين الرؤية التصورية إذا صح التعبير٠

ومع ذلك فليست كل الكلمات الاصطلاحية من نوع أو نوعية واحدة٠ فقـــد يعكس جانب منها الاحتياج البسيط لوجود مصطلحات جديدة تحل محل التى تقادم بها العهد أو التى طال أمد استخدامها مثل تلك التى ترمز الى الامور الحسية بصفــة خاصة كأنواع الاطعمة والمشروبات ٠ على حيت تتطلب مجالات التعبير عن الجنس التغيرات المستمرة فى هذه المصطلحات نظرا للحساسية التى يتم بها تداولها ونظر ا للحاجة الى تغليف اللفظ والغرض وراء مالايفهمه الآخرون ٠

وعموما فان اكثر المصطلحات أهمية وأبعدها تأثيرا هى من غير شك التـــى تستطيع ان تقول شيئا لابصددموضوعها فحسب ولكن ايضا بصدد من يستخدمهـــــا وبالتالى القالب أو الاطار الاجتماعى الثقافى الذى تلقى فيه٠

وقد تتزايد جدة هذه الكلمات ويشتد وقعها عندما يتطلب فهمها الوقـــــوف ولو بشكل يسير على بعض ماتنطوى عليه من معارف وهو مايمثل صعوبة علــــــى أى الاحوال لأن من أهم خصائص الاصطلاح العامى ان يقال للتمويه والتعميـــة ، أو كيلا يفتضح مايشتمل عليه من معلومات أمام الآخرين ٠

وقد تكفى هذه الامثلة لتحديد أهم الجوانب التى تتميز بها الكلمـــــــات الاصطلاحية الدارجة ٠ ولكن ينبغى مع ذلك بعض النواحى التى قد تكون لهاأهميتها حتى تتكامل الصورة فى الاذهان سواء من حيث ظروف تولد هذه الكلمات أو كيفيـــة انتشارها والتأثيرات التى تمارسها ٠

وكما قلنا من قبل فان هذه الكلمات عادة ماتغزو الثقافة السائدة فى المجتمع عن طريق بعض الثقافات الفرعية ٠ وفى هذه العملية وضح لنا أن بعض الكلمات قد تقع مبتة على حين يقدربعضها الآخر على الصمود والبقاء فى الثقافة السائدة ، وان يكن هذا لفترات قد تختلف فى الطول ووفقا لمجموعة الظروف الأخرى التى تســـود هذه الثقافة٠

ولكن الكلمات الدارجة الاصطلاحية باعتبارها احد مظاهر اللغة من الطبيعى أن تتأثر ايضا ـ كالظاهرة اللغوية فى عمومها ـ بكل مايطرأ على المجتمع والثقافة من تغيرات بفعل ما أصبح ميسرا من أساليب التطورات التكنولوجية والآلية ووسائل الاتصال الجمعى الحديث التى ساعدت جميعها على نشرها من مكان الى مكان بشكل لم يكن قد تهيأ من قبل .

وكما ان هذه الوسائل الحديثة قد سهلت الاتصال مابين المجتمعات فقد أدى ذلك الى ان تتعرف هذه المجتمعات بالتالى على مختلف الانماط الثقافية والنظم الاجتماعية التى توجد فى المجتمعات الاخرى . بمعنى آخر نريد أن نقول ان وسائل الاتصال الجماهيرى كانت ، وبخاصة منذ أخريات الحرب العالمية الثانية من اهم السبل التى ساعدت على انتشار مصطلحات وكلمات دارجة جديدة تماما بالنسبة الى المجتمع البشرى عموما . وهى مصطلحات صاحبت ، أو بالاصح، نجمت عن التغيرات الخطيرة والحاسمة التى سببتها هذه الحرب والظروف الاقتصادية والسياسية .. الخ التى اصبحت تعيشها الدول وحيث لم يعد فى العالم ماهو على حاله القديم وانما كل شىء فيه قدتغير بما فى ذلك القيم والمبادىء والاخلاق والمفاهيم والمعايير والتصورات . وكله وثيق الصلة من غير شك بما تفرزه البناءات الاجتماعية والثقافية المختلفة من ظروف تهيىء للانحراف أو للسواء ، ولم تكن أى من الناحيتين لتخلو من المشكلات وان كانت طبيعة هذه المشكلات ومدى حدتها هى التى مثلت موضع الاختلاف .

ويكفى أن يسمع المرء اليوم إحدى النشرات أو أحدالبرامج التى يبثها المذياع أو التى يشاهدها المشاهد على شاشة التلفزيون ليقف على كم هائل ومتراكم من هذه الكلمات الدارجة التى اصبحت ترد حتى فى التقارير والاخبار الرسمية وعلى ألسنة المذيعين والمتحدثين وكأنها قد أصبحت جزءا من ثقافة تتسم بخصائص لم تتعودها أو لم تنفتح عليها أعين ولا عقول الاجيال الاكبر .

ولايختلف الحال بالنسبة الى الاغانى الشعبية التى تمثل بدورها إحدى القنوات الرئيسية لنشر هذه الكلمات الاصطلاحية ولنقلها ـ بصرف النظر عن

مستواها وقيمتها - عبر النسيج الاجتمعى والثقافى بأكمله. ناهيك عن الافلام السينمائية وما تمتلىء به من مصطلحات تشير الى الجريمة والانحراف والمجرمين والمنحرفين ، وكأنها تنقل الى الاسماع ملامح واقع كلامى له من غير شك آثاره السيئة وبخاصة على تلك الاجيال الاصغر التى يسهل الايحاء لهم أو يميلون الى الالتقاط والتقليد.

وكما سبق أن ذكرنا فان استخدام هذه الكلمات الاصطلاحية الدارجة مما تتعدد اغراضه ولكنها تعبر عموما عن بعض الاتجاهات العاطفية أو الانفعالية حيال شىء ما أو موضوع ما . ومع ذلك فانه يظهر عند التحليل اللفظى والدلالى ان الكثير منها يعكس صورة الذات التى تسعى الى التوحد مع جماعة داخلية أو طبقة من الطبقات.

وبالرغم من ان البعض من هذه المصطلحات قد يهدف الى التملق أو الثناء أو المديح وما الى ذلك مما قد يكون موجها الى الاشخاص أو الى النظم ، فان من السهل أن تتغير كل هذه المعانى اذا ما استخدمت جماعات أخرى أو اشخاص آخرين هذه الكلمات ذاتها . ومن هنا صفة الكلمة الاصطلاحية المزدوجه التى تجعلها أشبه بالموسى ذات الحدين two-razors-edge . فقد تتضمن المديح كما قد تنطوى على الهجاء والاهانة والتحقير. الامر الذى يتوقف - كما قلنا - على طبيعة المواقف الاجتماعية التى تلقى فيها ، وعلى العوامل والظروف الثقافية والسيكولوجية التى تباشر تأثيرها فى كل من الموقف والافراد . ومن باب أولى الغرض الخفى الذى يسعى المتكلم إلى التعبير عنه صراحة أو ضمنا.

ومهما يكن من أمر فلا تكاد توجد فى العصر الحاضر الذى أصبحت تتفاعل فيه العديد من الانماط الثقافية والاجتماعية وسواء اكان ذلك تعاونا أو تنافسا أو صراعا ناحية من نواحى النشاط البشرى أو التجميع الانسانى ايا كان شكله وطابعه إلا ويستخدم هذه الكلمات الدارجة ذوات المعانى المضمرة بشكل أو بآخر. فاللغة العامية بما تشتمل عليه من كلمات اصطلاحية يمكن القول بأنها قد أصبحت شيئا مقبولا ومعترفا به اجتماعيا وربما ثقافيا كذلك. وهى وان كانت تثير فى بعض

الاحيان ثائرة السامعين أو ثائرة القارئين الا انه ليس من السهل التغافل تماما عن الوظائف الاجتماعية والثقافية التى تقوم بها خاصة من حيث انها تضيف بعدا لايخلو من إثارة وطرافة (بالمعنى العلمى) الى اللغة التقليدية التى تربى عليها الاجيال الاصغر عادة ٠

وربما من هنا فتعتبر موضوعا من أخصب الموضوعات التى تستأهل المزيد من عناية الدارسين سواء كانوا من علماء اللغة أو من علماء الاجتماع ٠٠ الخ طالما انها تكشف عن بعض جوانب الثقافة التى يتم استخدامها فيها وتتحقق أيضا وظائفها وأغراضها ٠

الباب الخامس

الانماط اللغوية فى ثقافة الشباب الفرعية
(دراسة ميدانية للمصطلحات والكلمات العامية (الدارجة) لدى الشباب

تقديـــــــــم

إذا كنا قد سعينا فى الابواب الأربعة السابقة الى تقديم مانعتقد انه اكثر الجوانب النظرية اهمية فيما يتعلق بوجود اللغة وفعلها فى المجتمع والثقافـــــة ، وخصصنا الباب الرابع والاخير من هذه الابواب لمناقشة ظاهرة التطور اللغـــوى العام وماتثيره هذه الظاهرة من مشكلات لايمكن ان يتم التصور الصحيح لها الا من خلال تلك العوامل الاجتماعية والثقافية التى تعمل فى داخل النسق الاجتماعى.

واذا كنا ايضا قد أفردنا الفصلين الأخريين من هذا الباب الرابع ليكونـــا محور حديث مستفيض بعض الشيء يدور بأكمله حول ظاهرة التغاير اللغوى والأنماط اللغوية المختلفة التى تتولد أو تنتج سواء عن قصد أو يشكل تلقائى نتيجة لتشابك الوضعيات الثقافية والاجتماعية ، وركزنا فى ذلك على اللغة العامية (الدارجـــة) كنمط له طابعه الخاص من هذه الانماط اللغوية التى تتكشف فيها ظاهرة التغايـر اللغوى • فقد كان كل هذا بمثابة الاطار الطبيعى الذى لابد من الوقوف من خلاله على بعض مايهيىء الى الانتقال الموضوعى الى الباب الخامس الذى آثرنا أن نخصصه لدراسة ميدانية تتجاوز بموضوعيتها ومن خلال منطقها البحـثى ذلك النقاش النظـرى الذى ادرناه عن الكلمات والمصطلحات العامية ، الى" البحث" فى الماهية الواقعية لهذا النمط اللغوى والتعرف على طبيعة السياقات الاجتماعية الثقافية التى يتـــم فيها الحديث بهذه الكلمات والمصطلحات فى واحدة من تلك الثقافات الفرعية التـــى تعمل فى المجتمع ويتميز بها الشباب بصفة خاصة •

والمنتظر على اى الاحوال ان يتم فى ضوء هذه المحاولة للربط بيــــن النظر والتطبيق فهم أعمق لواحدمن أهم أبعاد ظاهرة التغاير اللغوى وأشدهـــا فعلا وتأثيرا • وان كان من المهم القول – مرة ثانية – بأن محدودية هـــذه الدراسة الميدانية بالنظر لامكانات الباحث المفرد مما قد يلقى بشيء من الظلال على بعض الجوانب وان كانت لاتمس فى شيء ما توصل البحث الميدانى إليه من نتائـــج أو محاولة فهم هذه النتائج وتفسيرها •

الفصل الخامس عشر

الاطار النظرى والمنهجى للدراسة

(١)

يمثل موضوع الاختلافات او التغايرات variances فى الانماط اللغوية التى توجد بين المجتمعت والثقافات المختلفة ، أو حتى بين البيئات أو الجماعات فى داخل المجتمع نفسه واحدا من أهم الموضوعات التى أصبحت تثير اهتمامات اللغويين بعامة ، وعلماء الاجتماع اللغوى والانثربولوجيا اللغوية بخاصة . ولايرجع ذلك الى مجرد ماقد تنطوى عليه هذه الظاهرة (أقصد ظاهرة التغاير والتفاضل اللغوى) من جدة أو طرافة علمية فحسب ، وهو مايعتبره الكثيرون سببا كافيا فى ذاته للدراسة ، ولكن أيضا ، وربما بالدرجة الاولى من الاهمية ، إلى ماتلقيه مثل هذه النوعية من الدراسات على مشكلات التغير اللغوى بعامة من أضواء خليقة بأن تزيدمن فهمنا لاسباب ذلك التغير والعوامل التى تقوم وراء تلك التباينات التى نطرأ على اللغة ــ أية لغة ــ أثناء حياتها وابان تطورها ، وذلك الى الحد الذى لاتنقسم اللغة معه أو تتشعب الى لغات صغيرة Little languages أو لهجات Dialects فحسب ، ولكن الى فئات وانماط من الاصوات والتعابير والجمل والالفاظ أو الكلمات التى يصبح لكل منها تراكيبها وربما اصواتها ومعانيها ودلالاتها الخاصة ، التى تعكس الى أبعد الحدود ملامح التركيب الاجتماعى والثقافى للمجتمع عموما ، وماينطوى عليه هذا المجتمع أو ذاك من مظاهر التفاضل الاجتماعى والثقافى التى قد تصل الى حد وضوح ما أصبح يعرف بالثقافات الفرعية sub -cultures التى لاتختلف فقط باختلاف المناطق ، أو حتى باختلاف تلك العوامل التقليدية المرتبطة بالابعاد الجغرافية أو بعض الابعاد الاجتماعية ، ولكن ايضا باختلاف المناطق الثقافية ذاتها أو باختلاف العوامل والمبادىء الثقافية بتعبير أدق . وقد يصل الأمر ببعض هذه الثقافات الفرعية أن تتمركز حول ذاتها وحول مقوماتها ومبادئها اللغوية

والثقافية عموما وترتبط من ثم ببعض الطبقات أو حتى الفئات والشرائح الاجتماعية دون البعض الآخر ، وبالتالى تصير لهم بمثابة النمط اللغوى linguistic pattern الذى يكاد استخدامه والتعامل برموزه وبمفرداته يكون وقفا ، أو مقصورا على هذه الفئة أو الشريحة الاجتماعية دون غيرها . وكأنه (اعنى النمط اللغوى) قداضحى اشبه بالرمز او الشفرة code التى لايتم تناقل مضامينها ، او التعلق بها الا بين افراد الجماعة الثقافية المعينة ، ولأجل نقل (وتوصيل) معانى ودلالات بذاتها يستغلق فهمها على الآخرين لأن افراد الجماعة أنفسهم لايريدون لهؤلاء الآخرين أن يفهموها .

ومع التسليم بأن مثل هذه الانماط اللغوية الخاصة مسألة تتدخل فى تشكيلها العديدمن العوامل التى قد يجيىء فى مقدمتها عامل السن age وعامل الجنس sex وهذا يجعل – الى جانب عوامل اخرى بالطبع – من دراسة هذه الناحية فى المجتمعت الكلامية community speach المختلفة مسألة بالغة التعقيد ، فان مما يزيدمن تعقيد الامور هنا ، هو أن بعض هذه الانماط اللغوية قد ترتبط ببعض الثقافات الفرعية الجانحة delinquent فعندئذ تبدو هذه الانماط بما تحتوى عليه من تراكيب ومفردات ومصطلحات اشبه بالبروزات الناتئة عن السياق الثقافى العام cultural context ، بمالايجرح أو يؤذى فقط المشاعر أو الذوق العام ، ولكن الاهم من ذلك ، خطورتها على عملية التنشئة الاجتماعية ذاتها : طالما ان كل مجتمع أو حتى جماعة تميل الى ان تضع نوعا من التابو أو التحريم لبعض الكلمات او الالفاظ او حتى الاصوات وفق مبدأ أو آخر مما يتفق وبناء ات الجماعات والمجتمعات ووضعياتها الثقافية . خاصة وقد أصبح من المعروف تماما فى بحوث التربية الحديثة ان غالبية المجتمعات لاتختلف فيها لغة الرجال مثلا عن لغة النساء فحسب ، وهى اختلافات تستلفتالانظار وتستوقفها فى كثير من الاحيان ، ولكن بعض هذه المجتمعات يلقن هذه الاختلافات اللغوية أو الانماط اللغوية لاطفالها من الجنسين منذ الصغر حتى يتمثلوها ويشبوا عليها .

(٢)

في أهمية الدراسة وأهدافها :

وليس من شك في أن الشباب Youth سواء نظرنا اليه على انه مقولة عمرية أو كمزاج من هذه المقولة وبعض المقولات الاخرى سيكولوجية كانت أو فسيولوجية أو اجتماعية ، يمثل (الشباب) مرحلة من اخطر المراحل التى يمر بها الفرد وبخاصة اذا وضعناه فى داخل سياقات او مظاهر التغيرات الاجتماعية والثقافية التى تطرأ على مجتمعاتهم ، وبالتالى يظل اشبه مايكون بعلامة استفهام كبيرة تقوم امام الكثير مما يحويه مجتمع الكبار Adults من قيم واخلاقيات ومعايير تتحدد فى ضوئها مظاهر الفعل والسلوك التى يستعصى العديد منها على فهمه وادراكه فى كثير من الأحايين .

وبصرف النظر عما انتهت إليه بعض الدراسات التى اهتمت ببحث الجوانب المتداخلة لهذه الناحية ، فان المؤكد هو أن القلة القليلة جدا من هذه الدراسات هى التى استأثرت باهتمامها تلك العلاقات المتشعبة التى تعكس الانماط اللغوية المختلفة فى داخل مايمكن أن نطلق عليه ثقافة (أو حتى ثقافات) الشباب الفرعية youth sub - culture ،ذلك على الرغم من ان هذه الانماط تتحول فى آخر الامر الى ما يشبه العوالم الخاصة التى تكاد تكون قائمة بذاتها . ومن هنا خطورة عدم الاقدام على ارتياد هذه العوالم ومحاولة التعرف على مايعمل فى داخلها من تفاعلات وعلاقات وتراكيب ورموز لها ولاشك انعكاساتها على النظام التربوى والنظام الاسرى بخاصة ، وبالتالى بقية النظم التى تشكل النسق الاجتماعى الأوسع .

وبناء على ذلك فسوف تحاول الدراسة الراهنة إذن أن تصف الدور الذى تقوم به هذه الانماط اللغوية أو مايعرف عموما باللغة غير الاصطلاحية unconventional أو الانماط اللغوية العامية أو الدارجة التى تسود ثقافة الشباب وتميزها ، وذلك بهدف أساسى هو الرغبة فى التحقق من بعض

الفرضيات الرئيسية القائلة بأن مثل هذه الانماط اللغوية والكلمات العامية والدارجة slangs التى تتشكل فيها هذه الانماط ، مما يمكن الشباب من نقل القيم والمعانى والتصورات الخاصة به ، والتى قد تكون متوافقة مع مايوجد فى المجتمع الكبير من قيم ومعايير على ماسبقت الاشارة ، أو قد تكون منطوية على غير قليل من مظاهر عدم التوافق أو بالاصح عدم الموافقة على هذه القيم والمعايير • وقد يصل الأمر إلى حد أنها كثيرا ما تمثل نزوعا إلى خرقتها أو الاعتداء عليها •

ولكن بالاضافة الى هذه الفرضية المحورية ، فسوف تسعى الدراسة ايضا الى محاولة التأكدمما اذا كانت هذه الانماط اللغوية بما تشتمل عليه من كلمات وتعابير عامية مما يساعد على ابراز أوجه التغاير أو أوجه التفاضل الثقافى بين الفئات المختلفة من الشباب• علاوة على المقارنة بين استخدامات الشباب من الجنسين لهذه الانماط اللغوية الخاصة ، والكيفية التى يعبر بها كل جنس عن المواقف الاجتماعية والثقافية الواحدة ، وما اذا كانت ثمة فوارق فى استخدام هذه الانماط بالنظر الى المستويات العمرية المختلفة وكذلك المراحل التعليمية والانتماءات الطبقية ارتباطا ببعض الموضوعات الشخصية أو غير الشخصية•

وقد يكون بمقدورنا على هذا النحو ان نتعرف من ثمة على تلك المسائل أو القضايا الحيوية التى تنطوى عليها ثقافة الشباب الفرعية ، والتى تعكس بالتالى اهتماماته الخاصة بنوعيات معينة أو أخرى مما يؤرقه ويشغل تفكيره • مما يلقى الضوء على مواقفه الخاصة التى يتخذها الشباب من بعض مايوجد فى المجتمع من قضايا ومشكلات ، وكذا نظرته الى المستقبل وتصوراته بصدد هذا المستقبل •

(٢)

حول التأصيل النظرى للمشكلة :

وليس اللغويون وحدهم هم الذين يسلمون اليوم بأن كل ثقافة من الثقافات تتميز بخصائص معينة لاتتوافر فى ثقافة مجتمع آخر . كما ان كل لغة من اللغات تحتوى على الفاظ ومفردات وعبارات يكاد يكون فى حكم المستحيل ترجمتها الى غيرها من اللغات بالدلالة ذاتها ، لأنها تمثل خصوصية من خصوصيات ثقافة هذا المجتمع أو ذاك . فقد اصبح يشارك اللغويين هذا الموقف علماء الاجتماع اللغوى والانثربولوجيا اللغوية وحتى علماء النفس اللغوى وغيرهم من المهتمين ببحث الجوانب والابعاد المختلفة لظاهرة اللغة.

ومع ذلك فان الشيء اللافت للنظر هو ان العلماء فى دراستهم للعلاقة بين اللغة والثقافة ظلوا لفترة طويلة أسرى الوضعية الضيقة التى اكتفت بتوضيح العلاقة الخارجية بين مفردات اللغة ومحتوى الثقافة ، وحرصوا فى ذلك على أن يبينوا ان هذه المفردات تعكس اهتمامات المجتمع والجوانب أو المسائل والقضايا التى يركز اهتمامه عليها . فالشعوب التى تعيش على القنص والجمع مثلا توجد لديها قوائم تفصيلية بأسماء الحيوانات والنباتات والملامح الجغرافية والبيئية ، على حين نجد لدى الجماعات التى يمثل فيها النسق القرابى والعلاقات القرابية علاقة حيوية (الاستراليين مثلا) ، العديد من مصطلحات القرابة المعقدة. وكله مما يوضح فى آخر الأمر تلك العلاقات الوثيقة بين مفردات اللغة والكثير من جوانب الثقافة غير المادية.

وبالرغم من الاهمية البالغة لمثل هذه الدراسات والنتائج التى انتهت اليها ، فانها لاتعنى فى الواقع اكثر من انها قد اكتفت بدراسة العلاقة الواضحة بين اللغة والمحتوى الثقافى . وهذا معناه إنها قدوقفت عند حدالقول بأن للغة - أية لغة - أساس ثقافى ، وانه يمكن بالتالى تحديد مفردات اللغة بوضوح ودقة إذا ماعرفنا بقية مظاهر الثقافة .

بيد انه ينبغى ألا نفهم من قولنا هذا اننا نختلف مع هذه الدراسات

أو اننا نقلل من شأنها ومن أهميتها ، ولكن الشيء الذى نسعى الى توضيحه هنا هو انه مع تطور الدراسات اللغوية ، ووضوح الصلات بين مايقوم بين البناءات اللغوية والبناءات الاجتماعية والثقافية من صلات بدأت القضية تتخذ شكلا آخرا ، وبخاصة على ايدى علماء الاجتماع والانثربولوجيا البنائيين والتحليليين الذى كان لهم ولاشك فضل توجيه الانظار الى النواحى الجديدة فى هذه العلاقات. وهو ماعبروا عنه بأن اللغة هى شىء اكبر بكثير واكثر تعقيدا مما نجده فى القواميس وفى المعاجم وان دراستها تحتاج الى التعرف على الروابط اللغوية بين انماط اللغة المختلفة والانماط الحضارية والثقافية والاجتماعية بعامة. وكما قلنا من قبل فى أجزاء عديدة من الجانب النظرى فى هذه الدراسة فقد كانت هذه اللفته بداية لسلسلة طويلة من المحاولات المضنية التى سعت الى اثبات احدى الفرضيات الرئيسية القائلة بأن الشعوب التى تتكلم لغات مختلفة تعيش فى عوالم مختلفة . وان اللغة التى يتكلمون بها تؤثر بدرجة كبيرة فى مدركاتها الحسية وانماط تفكيرهم ، وانهابذلك تكون العامل الأساسى فى توجيه الحقيقة الاجتماعية أو الواقع الاجتماعى الذى يعيشون فيه.

واذا كان مالينوفسكى (١٨٤٤ــ ١٩٤٢) قداكداكثر من مرة على هذه الحقيقة ، وذهب الى انه لكى نصل إلىماوراء مظهر الاشخاص ، فلابد من التعرف بشكل كامل على لغاتهم وهو ماعبر عنه بقوله انه لايكفى مثلا ان نعرف بضعة كلمات من اللغة السواحيلية لكى نعلن اننا نعرف السواحيلية ، وانما لابد من توافر المعرفة التامة بالظروف الاجتماعية والثقافية المختلفة التى تستخدم فيها هذه الكلمات ، والكيفية التى تتغير بها معانيها بتغاير المواقف والأشخاص [(١)] ،

(١) هذه الناحية اشرنا اليها من قبل وحددنا فى ذلك مقال مالينوفسكى الذى نشره بعنوان مشكلة المعنى فى اللغات البدائية فى عام١٩٢٣ ، والذى نشر بعد ذلك ضمن كتاب أوجدن Ogden وريتشارد Richards باسم The Meaning of Meaning فى عام ١٩٣٠.

واذا كان مثل هذا الاتجاه قد وضح ايضا في تلك الدراسات الرائدة التي تمت على ايدي فيرث Firth الذى اهتم بالاثنوجرافيا اهتماما خاصا جعله يدرك مدى توقف معانى الكلمات على المواقف التى تلقى فيها ، فان الذى يعنينا هنا هو أن هذه الدراسات قد فتحت الطريق واسعا امام المزيد من البحث في اللغة ومعالجة اللغويات على انها نوع من فروع علم الثقافة العام، أو بمعنى أدق على انها فرع من فروع الانثربولوجيا الثقافية واصبح يطلق عليه الانثربولوجيا اللغوية، التى سعت بدورها الى استنباط طرق جديدة للتحليل اللغوى ·وكان من نتائجه على أى الاحوال ظهور ما يعرف بعلم اللغة التركيبى على أيدى بلومفيلد Bloom field الذى أكد بدوره على ضرورة ابراز الاختلافات بين البناءات التى تنتمى اليها اللغات المختلفة(١)

الشيء المهم الذى نود ابرازه في هذا الاتجاه هو اذن ذلك التركيز الاساسى على حقيقة ان اللغةليست مجرد مرآة تعكس حياة المجتمع والجماعات ومظاهر نشاطها فحسب ،ولكنها ايضا تتدخل في تشكيل ثقافة المجتمع والطريقة التى يفكر بها (٢).

ولقد تأثر بنيامين فورف Whorf بهذا الاتجاه الذى حمل لواءه أستاذه ادوارد سابير Sapir وظهر ايضا في كتابات عدد كبير من العلماء المحدثين والمعاصرين فعمل على تطويره من خلال النتائج التى اسفرت عنها دراساته وبحوثه التى اجراها على لغات الهنود الحمر ·

ولقد أوضح سابير في كتاباته ان البشر لايعيشون في العالم المادى وحده ولا في عالم الفعل او النشاط الاجتماعى بالمفهوم العادى،ولكنهم واقعون تحت رحمة اللغة المعينة التى اتخذوها سبيلا الى التفاهم في مجتمعهم ·ويترتب على ذلك أن يصبح اقرب الى الوهم أن نتصور أن فردا مايتكيف مع الواقع دون ان يستخدم اللغة

---

(١) Bloomfield, L., Language. N.Y. Holt Rinehart and Winston. 1933. pp. 10-12.

(٢) Trudgill, Peter., Op.Cit, P.27.

لان حقيقة الامر هى ان العالم الحقيقى مبنى الى حد كبير على العادات اللغوية لمجتمع معين ،وذلك الى الدرجة التى لاتوجد معها لغتان يمكن القول بانهما تتشابهان تشابها كبيرا ،حتى يمكن اعتبارهما تثملان نفس الواقع الاجتماعى،وكله يعنى ان العوالم التى تعيش فيها المجتمعات المختلفة عوالم مختلفة لاعجرد عالم واحد نسميه بأسماء مختلفة (١).

ولقد رأينافى مكان سابق من هذه الدراسة (٢) كيف ان بنيامين لى فورف قد أعطانا منظورا خاصا لهذا الاتجاه فيما يعرف عنده بالنظرية الفورفية أو الغرض الفورفى Whorf Hypothesis الذى ناقش فيه طبيعه المسائل التى تتضمنها العلاقات بين الكلمات والافكار عموما ،أمر ما اصطلح على وصف بالعلاقات المنطقية بين المفردات والافكار.

ولقد رأى فورف ان اللغة ليست وسيلة للتعبير عن الافكار (٣)،بل انها (اللغة) هى ذاتها التى تقوم بتشكيل هذه الافكار وتتحديدها بل وبتقسيم العالم والطبيعة كذلك مما يعنى فى آخر الامر اننا نعيش فى عالم من صنع هذه اللغة ومن صنع تصوراتها ومفهوماتها.

ومهما يكن من أمر ،فان هذا كله يكشف لنا فى النهاية عن المدى الذى تتدخل به الانماط اللغوية فى تحديد الكيفية التى ينظر بها الافراد الى العالم من حولهم ، والى أى مدى تسطيع هذه الانماط ان تؤثر فى المجتمع من خلال

---

(١) Sapir,E.,"The Status of Linguistics as a science" وهى عباره من مقالة كان قد نشرها فى "Language.vol.5.pp.207 214 خلال العام ١٩٢١

(٢) انظر الفصل العاشر فى الدراسة النظرية فصل بعنوان "اللغة والحضارة والفكر".

(٣) يمكن الرجوع فى ذلك الى النظرية الكلاسيكية فى اللغة والتى تعرضنا لها عند جيفونز الذى حصر وظائف اللغة فى انها اداة لتوصيل الافكار وللتعبير عنها.

تحكمها في وجهات نظر الناطقين بها [١].

(٤)

ما كاد هذا التحليل الكلاسيكي للعلاقات بين اللغة والثقافة تتردد اصداؤه، حتى اخذ كم متراكم من البحوث والدراسة النظرية والميدانية يعيد التأكيد على الدور الجوهري الذى تقوم به اللغه فى عمليه التنشئة الاجتماعية .ولقد نجحت تحليلات كلكهوهن Kluckhohn [٢] وكذلك تلك التحليلات التى ساقها

---

(١) الحقيقة ان بنيامين لي فورف قدم لنا العديد من الاسئلة التي توضح الكيفية التى تتدخل بها اللغة في تقسيم الواقع الاجتماعى بعدة طرق واساليب فهو يذهب الى انه هذا يظهر على وجه الخصوص حين نقارن نسقا معينا من الانساق الاجتماعية كي نرى الدور الذى تقسم به اللغة الطبيعية وكيف تنظر الجماعات التى تتكلم لغات مختلفة الى الشيء الواحد نظرات مختلفة وتتصور ايضا بطرق مختلفة ،وهذا يعني ان الالفاظ والكلمات اللغوية ليس عملها هو مجرد تحديد المدركات الحسيه والتفكير فحسب ،بل والعمل ايضا على توجية الادراك والتفكير في اتجاهات مألوفة مستعينة في ذلك بالانماط الثقافية الاخرى،وكما قلنا من قبل فان الاسكيمو على سبيل المثال الذين يميزون بين انواع عديدة من الثلج والذين يفتقرون الى كلمة واحدة عامة تشير الى الثلج في ذاتة يرى فورف انهم انما يستجيبون بذلك لمركب كلى من الانماط الثقافية يتطلب منهم ان يميزوا بين الثلج فى حالاته المختلفة فهم ليسوا في حاجة من ثم الى كلمة عامة او كلية.

(انظر في ذلك: Benjamin,Lee Whorf.,Language.thou-ght and Reality.Combridge,Technology Press.W.Y.Wiley.1956.

(٢) C.Kuckhohn.," Cultare and Behoviour" in G. Lindzey,ed.,Handbook of social psychology (Reading,Mass: Addison Wesley.1954),II.pp. 921-976.

برنشتاين Bernstein (١) ومثلها كتابات براون Brown (٢) وهايمــــــز Hymes (٣) في توضيح بلورة ما ذهب إليه بوسارد Bossard عندما أكد علـــى حقيقة ان اكتساب اللغة Language acquisition امر ضروري كي يتـم توافر الشرطين الرئيسيين اللازمين للتفاعل الاجتماعي والخلفية او التراث الثقافـــي اللازمين لنمو شخصية الطفــــل (٤).

ومع ذلك فقد كان واضحا تماما ان العناية التي بذلها الباحثون لتوضيح دور اللغة الاصطلاحية ، او العادية والمألوفة conventional في التنشئة الاجتماعية قد فاقت بكثير ذلك الاهتمام المحدود الذي بذل لالقاء الضوء على اللغات غيـــر الاصطلاحية (اللامعيارية) في الثقافات الفرعية ،واقصد بها الكلمات او المفـردات العامية (الدارجة) التي تميز الثقافات الفرعيه حيث لم يبدأ الاهتمام بدراسة هـــذه النواحي وبصفة خاصة من زاويتها الاجتماعية الا في وقت حديث نسبيا .

والواقع اننا نجد بعض العلماء الذين اهتموا بهذه الناحية من امثال شـــوارتز

---

(١) B.Bernstein."social structure,Language and learning,in J.Dececco.ed.the psychology of language.,thought and Instruction(N.Y.Holt, Rinehart and winston.1967.p.p.89.103.

(٢) R.Brown,social Psychology.(N.Y.the free press 1965
وأيضا كتاب براون المعنون: Words and things.N.Y.the free press-1958.

(٣) D.Hymes.,the functions of speech" in J.De Cecco,ed,op .cit.pp.78-84.

(٤) J.Bossard.the sociology of child Developme-nt.N.Y.Harper.1948.pp 177-178.

Schwartz وميرتن Merten [١] يتصورون "ثقافة الشباب على انهـا مكونة من تلك المقاييس والمعايير والقيم التى عادة ما يهتم الشباب بالتمسك بهـا ومناقشتها خاصة من خلال لغتهم الخاصة التى يفهمها بوضوح اعضاء الطبقة العمرية التى ينتمون اليها٠ كما ذهب لويس ممفورد ايضا الى ان الطفل عادة ما يكون عضوا فى جماعتين لغويتين [٢] تستخدم احادهما لغة الكبار والبالغين على حين تستخدم الجماعة اللغوية الثانية لغة الاقران الذين يماثلونه فى العمر٠كما أكـد أيضا على ان اللغة العامية التى يتكلم بها المراهقون والصغار تساعد كثيرا فى تحديد طبقة الشباب أو جماعاته باعتباره مقولة ثقافية متميزة ،ولنقل القيم والمعايير، للافصاح عن صور الموافقة او عدم الرضا والعدوان وما الى ذلك من الاتجاهات التى قد يشعرها الشباب حيال عملية التنشئة الاجتماعية بوجه عام٠

والحقيقة انه تظهر لنا هنا احدى النتائج المهمة التى تترتب على هذه النظرة ذلك أنه اذا كانت لاحدى اللغات مثل هذا الدور الحيوى فى النمو الاجتماعى،وفى التفاضل او التغاير الثقافى بين جماعات أوفئات وشرائح الشباب المختلفة ،فـان معايير أو مقاييس الالفة والاعتياد بهذه اللغة يصبح لها اهميتها من ثم فى تحديـد اوجه التفاضل والتغاير الثقافى واللغوى التى تعكسها الشرائح والفئات العمرية المختلفة اثناء قيامها بأدوارها الثقافية [٣]، وهى النتيجة التى انتهت اليها على أى

(١) G,Schwartz,and D.Merten.,"The language of Adolescence" Anthropological Approach to Youth culture"American sociological Review. Lxx.11.1967.

(٢) M.Lewis.,Language,thought and Personality in infancy and childhood.N.Y.Basic Book.1963.

(٣) P.Lerman," Argot,Symbolic Deviance and Sub-cultural Delinquency.American sociological Review. xxx 11.1967.pp209-224.

الاحوال بحوث ليرمان Lerman الامريقية التى أجراها على الشباب من الجنسين والتى استخدم فيها اختبارات الكلمات العامية لقياس الاختلافات بين الافراد وبين الجماعات فى معرفتهم لبعض الالفاظ والمصطلحات المحددة.

ومع ذلك فان النظرة الغامضة لمثل هذا المنهج الذى استخدمه ليرمان والذى افترض مسبقا نوعا من الالفه والاعتياد ببعض الكلمات أو التعابير العامية تكشف عن وجود بعض القصور الذى لايسمح بتطبيقه بطريقة سليمة. ويتضح هذا القصور فى ناحيتين اثنتين على الاقل هما :

اولا : ان عدد المصطلحات وبالتالى التغاير والاختلاف فى الموضوعات التى تتصل بهذه المصطلحات او الكلمات العامية هو عدد محدود بالضرورة وعلى ذلك تظهر الحاجة الى اجراء بعض الاختبارات المنفصلة او الاضافية لاظهار درجة الاعتياد على الكلمات والمصطلحات المتعلقة بموضوع معين او ظاهرة معينة.

ثانيا : لما كان من المعروف تماما ان الكلمات الدارجة الجديدة تدخل باستمرار على ثقافات الشباب الفرعية بينما نتردى ايضا وتتلاشى الكثير من الكلمات المستخدمة اضافة الى ان ما قد يكون شائعا فى بعض الفئات أو الاوساط قد لايكون كذلك فى البعض الآخر ،فتظهر من هنا الحاجة الى بناء اختبارات لفظية متعددة تتفق والجماعات المختلفة مما يزيد من صعوبات المقارنة والتحليل .

والواقع ان هذه الصعوبة الأخيرة بالذات مازالت تمثل أهم الصعوبات التى تعترض التوسع فى اجراء مزيد من البحوث العلمية عن اللغات والانماط اللغوية الدارجة ،وان كانت دافعا فى الوقت نفسه لان يطور البعض من مقاييس الكلمات بشكل أو بآخر.

(٥)

المنهج والطريقة :

ربما من هنا تعين على الباحث ان يطور بعض الشيء فى المقياس المستخدم فى هذه الدراسة وفى الكيفية التى تم بها اختبار الموضوعات التى تتصل اتصالا وثيقا

بالكلمات الدارجة٠فقد كان احد الاهداف التى وضعها الباحث نصب عينيه ان يتمتع المنهج المستخدم بنوع من المرونة والامكانات التى تتيح ربط الشعور بالالفة والتعود على الكثير من الكلمات بالموضوعات التى تستثير هذه الكلمات٠

ولتحقيق هذه الغاية فقد لجأ الباحث الى استخدام بعض أساليب الارتباط وتداعى الكلمات والمعانى التى تم تعديلها ،وذلك للوصول الى الكلمات العامية والتعابير الدارجة من داخل جماعات الشباب ذاتها ، لاجل تحديد عدد التعابير المرتبطة أو التى تشارك فى موضوع بذاته يستخدم كمشير٠وقد افترضنا فى ذلك أن عدد الكلمات الدارجة التى تتم الاستجابة بها والتى تنتج فى هذا السياق كاف ليقيس درجة الالفة والاعتياد على هذه المصطلحات والتعابير المرتبطة بكل موضوع٠

وبالنظر الى ان القضية برمتها ترتبط بالشباب فقد دفع ذلك الى ابراز العلاقات بين بعض المتغيرات الاساسية فى عملية التنشئة الاجتماعية كالسن والجنس٠٠الخ ومقاييس الاعتياد والألفة علىّ الكلمات والمفردات العامية٠

وبناء على كل هذا فقد تحددت منهجية هذه الدراسة على الاقل فى خطوطها الرئيسية والعامة على النحو التالى:

اولا : نزولا على الرغبة فى اجراء بعض المقارنات بين الفئات العمرية المختلفة للشباب من الجنسين فقد دفع ذلك الىإختيار طلبه وطالبات المستوى الرابع (الفرقة الرابعة) فى بعض الكليات النظرية بجامعة عين شمس وبكلية الدراسات الانسانية للبنات بجامعة الازهر من ناحية ،ومن الناحية الثانية طلبة وطالبات المستوى الاول (الفرقة الاولى) فى هذه الكليات نفسها ٠بمعنى اننا حصرنا عينة الدراسة فى هذين المستويين التعليميين دون غيرهما٠اما السبب الرئيسى لذلك فهو اعتقادنا بأن طلبة وطالبات الليسانس(المستوى الرابع) بالاضافة الى انهم ينتمون الى فئة عمرية اكبر ولاشك ،فانهم ايضا يمثلون نوعا من المستوى او النوعية الثقافية التى تختلف من ثقافة المستوى الاول الذى مازال ــ الى حد بعيد ــ متعلقا بتصورات وأفكار وبقيم ومعايير المرحلة

الثانوية وبما يدور بين تلا مذتها من انماط لغوية وتعابير وكلمات ٠

ثانيا : ولان الدراسة قد سعت الى المقارنة بين الذكور والاناث فى المستويات العمرية المختلفة والمراحل او المستويات التعليمية المختلفة ايضا وذلك وفقا لعدد الارتباطات التى كشفت عنها الاستجابة لعدد من الموضوعات التى قدمناها كمثيرات ٠لذلك فقد حددنا هذه المثيرات فى الاتى:

١- النقود
٢- السجائر والتدخين
٣- الزواج
٤- الموضه
٥- المرأة
٦- الرجل
٧- الاب
٨- الام
٩- الكلية والنجاح

ثالثا : لأجل أن يكون الهدف من الدراسة واجراءاتها المنهجية واضحا فقد اجريت بعض اللقاءات مع افراد العينة حيث تمت بعض المناقشات المفتوحة وقسمت العينة الى مجموعات متجانسة بقدر الامكان من حيث المستوى التعليمي والعمرى والعدد وبذلك امكن التعريف بأهداف البحث واجراءاته ٠وحيث تعرف كل فرد على طبيعة ما هو مطلوب منه٠

ولتسهيل هذه الناحية فقد وزعت على افراد العينة نماذج من الاستبيان يتضمن المثيرات او الموضوعات التسعة التى سبقت الاشارة اليها ٠وكان ذلك فى نموذج مكون من عشر صفحات مطبوع فى أعلى كل منها الموضوع الذى اخير كمثير وموضح فى الصفحه أيضا المطلوب من المستجيب ان يفعله٠

وعلى العموم فقد بلغ حجم العينة المختارة ٢١٠ طالبا وطالبة من بينهم

٩٠ طالبا و١٢٠ طالبة ،وقد انقسم الطلاب الى ٦٤ طالبا بالفرقة الاولى و٢٦ طالبا بالفرقة الرابعة ،على حين انقسمت الطالبات(١٢٠طالبة) الى ٦٢ طالبة بالفرقة الاولى و٥٨ طالبة بالفرقة الرابعة (الجدول رقم ١ والجدول رقم ٢)٠

ومع ان هذه الدراسة من الواضح انها ذات طبيعة استكشافية Exploratory او استطلاعية ،الا انه كان من المتوقع على أى الاحوال ان يختلف عدد الاستجابات بالكلمات العامية بشكل منتظم فى الأغلب وفقا للمستويات العمرية والثقافية المختلفة وكذلك وفقا للجنس حيث قد تكون هناك بعض القيودات سواء كانت شخصية أو اجتماعية التى قد تحول دون كمال الاستجابة وحريتها خاصة فى فئات الطالبات وبالنسبة الى بعض الموضوعات بذاتها التى قد يرى انها تتصف بالحساسية :وبالرغم من أن هذا من شأنه أن يؤثر فى مضوعية النتائج التى يمكن التوصل اليها فقد كان يستدل على صدق الاستجابة من طبيعة الاستجابات الاخرى ونوعيتها ما إذا كانت مما تتحرج الفتاة (أوالفتى) من الادلاء به٠

وربما كان من تحصيل الحاصل القول أن المقارنات التى هدفت الدراسة الى عقدها قد تمت بين الاستجابات العامية التى قال بها افراد كل مستوى من المستويات الدراسية،وأيضا وفقا للمقولة الجنسية التى ينتمى اليها أصحاب هذه الاستجابات٠

وعلى العموم فقد كانت هناك عدة اعتبارات أملت الكيفية التى طبقت بها اداة البحث ودفعت بالباحث الى أن يجمع مادته بشكل جمعى من الجماعات الصغيرة وليس من الافراد وهذه الاعتبارات هى :

اولا : ان البحث يهتم أساسا بابراز متغيرات الثقافة الفرعيةومن هنا فليست هناك حاجة الى ابراز الاختلافات الفردية أى التى بين الافراد بعضهم وبعض٠

ثانيا : ان الجماعة او المجموعة الصغيرة كانت تمثل ضرورة منهجية لاحداث الجو الطبيعى او الموقف الطبيعى الذى يمكن ان يتم من خلاله نطق الكلمات الدارجة ،لما يحققة التفاعل الموجود - فى هذه الحالة - من ازالة للحواجز

ثالثا : انه على الرغم من أن الاستجابة قد تم التعبير عنها بالكتابة ،فقد تمت هذه

العملية (الكتابة) بعدما يكون الافراد المكونين للجماعة قد (نطقوا) اللفظ او الكلمة التى يجرى تدوينها ٠

واخيرا فان تشكيل وتكوين مثل هذه الجماعات كان يمثل الظروف الطبيعية التى يتم فيها استخدام الكلام والتعبير ،على اعتبار ان اللغة هى اللغة المنطوقة بالذات وليس المقصود بها لغة الكتابة ـــ او أية لغة آخرى ـــ على أى الاحوال ٠

الفصل السادس عشر

النمط اللغوى فى النسق الاجتماعى

(١)

المؤكد انه سوف يكون من الصعب تماما الوصول الى الاهداف التى سعت الدراسة الى تحقيقها مالم تتضح لنا بادئ ذى بدء الملامح الرئيسية والخصائص الذاتية لافراد عينة الدراسة على الاقل ارتباطا بالمحاور او المتغيرات الاساسية التى حددناها وهى السن والجنس والمستوى التعليمى.

والملاحظة بوجه عام ان قوام العينة قد بلغ ٢١٠ طالبا وطالبة انقسموا وفقا للوضعية .

الجدول رقم(١)

خصائص عينة الدراسة وفقا لمتضمناتها الجنسية والتعليمية

البيانات الاحصائية / المتغيرات	عدد العينة	نوع العينة			
		طلبه (الذكور)		طالبات(الاناث	
		عدد	٪	عدد	٪
الجنس	٢١٠	٩٠	٤٢٫٨٦	١٢٠	٥٧٫١٤
المستوى التعليمى					
(المستوى الاول)		٦٤	٧١٫١١	٦٢	٥١٫٦٧
(المستوى الرابع)	(١٢٠/٩٠)	٢٦	٢٨٫٨٩	٥٨	٤٨٫٣٣
	٢١٠	٩٠	—	١٢٠	—

الجنسية إلى ٩٠ طالبا (٤٢٫٨٦٪) و١٢٠ طالبة (٥٧٫١٤٪)

اما من حيث المستوى التعليمى فكما يكشف الجدول السابق نفسه(رقم١) نجد ان ثمه ٦٤ طالبا (٧١٫١١٪) بالستوى او الفرقة الاولى بينما بلغ طلاب الفرقة الرابعة ٢٦ طالبا مثلوا ٢٨٫٨٩٪ كذلك الحال فيما يتعلق بالمستوى التعليمى للطالبات حيث كانت (٥١٫٦٧٪) بالمستوى الاول ، ٤٨٫٣٣٪ بالمستوى الرابع

ولعل الارقام والنسب السابقة تكشف عن ميل افراد العينة الى التركيز بشكل اكبر في المستوى التعليمي الاول (الفرقة الاولى) حيث مثل ذلك (١١ر٧١٪ ذكور او طلبة مقابل ٦٧ر٥١٪ من الطالبات) مما يعني بوجه عام ميل غالبية العينة وبخاصة عينة الطلبة الى السن الاصغر (باعتبارهم في الفرقة الاولى) وبالتالي فالمنتظر ان يكون ارتباطهم اكبر بثقافة المرحلة الثانويةوقيمها ومعاييرها • على حين ينتظر ايضا ابتعاد طلبة وطالبات المستوى الرابع عن هذه الثقافة ووضوح بعض الاختلافات التى تعكسها ولاشك طبيعة المستوى الثقافى نفسه من ناحية وفارق السن بين المستويين من ناحية ثانية •وهو ما نرجو ان يتضح على أى الاحوال من خلال الاستجابات للمثيرات المحددة التى أشرنا اليها من قبل •

ويعطينا الجدول رقم(٢) نوعية هذه الاستجابات التى رددها الطلبة والطالبات بالنسبة الى المثير الاول الذى تضمنته اداة الاختبار وهو لفظ أو كلمة "النقود" ومدى تردد أو تكرار هذه الاستجابات بالنسبة الى الكلمات العامية التى عبر بها افراد كل من الفئتين عن هذا المؤشر•

ولعل اولى الملاحظات التى تستلفت النظر فى هذا الجدول ان عدد استجابات الطلبة كان بوجة عام اكبر من عدد استجابات الطالبات مما يعنى أن الطلاب قد ترددت بينهم المصطلحات والكلمات الدارجة بالنسبة الى "النقود" أكثر مما نجده بين الطالبات حيث بلغ تكرار الاستجابات لفئة الطلاب ١٧٩ استجابة بينما بلغت استجابات الطالبات ١٥٧ استجابة •

تردد استجابات الطلبة والطالبات للمثير الاول (النقود) *

نوع الاستجابة / المثير / النقود	الطلبة: الفرقة الاولى عدد	الطلبة: الفرقة الاولى %	الطلبة: الفرقة الرابعة عدد	الطلبة: الفرقة الرابعة %	الطلبة: مجموع الاستجابات عدد	الطلبة: مجموع الاستجابات %	الطالبات: الفرقة الاولى عدد	الطالبات: الفرقة الاولى %	الطالبات: الفرقة الرابعه عدد	الطالبات: الفرقة الرابعه %	الطالبات: مجموع الاستجابات عدد	الطالبات: مجموع الاستجابات %
١- براداس	١٣	٢٠ر٣١	١٩	١٦ر٥٢	٣٢	١٧ر٨٧	—		—	—		
٢- دفيان	٢٢	٣٤ر٣٨	١١	٩ر٥٧	٣٣	١٨ر٤٣	٤٥		١٨		٦٣	٤٠ر١٢
٣- صلدى	٢	٣ر١٢	٤	٣ر٣٨	٦	٣ر٣٥	—		١		١	ر٦٣
٤- باكو	٤	٦ر٢٥	١١	٩ر٥٧	١٥	٨ر٣٨						
٥- سمدكن	١٢	١٨ر٧٦	٣٤	٢٩ر٥٧	٤٦	٢٥ر٦٩	١٩		٨		٢٧	١٧ر١٩
٦- بروكن	٢	٣ر١٢	١٩	١٦ر٥٢	٢١	١١ر٧٣						
٧- الحلوين	—	—	—	—			٢		١٤		١٦	١٠ر١٩
٨- ارانب	٩	١٤ر٠٦	١٧	١٤ر٧٨	٢٦	١٤ر٥٢	٥		٩		١٤	٨ر٩١
٩- العصافير	—	—	—	—	—	—	٨		٢٥		٣٣	٢١ر٠١
١٠- سلاوى	—	—	—	—	—	—	—		٣		٣	١ر٩١
اجمالى الاستجابات	٦٤		١١٥		١٧٩	١٧	٧٩		٧٨		١٥٧	

* الاستجابات هنا من النوع متعدد الاجابة Multi-answers

اما الملاحظة الثانية فهي وجود عدد من الكلمات التي قررها الطلاب وربما بشكل ملفت للنظر والتي لم ترد على السنة الطالبات اطلاقا ٠فقد قرر (٨٧ر١٧٪) من الطلاب كلمة "برادس" دون ان تذكرها أي من الطالبات ٠والملاحظة ذاتها بالنسبة الى"باكو"حيث رددها الطلاب بنسبة (٣٨ر٨٪) ولم يرد اللفظ على السنة الطالبات كذلك٠

كذلك فقد عبر الطلاب عن الافلاس بكلمة"بروكن Broken" (٧٣ر١١٪) وهي كلمة لم تذكرها الطالبات ايضا٠

ولكن من الناحية الثانية اذا كان الطلاب قد ذكروا ٣ كلمات أو مصطلحات لم يرد ذكرها على ألسنة الطالبات(٩٨ر٣٧٪) ،فان هناك بعض الالفاظ والمصطلحات التي رددتها الطالبات دون أن يذكرها الطلاب٠مثال ذلك مصطلح"الحلوين "الذي تردد على ألسنة الطالبات بنسبة (١٩ر١٠٪) ،ومصطلح "العصافير" (٠١ر٢١٪) وكلمة " صلاوى " حيث ترددت بين الطالبات بنسبة (٩١ر١٪) مما يعني ان هناك ألفاظا يمكن القول بأنها أكثر انتشارا وشيوعا بين الطالبات منه بين الطلاب (١١ر٣٣٪)٠

اما الملاحظة الثالثة وهي في الحقيقة استنتاج من الملاحظتين السابقتين فهي اشتراك افراد الفئتين طلابا وطالبات في ٤ مصطلحات هي المصطلحات الباقية من مجموع المصطلحات التي ترددت فيها استجابات الطلاب والطالبات ٠وان يكن هذه المشاركة بدرجات متفاوته عكست في الواقع بعض الدلالات التي يمكن الوقوف عليها ٠فمصطلح (دفيان) على سبيل المثال وقد تردد بنسبة(٤٣ر١٨٪) بين الطلاب تكرر عنه الطالبات بسنبه ١٢ر٤٠٪ مما يجعلنا نتساءل عما اذا كان لهذا المصطلح دلالة معنوية محددة تتعلق بما قد تستشعره المرأة من (دفء) وربما لأن المرأة تعطى الكلمة تقديرا اكبر لما تحققه لها النقود من شعور بالامان وهو ينطوى ولاشك على احساس غامربالدفء٠

وربما كان اللفظ الثاني الذى شاركت المجموعتان في ترديده من حيث عدد

الاستجابات هو لفظ "مدكن"فقدردده الطلاب بنسبة (٢٥ر٦٩٪) بينما رددته الطالبات بنسبة ١٩ر١٧٪ وقد تلى ذلك من حيث عدد الاستجابات ايضا لفظ "ارانب" (١٤ر٤٢٪ للطلاب مقابل ٨ر٩١ ٪ للطالبات) ،ثم اخيرا مصطلح أو لفظ "صلدى" حيث بلغت استجابة الطلاب ٣ر٣٥٪ مقابل ٦٣ر-٪ للطالبات .

وعلى العموم فان مايبدو هو ان هذه الالفاظ والتعابير انما تعكس نوعا من الثقافة الخاصة بكل من أفراد الفئتين ،فالملاحظ أن ألفاظ وتعابير الطلاب أكثر خشونة من تعابير والفاظ الطالبات(الحلوين ،العصافير، والصلاوى)فكلها الفاظ تعكس غير قليل من ملامح الرقة ليس فى اللفظ فحسب وانما فى المعنى والدلالة كذلك ولايختلف عن هذه الالفاظ لفظ (دفيان) نفسه.

ومهما يكن من أمر فمن الصعب إيضاح الفواصل الدقيقة بين الثقافات الفرعية لهذه الجماعات او حتى ملامح التلاقى أو التشابة إلا بعد ما نستكشف الامور أبعد من ذلك.

(٢)

ويعطينا الجدول رقم (٣) منظورا لاستجابات فئات المبحوثين بصدد المثير الثانى وهو "السجائر والتدخين"، وبالنسبة إلىهذا المثير أيضا كما كان الحال بالنسبة الى المثير الاول (النقود) فان الملاحظة اللافتة هى زيادة تكرارات استجابات الطلاب بالمقارنة باستجابات الطالبات وهى زيادة يمكن القول بأنها مطردة أو بالاصح متسقة لا من حيث المجموع الكلى للتكرارات فحسب ،ولكن ايضا من حيث استجابات طلاب المستويات التعليمية ذاتها فالملاحظ ان التكرارات بالنسبة الى طلاب الفرقه الاولى قد بلغت ٥٠ استجابة .

الجدول رقم (٣)

تردد استجابات الطلاب والطالبات للمثير الثاني (السجائر والتدخين)

المثير نوع الاستجابة السجائر والتدخين	الطلبة						الطالبات					
	الفرقة الاولى		الفرقة الرابعة		مجموع الاستجابات		الفرقة الاولى		الفرقة الرابعة		مجموع الاستجابات	
	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪
١ــ المزاج	١٩	٣٨	٢٧	٣٢٫٢٣	٤٦	٣٤٫٥٩	٧	٣١٫٨١	١١	١٦٫١٨	١٨	٢٠
٢ــ عفر	٥	١٠	١٣	١٥٫٦٧	١٨	١٣٫٥٤	—		—		—	
٣ــ الكيف	—	—	٦	٧٫٢٢	٦	٤٫٥١	٩	٤٠٫٩	٢٥	٣٦٫٧٧	٣٤	٣٧٫٧٨
٤ــ رش	١١	٢٢	١٨	٢١٫٦٩	٢٩	٢١٫٨	—	—	—	—	—	—
٥ــ اسبرينة	—	—	—	—	—	—	٤	١٨٫١٨	١٦	٢٣٫٥٢	٢٠	٢٢٫٢٢
٦ــ زمارة	٤	٨	١	١٫٢	٥	٣٫٧٥	٠	٠	٩	١٣٫٢٣	٩	١٠٫٠
٧ــ مصاصة	٤	٨	٦	٧٫٢٢	١٠	٧٫٥٢	٢	٩٫٠٩	٧	١٠٫٣٩	٩	١٠٫٠
٨ــ ولع	٧	١٤	١٢	١٤٫٤٥	١٩	١٤٫٢٩	—		—		—	—
الاجمالى	٥٠	١٠٠	٨٣		١٣٣		٢٢		٦٨		٩٠	

مقابل ٢٢ استجابة لطالبات الفرقة الاولى. والامر نفسه بالنسبة الى طلاب الفرقة الرابعة حيث بلغت تكرارات استجابات الطلاب ٨٣ استجابة مقابـــل ٦٨ استجابة للطالبات وهو مايعنى بوجه عام ان الطلبة (الذكور) يعرفون من التعابير والمفردات والالفاظ فيما يتعلق بهذا المثير أكثر مما يعرف الطالبات(الاناث)ويــدور بينهن .

ولعل اللافت للنظر فى هذه الاستجابات ان ثمة مجموعة من الكلمات لم يرد ذكرها على السنة الطالبات وذلك مثل كلمة "عفر" والتى ذكرها الطلاب بنسبة ٥٤ر١٣٪ وكلمة "رش" التى ترددت على ألسنة الطلاب أيضا بنسبة ٨ر٢١٪ وكلمة "ولـــع" حيث ذكرها الطلاب(٢٩ر١٤٪) ولم تذكرها الطالبات أبدا.

ومن الناحية الثانية هناك كلمة واحدة ترددت على ألسنة الطالبات دون ان يذكرها أحد من الطلاب ،فقد ذكرت نسبة ٢٢ر٢٢٪ من الطالبات لفظ"اسبرينة"وهـــى كلمة لم يرد ذكرها على لسان أى من الطلاب.

ومع ذلك هناك ملاحظة تستاهـل التوقف أمامها وهى الخاصة بتكرار كلمة"الكيف" من ناحية وكلمة "زمارة" من ناحية أخرى ،وكلمة "مصاصة" كذلك فقد بلغـــت التكرارات لهذه الكلمات (٧٨ر٣٧٪، ١٠٪، ١٠٪ لكل منها على الترتيب وذلك فـى مقابل ٥١ر٤٪، ٧٥ر٣٪، ٥٢ر٧٪ لجماعات الطلاب على الترتيب.

ولعل الاستجابة الاولى بالذات من بين هذه الاستجبات الثلاث"الكيف"هـــى التى يلزم العثور على تفسير مقنع لها .فاللفظ له من غير شك دلالته الحسيــــة والفسيولوجية .وبالرغم من أن كلمة التكرارات بين الطلاب بالنسبه الى هذا اللفظ لاتعنى عدم وجود هذه الدلالة(٥١ر٤٪) إلا انه عندما تستقر الفتاة أو"المرأة"عموما مثل هذا الاحساس بالسيجارة والتدخين ،فلا بد من مراجعة الكثير من أنماطنـــا التربوية من ناحية والوقوف أمام غير قليل من مظاهر الحرية التى تحيط بالفتـــاة من ناحية ثانية،وهى حرية من الواضح ان ثمه اساءة فهم لمضامينها مما يدفع الـــى اساءة استخدامها .ولعل فى ارتباط المثير بهذه الكلمة بالذات ما ينبىء بذلك كله حتى

وبصرف النظر عن كون التدخين في ذاته رذيلة ممقوته وعادة سيئة خاصة اذا مـــا كانت بين النساء٠

ثم شيء آخر مالذي تعنيه كلمة" الكيف "حقيقة؟ هل تقصد الطالبات بذلـك نوعا من الاعتماد الفسيولوجي والسيكولجي الذي اصبحن لاقبل لهن بالاستغناء عنـه او التخلص منه خاصة وان نسبه كبيرة قد ربطت بين هذه الكلمة وبين كلمـــة "اسبرينة" (٢٢ر٢٢٪) ٠

واذا كان الامر هنا يتعلق بمثير معين هو السجائر والتدخين وهما في رأى الكثيرين بداية الطريق الى أنواع أخرى من الكيوف أو المكيفات ،فان هذا في ذاتـه كفيل بأن يلقى في وجوهنا بعلامة استفهام ضخمة تتطلب ـ بدورها ـ العثور علـى اجابة شافية ٠

اما فيما يتعلق باستجابة الطالبات للمثير بكلمة"زمارة" وكلمة "مصاصة"فانـه على الرغم من أن الفارق على الاقل فيما يتعلق بالاستجابة الاولى بالنسبة الـــى الطلاب يبدو واضحا (١٠٪ مقابل ٧٥ر٣٪) الا ان اللفظين يثيران التساؤل عما اذا كانت لهما أية دلالة جنسية ،ذلك على الرغم من أن الطلاب قد كرروا بدورهم هذين اللفظين ٠وان كان من الملاحظ ان عدد التكرارات لكل من هاتين الكلمتين بيـن الطلاب انفسهم قد تناقص معزيادة السن (٨٪ مقابل ٢ر١٪ للطلاب في الفرقـــة الاولى والرابعة على الترتيب بالنسبة الى كلمة "زمارة") و٨٪ لطلاب الفرقة الاولى مقابل ٢٢ر٧٪ لطلاب الفرقة الرابعة لكلمة مصاصة على الترتيب٠

(٤)

واذا كان الطلاب قد استجابوا لمثير" السجائر والتدخين" بعدد اكبر مـــن الاستجابات التى قالتها الطالبات فان ا لجدول رقم (٤) يوضح لنا ان الطالبات قد حددن عددا اكبر من المصطلحات والكلمات العامية فيما يتعلق بموضوع "الزواج" بالمقارنة بما ذكره الطلاب(٢٥٢ استجابة مقابل ١٢١ استجابة) وبذا يكـــون

موضوع الزواج" أول الموضوعات التى استأثرت بشكل ملحوظ باهتمام الطالبات ، ذلك اذا راعينا الفارق الكبير فى عدد الاستجابات وهو يزيد على ٣٥٪ من مجموع استجابات الجنسين مما يعنى ان الزواج قضية تشغل بال الطالبة بصرف النظر عن كونها مازالت تتلقى العلم أو لم تنته بعد من تعليمها ٠

وحتى نستكمل أبعاد الصورة فلا بد من الوقوف أمام بعض الامور المتعلقة بالفئات العمرية والتعليمية كما يعكسها الجدول المشار اليه فالملاحظ انه على حين ذكر الطلاب كلمة" يتأهل "

الجدول رقم (٤)

تردد استجابات الطلاب والطالبات للمثير الثالث (الزواج)

المثير نوع الاستجابة الزواج	الطلبة						الطالبات					
	الفرقة الاولى		الفرقة الرابعة		مجموع الاستجابات		الفرقة الاولى		الفرقة الرابعة		مجموع الاستجابات	
	عدد	%	عدد	%	عدد	%	عدد	%	عدد	%	عدد	%
١ـ يتأهل	١٧		٤١		٥٨	٤٧ر٩٣	٥		١٤		١٩	٧ر٥٤
٢ـ الكلابشات	٧		١٤		٢١	١٧ر٣٦	١٧		٢٩		٤٦	١٨ر٢٦
٣ـ يخش دنيا	٩		٣٣		٤٢	٣٤ر٧١	٩		١٧		٢٦	١٠ر٣١
٤ـ العسل المر	—		—		—		١١		٤٢		٥٣	٢١ر٠٣
٥ـ بالحبل	—		—		—		٦		٥١		٥٧	٢٢ر٦٢
٦ـ لو عندك هاتى	—		—		—	—	١٩		٣٢		٥١	٢٠ر٢٤
	٣٣		٨٨		١٢١		٦٧		١٨٥		٢٥٢	١٠٠٠٠

وذلك بنسبة ٩٣ر٤٧٪ فلم تذكر الطالبات هذه الكلمة الا بنسبة ٥٣ر٧٪ مما يعنى أن هذا التعبير على الرغم من انتشارة أكثر شيوعا على ألسنة الذكور من الاناث٠

وربما كان متساوقا مع هذا الاتجاه الذى لايخلو من لمحة ساخرة استجابات الطلاب للمثير بلفظ "يخش دنيا" وذلك بنسبة فاقت ما جاء على ألسنة الطالبات (٧١ر٣٤٪ مقابل ٣١ر١٠٪) وكأنما "الزواج" هو دنيا الرجل وليس دنيا المرأة ٠ فإذا ربطنا ذلك بضخامة استجابات الطلاب بالمصطلح "يتأهل" (٩٣ر٤٧٪) استطعنا ان نستشعر نوعا من احساس الطلاب بالمسئولية التى يجسدها الزواج فمع انه يعنى الدنيا والمتعة الا أنه فى حاجة أيضا الى فريد من الاستعدادات و"التأهيل" اذ التأهل على حد تعبيرهم ـ أى فى حاجة الى الوفاء بكثير من المطالب التى لايستطيع الشخص أن "يدخل الدنيا" بدونها٠

والواقع انه يمكن الوقوف على بعض الدلالات الاخرى لهذه الالفاظ اذا ماربطناها بالاستجابة الثابتة (الكلايشات) حيث حدد هذه الاستجابة ٣٦ر١٧٪من الطلبة فى مقابل ٢٥ر١٨٪ من الطالبات اذ يثار هنا التساؤل عما قد تعنيه الكلمة خاصة اذا ما ارتبطت بما سبق أن أوضحناه من قلة تردد كلمة "يخش دنيا" بين الطالبات (٣١ر١٠٪)٠

وقد يكون أحد التفاسير الممكنة لذلك هو أن الطالبات يربطن سواء شعوريا او لاشعوريا بين الزواج والقيد، الأمر الذى يعززه نوعية الاستجابة الرابعة "العسل المر" حيث رددتها الطالبات بنسبة (٠٣ر٢١٪) فى الوقت الذى لم ترد اللفظة أبدا على لسان أحد من الطلاب٠

الزواج هو عسل إذن بالنسبة الى الطالبات أو هو حياة حلوة ولكنها لاتخلو مع ذلك ان لم تكن مليئة بالمرارة ٠وذلك على العكس من الامر بالنسبة الى الطلاب فهم وان كانوا قد استجابوا بما أسموه "الكلايشات" (٣٦ر١٧٪) فقد وصفوه أيضا بأنه "دنيا" والدنيا هنا غير تلك التى نعيشها الأمر الذى يفهم من كلمة "يخش."

ولكن الامر لايخلو مع ذلك من بعض المتناقضات التى تعكسها استجابـــات الطالبات بشكل واضح فبينما "الزواج" بالنسبة اليهن هو نوع من الكلابشـــات" (٢٦ر١٨٪)وانه ايضا ."العسل المر" (٠٣ر٢١٪) فهو أمل وحلم بل غايـــة وهدف فى الوقت نفسه ٠وهنا نزوع واضح الى تأكيد حقيقة المرأة كمقولة أنثوية حيث استجابت فئة كبيرة للموثر (٦٢ر٢٢٪) بكلمة "بالحبل" كما رددت فئة أخرى "لـو عندك هاتى" بنسبة لاتقل عن هذه كثيرا (٢٤ر٢٠٪) وكأن معنى ذلك أن هناك (٨٦ر٤٢٪) من الطالبات قد عبرن عن الزواج بلفظ او بكلمة تمنى "لو عندك هاتى" وربطن فى الوقت نفسه بين "التمنى وبين مايرجونة كأمل وكحلم وهو أن يكون الزواج "بالحبل" وكلها نواح لم تتردد فى الفاظ الطلاب على أى الاحوال ٠

وكما يوضح الجدول رقم(٥) الخاص باستجابات المبحوثين لكلمة" الموضـة " فالملاحظ بوجه عام ،زيادة تكرار الكلمات العامية بالنسبة للطالبات عنه بالنسبـــة للطلاب٠ وهذا الاختلاف الجنسى يظهر كذلك بالنسبه لمعظم الكلمات.والتعابيـــر التى قيلت حيث يبدو من الجدول ان

الجـــــــدول رقـــم (٥)

تردد استجابات الطلاب والطالبات للمثير الرابع (الموضـــــــــة)

المثير / نوع الاستجابة / الموضــة	الطلبة: الفرقة الاولـى عدد	%	الفرقة الرابعة عدد	%	مجموع الاستجابات عدد	%	الطالبات: الفرقة الاولـى عدد	%	الفرقة الرابعة عدد	%	مجموع الاستجابات عدد	%
١ـ آخر هبـل	٢٤		٥٢		٧٦	٣٧ر٦٢	١٥		٢٣		٣٨	١٤ر٩٧
٢ـ اوريجنـال	٣		٨		١١	٥ر٤٤	١٨		٢٧		٤٥	١٧ر٧١
٣ـ تلـوح	٧		١٥		٢٢	١٠ر٩	١٦		٣٤		٥٠	١٩ر٦٩
٤ـ متزمـت	١٤		٢٠		٣٤	١٦ر٨٣	ـ		ـ			ـ
٥ـ متنشـى	٢٩	٣٤ر٩٣	١٣		٤٢	٢٠ر٨	١١	١١ر١١	٧	٤ر٥١	١٨	٧ر٠٩
٦ـ عامل عريـس	ـ	ـ	ـ		ـ		١٤		٢٢		٣٦	١٤ر١٨
٧ـ عايش الدور	ـ	ـ	ـ		ـ		٩		١٨		٢٧	١٠ر٦٢
٨ـ تهوس	٦		١١		١٧	٨ر٤١	١٦		٢٤		٤٠	١٥ر٧٤
اجمالـى	٨٣		١١٩		٢٠٢		٩٩		١٥٥		٢٥٤	

الطالبات قدشاركت الطلاب فى كل ماقيدوه من كلمات باستثناء كلمة واحدة لم تـــرد السنتهن وهى كلمة" متزمت " التى ذكرها الطلاب بنسبة (٨٣ر١٦٪) .

ومن الناحية الثانية يظهر هذا الاختلاف الجنسى ايضا فى عدم مشاركـــة الطلاب لبعض الكلمات والتعابير التى ذكرتها الطالبات وذلك مثل " عامل عريس " التى ذكرنها بنسبة (١٨ر١٤٪) وكلمة " عايش الدور" (٦٢ر١٠٪) وهمـــــا تعبيران يعكسان نظرة معينة من قبل الطالبات ترتبط بتحديدهم لمفهوم"الموضـــة" حيث يبدو المفهوم قريبا جدا من مسألة " الزواج" . وقد سبق أن رأينا كيف ان هذه المسألة تمثل شغلا شاغلا للطالبات (عامل عريس ١٨ر١٤٪)و(عايش الـــــدور أيضا ٦٢ر١٠٪) ويقصد به دوره كشخص يسعى الى لفت الانظار بسبب وجاهتـــه وأناقته ومراعاته لتطورات الموضة وهى أمور لافتة للفتيات علىأى الاحوال .

ولكن الجدول يعكس مع هذا بعض المفارقات التى ترتبط بثقافة الشبـــاب الفرعية فيما يتعلق بهذه الناحية وهى فئات تبدو مرتبطة بالفئات العمرية التـــى تعكسها المستويات التعليمية ذاتها على ماسبق القول .

فمن ناحية يلاحظ على الفور المعنى الساخر الذى يتضمن تعبير" آخـــر هبل " الذى ورد على السنة كل من الطلبة والطالبات وان يكن بنسبة فارقة كبيـــرة تزيد على الضعف فى الحقيقة (٦٢ر٣٧٪ للطلاب مقابل ٩٧ر١٤٪ للطالبات) .

ويمكن تفسير ذلك بأن كل من الجنسين وان كان يتمسك بالموضة ويسايرها الا أنه ينظر اليها كما يعكسها الطرف الآخر على انها منطوية على شىء مـــــــن " الهيالة " أو الخروج عن النمط المألوف العادى الذى قد يصل إلى حد الخلـــط وعدم الاتساق وهو ما اصطلح على التعبير عنه بكلمة " هبل " .

ولكن عندما نذهب نسبة ٦٢ر٣٧٪ من الطلاب الى أن " موضـــــة " البنات أو المرأة عموما هى" آخر هبل " فان هذا لابد وأن يكون له معناه الملـــىء بالسخرية من ناحية وبعدم الموافقة أو الرضا من ناحية ثانية. وربما كان الامــــــر انعكاسا لفكرة مسبقة لدى الرجال عن المرأة التى تجرى وراء " الموضة" بصـــرف

النظر عما اذا كانت تليق بها أولا تليق مقبولة أو غير مقبولة سواء من حيث مظهرها وخطوطها أو من حيث سنها وعمرها أو حتى حجم جسدها • والمدهش في الامر كله ان نجدعددا ملحوظا من استجابات الطالبات تعكس هذا المفهوم بالنسبة الى الطلاب وان كان بنسبة اصغر كما قلنا (١٤ر٩٧٪) ولكنها على أية حال كافية لتوضيح ان هناك شريحة من الشباب يبدو مظهرها اقرب الى ماهو غير مألوف وشاذ •

كذلك يلاحظ ان ارتباط الطلبة والطالبات ببعض التعابير والكلمات التي قيلت مما يعطى فكرة عن نوعية التنشئة التي شبوا عليها وانعكاساتها بالتالي فيما تنطوى عليه هذه التعابير والكلمات من مظاهر الرقة والانوثة أو الخشونة والذكورة على اعتبار ان هذه الصفات مما يتوحد تلقائيا ولاشعوريا بمقولة الانوثة والذكورة على الترتيب •

فعلى الرغم من ان الجنسين قد شاركا في لفظ " أوريجينال " فقد كانت اللفظة اكثر ترددا بين الطالبات (٢١ر١٧٪ في مقابل ٤٤ر٥٪) •كذلك الحال بالنسبة الى لفظ " تلوح" الذى ذكرته الطالبات بنسبة ١٩ر٦٩٪ والطلاب بنسبة ١٠ر٩٪ وأيضا كلمة " تهوس" التي ذكرتها الطالبات بنسبة ١٥ر٧٤٪ مقابل ٨ر٤١٪ • وان كان الملاحظ ان اللفظتين متقاربتان الى حد بعيد حتى انهما يعكسان المفهوم ذاته ، أقصد مفهوم أن الموضة " تلوح" أو" تهوس" اذ كثيرا مايتم استخدامهما بالتبادل خاصة بين الطالبات وبوجه أقل بين الطلبة•

ولعل آخر الملاحظات بصددهذا الجدول هو ارتباط الكلمات والتعابير بالسن كما قلنا حيث يظهر الكثير من الاتساق بين ترددالكلمات والتعابير الدالة على الموضة وبين السن بمعنى ان الطلاب والطالبات في الفرقة الرابعة (اكبر سنا بالطبع) كانوا اكثر ترديدا للكلمات والتعابير بوجه عام• وهي ظاهرة كانت أوضح بالنسبة الى الطالبات ، بصفة خاصة وذلك باستثناء موقف واحد هو الذى ترددت فيه كلمة " متنش" حيث ذكرها طلاب وطالبات الفرقة الاولى بشكل اكبر

من طلاب وطالبات الفرقة الرابعة (٩٣ر٣٤، ٩٢ر١٠٪ للطلبة فى مقابـــل ١١ر١١٪و ٥١ر٤٠٪ للطالبات من الفرقة الاولى والفرقة الرابعة على الترتيب) •

وربما كان مرجع استخدام طلاب وطالبات الفرقة الاولى لهذا التعبير بهذا الشكل الذى فاق استخدام طلاب الفرقة الاعلى انهم مازالوا متأثرين بروح تلامـــذة المرحلة الثانوية بما فيها من سخرية وهى سخرية كانت أوضح بين الطلاب مـــن أنفسهم على انفسهم ربما لعدم الرضا عن مظهر الشخص الجاد جدا (المتنشـــى) أو ربما ايضا لغيرة من سلوكه المتفرد الذى تمليه دلالة اللفظ المستخدم•

ولكن من الناحية الأخرى يكشف لنا الجدول رقم (٦) وكذا الجـــدول رقم(٧) بصدد استجابات الجنسين لكلمة" المرأة" ولكلمة" الرجل" عن وجـــود العديدمن المفارقات التى لها دلالتها • فالملاحظ بوجه عام ان تردد كلمـــات الطلبة عن " المرأة" كان اكبر من تردد كلمات الطالبات (٢٤٢ استجابة مقابـل ١٨٢ استجابة) • وعلى العكس من ذلك كانت استجابات الطالبات لكلمة" الرجـــل"

الجدول رقم (٦)

تردد استجابات الطلاب والطالبات للمثير الخامس (المرأة)

المثير نوع الاستجابة المرأة	الطلبة						الطالبات					
	الفرقة الاولى		الفرقة الرابعة		مجموع الاستجابات		الفرقة الاولى		الفرقة الرابعة		مجموع الاستجابات	
	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪
١ـ الحتة بتاعتة	١٤	٢٢ر٢٢	٣٨	٢٢ر٢٢	٥٢	٢١ر٤٨	١٧	٣١ر٤٨	٢١	١٦ر٥٣	٣٨	٢١
٢ـ انجاجية	١٢	١٩ر٠٤	١٦	٨ر٩٣	٢٨	١١ر٥٧	١٣	٢٤ر٠٧	٤٥	٣٥ر٤٣	٥٨	٣٢ر٠٤
٣ـ نار	٣	٤ر٧٦	٢٥	١٣ر٩٦	٢٨	١١ر٥٧	—	—	—	—	—	—
٤ـ صاروخ	١١	١٧ر٤٦	٢٨	١٥ر٦٤	٣٩	١٦ر١١	—	—	—	—	—	—
٥ـ الطقس	٩	١٤ر٢٨	١٧	٩ر٤٩	٢٦	١٠ر٧٤	٩	١٦ر٦٦	٢٢	١٧ر٣٢	٣١	١٧ر١٣
٦ـ غزال	٣	٤ر٧٦	٨	٤ر٤٦	١١	٤ر٥٤	٤	٧ر٤	١٢	٩ر٤٥	١٦	٨ر٨٣
٧ـ الجو بتاعها	٧	١١ر١١	٣١	١٧ر٣١	٣٨	١٥ر٧	٧	١٢ر٩٦	١٩	١٤ر٩٧	٢٦	١٤ر٣٨
٨ـ شايفة نفسها	٤	٦ر٣٤	١٦	٨ر٩٣	٢٠	٨ر٢٦	٤	٧ر٤	٨	٦ر٣	١٢	٦ر٦٢
الاجمالى	٦٣		١٧٩		٢٤٢		٥٤		١٢٧		١٨١	

بكثير من استجابة الطلاب لنفس المثير (٢٠٠ استجابة للطالبات مقابـــــــل ٩٠ استجابة للطلاب) وذلك كما يعكس الجدول رقم (٧) ٠

ولكن الملاحظ من الناحية الثانية انه فى الوقت الذى كان كلام الطالبات عن " المرأة" كثيرا (١٨١ استجابة) فقد كان عدد استجابات الطلاب فى حديثهم عن انفسهم اقل عددا (٩٠ استجابة فقط) كما فى الجدولين ٦ ، ٧ علـــــى الترتيب ٠ ويمكن ان نستخلص من ذلك معنى محددا هو ان الطالبات اكثـــــــر كلاما وحديثا سواء على أنفسهم أو على الرجل ، على حين ان الطالب(الرجـــــل عموما) اقل ترديدا للكلمات المرتبطة به واكثر ترديدا للكلام المرتبط بالمرأة٠

وفى اعتقادى ان هذا أمر طبيعى للغاية ، فمن الطبيعى أن تتزايـــــد الكلمات الموجهة من كل جنس إلى الجنس الآخر وذلك بحكم ميل كل منهما إلـــــى الطرف الآخر ومحاولة الارتباط به ٠ كما يبدو طبيعيا ايضا ان يكون كلام " المرأة" عن ذاتها أو عن غيرها من النساء اكثر من كلام الرجل عن نفسه أو عن غيره مـــــن الرجال ٠

تردد استجابات الطلاب والطالبات للمثير السادس (الرجـــــل)

الجـــدول رقـــم (٧)

المثيـــــر نوع الاستجابـة الرجـــــل	الطلبـــة						الطالبـــات					
	الفرقة الاولـى		الفرقة الرابعة		مجموع الاستجابات		الفرقة الاولى		الفرقة الرابعة		مجموع الاستجابات	
	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪
١ـ جنـــان	ـ		ـ		ـ		٦	٨ر٨٢	١١	٨ر٣٣	١٧	٨ر٥
٢ـ الجوكـر	١	٣ر٧	٩		١٠	١١ر١١	٥	٧ر٣٥	١٩	١٤ر٣٩	٢٤	١٢
٣ـ انجاجية	١٥	٥٥ر٥٥	٢٢		٣٧	٤١ر١١	١٧	٢٥	٢٢	١٦ر٦٦	٣٩	١٩ر٥
٤ـ مدلـــع	١١	٤٠ر٧٥	٣٢		٤٣	٤٧ر٤٨	٢١	٣٠ر٨٨	٣٠	٢٢ر٧٢	٥١	٢٥ر٥
٥ـ يهوس	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٤	٥ر٨٨	١٢	٩ر٠٩	١٦	٨
٦ـ الواد بتاعى	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٤	٥ر٨٨	٩	٦ر٨١	١٣	٦ر٥
٧ـ البوى فرند	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٨	١١ر٧٦	٢٢	١٦ر٦٦	٣٠	١٥
٨ـ صاحبـــى	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	٣	٤ر٤١	٧	٥ر٣٠	١٠	٥
	٢٧	١٠٠	٦٣		٩٠		٦٨		١٣٢		٢٠٠	١٠٠

وعلى الرغم مما تعنيه هذه التقابلات من دلالات، فان المقارنة بين الجدولين السابقين تقدم لنا منظورا آخر لايخلو من طرافة. فالملاحظ في الجدول رقم (٦) ان هناك كلمات ترددت على السنة الطلاب فيما يتعلق بالمرأة ولم يرد لها ذكر على السنة الطالبات . ومثال ذلك كلمة " نار" التى رددها الطلاب بنسبة ٥٧ر١١٪ وكلمة" صاروخ" (١١ر١٦٪) ذلك فى الوقت الذى ترددت تقريبا كل الكلمات التى اطلقتها الطالبات على السنة الطلاب بنسبة أو بأخرى. وان كان اللافت هنا ان بعض التعابير يتزايد ترددها وتكرارها مع تزايد السن أو ارتفاع المستوى التعليمى حيث ذكر لفظ " نار" (٧٦ر٤) من طلاب الفرقة الاولى مقابل ٩٦ر١٣٪ من طلاب الفرقة الرابعة.

ويمكن التوصل الى الملاحظة ذاتها فى الجدول رقم(٧) وبخاصة فيما يتعلق بتلك الكلمات التى وصفت بها الطالبات " الرجل" ولم يرد ذكرها على السنة الطلاب مثل " بهوس" ، و" الواد بتاعى" و" البوى فرند" و" صاحبى" حيث يلاحظ تزايد نسبة التكرارات بتزايد السن بالقياس لزميلتهن فى الفرقة الاولى. فقد ذكرت الطالبات فى الفرقة الرابعة هذه الكلمات بنسبة ٠٩ر٩٪، ٨١ر٦٪ ، ٦٦ر١٦٪، ٣ر٥٪ مقابل ٨٨ر٥٪، ٨٨ر٥، ٧٦ر١١٪، ٤١ر٤٪ لطالبات الفرقة الاولى على الترتيب . وهو مايمكن القول بأنه يصدق ايضا على كلمة" جنان " التى ذكرتها الطالبات دون الطلبة . وان كان الشيء اللافت هنا هو ان عدد التكرارات التى ذكرتها طالبات الفرقة الاولى قد زاد عن تلك التى كررتها طالبات الفرقة الرابعة وان يكن بفارق ضئيل جدا لايكاد يصل الى ٤٥ر٠٪ وهو فارق يصعب القول بأن له دلالة خاصة ، اللهم اذا اعتبرنا ان طالبات الفرقة الاولى مثلهن طالبات الفرقة الرابعة يعتبرن مثل هذا اللفظ اكثر دلالة عما يجيش بنفوسهن حيال " الرجل" ، وانهن اكثر انجذابا بوجه عام إلى الشخص غير العادى.

* Unpopular

(٧)

أما عندما أردنا استكشاف تصورات ومفاهيم الافراد عن كل من " الأب" و (الأم) بحسب مايعبرون به فى علاقاتهم الحميمة وثقافاتهم الخاصة ، فقد

كشف لنا الجدول رقم (٨) والجدول رقم(٩) عن نوعية الالفاظ والتعابيـــــر العامية التى تنطوى على غير قليل من التناقضات على الاقل من حيث علاقــــات الاجيال الاصغر بالاجيال الاكبر.

الجدول رقم (٨)

تردد استجابات الطـــلاب والطالبات للمثيـــــر السابع (الأب)

المثيـــــر نوع الاستجابة	الطلبـــة						الطالبـــات					
	الفرقة الاولى		الفرقة الرابعة		مجموع الاستجابات		الفرقة الاولى		الفرقة الرابعة		مجموع الاستجابات	
الاب	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪
١ـ الراجل الكبير	٢٢	٣٧ر٩	٦٠	٥٠ر٤٢	٨٢	٤٦ر٠٦	١٩	٢٣ر٤٦	٢٠	١٣ر٨٩	٣٩	١٧ر٣٣
٢ـ الكومانــــدا	٦	١٠ر١٧	٥٠	٤٢ر٠١	٥٦	٣١ر٤٦	١٤	١٧ر٢٩	٢٦	١٨ر٠٥	٤٠	١٧ر٧٨
٣ـ سى السيد	—	—	—	—	—		١٧	٢٠ر٩٩	٥٢	٣٦ر١١	٦٩	٣٠ر٦٧
٤ـ البيكيـــت	١٩	٣٢ر٢٠	٧	٥ر٨٩	٢٦	١٤ر٦٠	—		—		—	
٥ـ هولاكـــو	—						١٨	٢٢ر٢٢	٢٧	١٨ر٧٦	٤٥	٢٠
٦ـ دادى	١٢	٢٠ر٣٤	٢	١ر٦٨	١٤	٧ر٨٦	١٣	١٦ر٠٤	١٩	١٣ر١٩	٣٢	١٤ر٢٢
الاجمالـــــى	٥٩	١٠٠	١١٩	١٠٠	١٧٨	١٠٠	٨١	١٠٠	١٤٤	١٠٠	٢٢٥	١٠٠

الجدول رقم (٩)

تردد استجابات الطلاب والطالبات للمثير الثامن (الأم)

المثير	الطلبة						الطالبات					
نوع الاستجابة الأم	الفرقة الاولى		الفرقة الرابعة		مجموع الاستجابات		الفرقة الاولى		الفرقة الرابعة		مجموع الاستجابات	
	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪
١ـ الحكومة	١٩	٣٣ر٩٣	٢٧	٣٤ر٦١	٤٦	٣٤ر٣٢	١٥	٢٥ر٨٧	٢٢	٢٢ر٤٤	٣٧	٢٣ر٧١
٢ـ الرايفة	—						١٧	١٩ر٣١	٢٨	٢٨ر٥٩	٤٥	٢٨ر٨٥
٣ـ الداخلية	١٢	٢١ر٤٢	١٨	٢٣ر٠٨	٣٠	٢٢ر٣٩	٥	٨ر٦٢	٨	٨ر١٦	١٣	٨ر٣٣
٤ـ الحاجة	١٤	٢٥ر—	١٨	٢٣ر٠٨	٣٢	٢٣ر٨٩	١٢	٢٠ر٦٩	١٩	١٩ر٣٨	٣١	١٩ر٨٨
٥ـ المفتاح	١١	١٩ر٦٥	١٥	١٩ر٢٣	٢٦	١٩ر٤٠	٩	١٥ر٥١	٢١	٢١ر٤٢	٣٠	١٩ر٢٣
	٥٦	١٠٠ر٠٠	٧٨	١٠٠ر٠٠	١٣٤	١٠٠ر٠٠	٥٨	١٠٠ر٠٠	٩٨	١٠٠ر٠٠	١٥٦	١٠٠ر٠٠

ولعل أولى الملاحظات اللافتة فى الجدول رقم (٨) هو أن عـــــدد التكرارات التى استجابت بها الطالبات للمثير (الاب) قدفاق بشكل ملحوظ تلك التى قيدها الطلاب (٢٢٥ مقابل ١٧٨) ٠

وبالرغم من ان هذا قد يكون معناه نوعا من التوحد بين الطالبـــات (كاناث) وبين الاب (كرجل) او على اعتبار انه رمز للرجل عموما ، فانه قـــد يشير فى الوقت نفسه الى وجود قدر أو آخر من البعد الاجتماعى القائم بين الطلاب وآبائهم مما يثير التساؤ ل عن مدى التوافق القائم حقيقة بين الاجيال الاكبـــر والاجيال الاصغر اذ يبدو لنا فى مثل هذه الوضعية ما قد يعكس نوعا من الخـروج عن سيطرة الاب والرفض الصريح لاساره (١) ٠

ولعل مما يعزز مثل هذه النظرة الاخيرة نسبة تكرار الكلمات التى عكست هذا المفهوم لدى الطلاب انفسهم وهى نسبة تجاوزت بكثير استجابة الطالبـــات لنفس المثير ٠ فقد بلغت تكرارات كلمة" الرجل الكبير" التى جاءت على السنـــة المبحوثين ٦٠ر٤٦٪ للطلاب مقابل ٣٣ر١٧٪ للطالبات، فى الوقت الـــذى تكررت ايضا كلمة " الكوماندا" بنسبة ٤٦ر٣١٪ للطلاب و٧٨ر١٧٪ للطالبات٠

وصحيح ان الطالبات قد عبرن عن شىء مثل هذا التصور عند استجابتهن للمثير بكلمة " سى السيد" (٦٧ر٣٠٪) وهى كلمة لم يرد ذكرها ابدا على السنة الطلاب٠ وصحيح ايضا انهن قد رددن كلمة" هولاكو" (٢٠٪) وهى كلمة لم تـردد ايضا على السنة الطلاب ٠ ولكن الصحيح ايضا انه بالرغم من كل ما يعكسه هـــذا التعبير الاول " سى السيد" من معانى السيطرة والخضوع والتبعية فانه علـــى الاقل فى مفهوم الكثيرين يعكس نوعية العلاقة بين الزوج والزوجة وليس بيـــن الاب والابناء ، وان كنا نعتقد ان هذا المفهوم" سى السيد" لابد وانه يتضمـــن

(١) يمكن الرجوع الى: Davis,K.,The sociology of parent-Youth conflict " social perspectives on Behavior.ed.H.Stein and R.A. Cloward.Glencoe.111.Thefree Press.1958.

كذلك مختلف أبعاد العلاقة المسيطرة التى كان الرجل " الاب" يباشرها حتى على أبنائه الكبار منهم والصغار على السواء •

أما فيما يتعلق بكلمة" هولاكو" وماتثيره فى نفوس الطالبات أو بتعبير أدق ما أثار هذه الكلمة بالذات فى نفوسهن ليعبروا بها عن " الاب" فلا نستطيع الا ان نسلم بالمعنى الظاهرى على الاقل وهو ان الرجل حتى وهو يقوم بدور الأب انما لايزال يمثل لدى الكثيرات الرمز لكل ماتثيره مثل هذه الكلمات والالفاظ من معانى السيطرة والقسوة والوحشية ، وهو مايعكس غير قليل من التناقض اذا ما اردنا مناقشة العلاقة الحقيقية بين الاب وبناته من ناحية ، أو حتى بين الرجل والمرأة بعامة من الناحية الثانية• ومن هنا فيمكن القول بأن زيادة استجابات الطالبات للمثير والتى اشرنا اليها من قبل (٢٢٥استجابة) تنطوى على كثير من الدوافع المتداخلة إن لم تكن المتناقضة إلى أبعد الحدود•

ولعل ماقد يحسم هذه النقطة بشكل اكثر وضوحا ماتعكسه الاستجابة الاخيرة بالذات والتى عبر عنها المبحوثون بلفظ " دادى" حيث بلغت نسبة ترددها لدى الطلاب ٨٦ر٧٪ ولدى الطالبات ٢٢ر١٤٪ مما يعنى وجود نوع من القرب أو التقارب بالاصح بين الطالبات وبين الأب •

وحتى اذا نحن سلمنا بأن مثل هذا اللفظ فيه من الرقة مما يجعله غير متردد كثيرا بين الطلاب (الرجال) وهو مايعززه فى الوقت نفسه زيادة تكرارات اللفظ بين طلاب الفرقة الاولى عنهم طلاب الفرقة الرابعة (٣٤ر٢٠٪ مقابل ٦٨ر١٪) مما يعنى ان الطالب كلما كبر سنه نأى بنفسه عن استخدام هذا اللفظ " دادى" تماما بالنسبة الى مقولة الطلاب ومقولة الطالبات ، فيبقى ان ١٢ر٩٢ ٪ من الطلاب قد رددوا باقى الكلمات والتعابير التى أثارها المثير فى مقابل ٧٨ر٨٥٪ للطالبات •

ويبدو لنا من ثم فى ضوء هذا التحليل ان هناك مسافة ما أو نوعا من البعد بين الطلاب وبين الأب ، اكبر مما قد تستشعر الطالبات وجودها•

بيد أن متضمنات الجدول رقم (٩) تبدو وكأنها تشير الى ماهو عكس ذلك حيث يتضح ان عدداستجابات الطالبات للمثير (الأم) أزيد منها لدى الطلاب (١٥٦ للطالبات مقابل ١٣٤ للطلاب) • ومع ان هذا قد يبدو صحيحا في جملته، الا ان الملاحظ هو ان الفارق ليس كبيرا لان تكون له دلالته الايجابية المحددة (٢٢ استجابة) وعليه فيلزم البحث اذن عن تفسير لمثل هذه الانعكاسات الثقافية فى ضوء اختلاف الاستجابات او تشابهها كل على حدة •

واللافت للنظر انه بالرغم من اشتراك الطلبة والطالبات في ترديد كل الكلمات العامية والعبارات التى قيلت فان هناك كلمة واحدة قالتها الطالبات (٢٨,٨٥٪) ولم ترد على السنة الطلاب وهى كلمة" الرايقة" • وتثير هذه الملاحظة اكثر من تساؤل لعل فى مقدمتها ذلك الذى يتعلق بمفهوم" الرايقة" لدى الطالبات انفسهن ؟ بأى معنى من المعانى يتصور الطالبات هذا " الروقان " هل بمعنى البعد عن الهموم والمشاغل أم بمعنى انتباهها الى نفسها والى ذاتها واحساسها بكيانها كامرأة وكأنثى؟ أم ان المفهوم يتضمن الناحيتين معا ؟

واذا كان احد من الطلاب لم يقل هذه الكلمة فهل يعنى ذلك ان نظرتهم للام انها بعيدة عن هذه الصفة أيا ماكانت متضمناتها ؟ واذا صح ذلك فما عساها تكون الاسباب ؟ أهى كثرة المشاغل ام انه اعتراف من الطلاب بانها (الام) ليست (رايقة) بصرف النظر فى هذه الحالة عما قد ينطوى عليه المفهوم من معانى ودلالات ؟

ان مايدفعنا الى اثارة مثل هذه التساؤلات هو فى الحقيقة نوعية العبارات التى تمت الاستجابة بها الى المثير وهو مصطلح" الام" • فاذا سلمنا بتقارب التكرارات بين الطلاب والطالبات عندما رددوا كلمة" المفتاح" (١٩,٤٪للطلاب و ١٩,٢٣ للطالبات) ، واذا سلمنا ايضا بالدلالة الفارقة لتكرارات كلمة" الحاجة" حيث ذكرها الطلاب بنسبة زادت عن الطالبات (٢٣,٨٩٪ مقابل ١٩,٨٨٪) ، فان التساؤل يظل قائما عن معنى ان تذهب نسبة ٥٦,٧١٪ من الطلاب فى مقابل ٣٢,٠٤٪ من الطالبات الى وصف " الام" بكلمتى" الحكومة" و" الداخلية"

حيث تكررت الكلمة الاولى بنسبة ٣٢ر٣٤٪ للطلاب و ٧١ر٢٣٪ للطالبات وكلمة " الداخلية" بنسبة ٣٩ر٢٢٪ للطلاب و ٣٣ر٨٪ للطالبات ، الا انه يكون استشعارا من الطلاب لواقع اجتماعى قائم وموجود مؤداه ان (الام) هى مايمثل فى كثير من بيوتاتنا المصرية هاتين السلطتين (الحكومة والداخلية) اكثر مما تستشعر ذلك الطالبات ٠ ولعل مايعزز ذلك ان الفوارق ليست ذات دلالة بالنسبة الى الفئات العمرية نفسها ٠ فالملاحظ انه بين الطلاب ذكر لفظ "الحكومة" ٩٣ر٣٣٪ و ٧١ر٣٤٪ لطلاب الفرقة الاولى والفرقة الرابعة على الترتيب ٠ كما ذكر لفظ " الداخلية" بينهم بنسبة مقاربة (٤٢ر٢١٪، ٣٩ر٢٢٪) وهو مايمكن ملاحظته ايضا بالنسبة الى استجابات الطالبات انفسهم (٨٧ر٢٥٪و ٧١ر٢٣٪) لطالبات الفرقة الاولى والرابعة على الترتيب ، على حين تردد لفظ " الداخلية" بينهن بنسبة ٦٢ر٨٪ ، ٣٣ر٨٪ على الترتيب أيضا ٠

(٨)

ولقد شئنا ايضا ان نتعرف على استجابة الافراد لكلمتى" الكلية والنجاح" باعتبار انهما يمثلان مثيرا واحدا حيث يرتبطان ببعض أشد الارتباط ٠

وكما نرى فى الجدول رقم (١٠) الخاص باستجابات الطلاب والطالبات فقد كانت أعداد استجابات الطالبات اكبر بوجه عام من استجابات الطلاب حيث بلغت ١٢٠ استجابة مقابل ٩٦ استجابة٠

الجدول رقم (١٠)

تردد استجابات الطلاب والطالبات للمثير التاسع (الكليـــة والنجـــاح)

المثير نوع الاستجابة الكلية والنجاح	الطلبة						الطالبات					
	الفرقة الاولى		الفرقة الرابعة		مجموع الاستجابات		الفرقة الاولى		الفرقة الرابعة		مجموع الاسجابات	
	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪	عدد	٪
١ ـ المخروبة	١٨	٥٦ر٢٥	١٩	٢٩ر٦٨	٣٧	٣٨ر٥٤	—	—	—	—	—	—
٢ ـ الجبلايـــة							٢٠	٦٤ر٥١	٢٣	٢٥ر٨٤	٤٣	٣٥ر٨٣
٣ ـ حاتتعلق على الحيط	١	٣ر١٣	٥	٧ر٨١	٦	٦ر٢٥	٧	٢٢ر٥٨	٣٩	٤٣ر٨٢	٤٦	٣٨ر٣٣
٤ ـ السجـــن	٥	١٥ر٦٢	١٣	٢٠ر٣١	١٨	١٨ر٧٦	٣	٩ر٦٧	٢١	٢٣ر٥٩	٢٤	٢٠
٥ ـ ضايع جدا	٢	٦ر٢٥	٨	١٢ر٥	١٠	١٠ر٤١	١	٣ر٢٢	٦	٦ر٧٤	٧	٥ر٨٣
٦ ـ ناس فاضية	٦	١٨ر٧٥	١٩	٢٩ر٦٨	٢٥	٢٦ر٠٤	—	—	—	—	—	—
	٣٢		٦٤		٩٦	١٠٠٠٠	٣١		٨٩		١٢٠	

ومع ذلك فمن الملاحظ ان هناك مايشبه الاتساق بين الاستجابات الخاصة بكل من الفئتين بالنسبة الى الكلمات المعينة • فقد ترددت كلمة " المخروبة" على سبيل المثال على ألسنة الطلاب بنسبة ٥٤ر٣٨٪ فى الوقت الذى ترددت على السنة الطالبات لكلمة مشابهة الى حد بعيد هى كلمة" الجبلاية " بنسبة ٨٣ر٣٥٪ • ومع ان الكلمتين قد يكون لهما نفس المعنى تقريبا فالملاحظ أن تعبير الطلاب يبدو اكثر عنفا وشدة من تعبير الطالبات وكأنها (الكلية) "الخرابة" أو الشيء المخرب بمعنى أدق بينما قد توحى كلمة الجبلاية بمعنى الاهمال وعدم الاستخدام والعناية•

أما الملاحظة الثانية التى لها دلالتها ايضا بالنسبة الى هاتين الكلمتين فهى اشتراك الفئات العمرية المختلفة فى ترديدها مما يمكن القول معه بأنها متقاربة بالاضافة الى وجود نوع من شيوع الاستخدام وبالتالى الاتفاق على مضامين اللفظ الثقافية• فقد ردد الطلاب كلمة " المخروبة" بنسبة ٢٥ر٥٦٪، ٦٨ر٢٩٪ ، للمستوى الاول والمستوى الرابع على الترتيب • ونفس الاطراد نجده فى ترديد الطالبات لكلمة " الجبلاية (٥١ر٦٤٪) ، ٨٤ر٢٥٪ للمستوين الاول والرابع على الترتيب) •

واذا كانت كلمات (السجن)و (ضايع جدا) قد ترددت بدورها على ألسنة كل من الطلاب والطالبات ٧٦ر١٨٪ مقابل ٢٠٪ و ٤١ر١٠٪ مقابل ٨٣ر٥٪ للكلمتين على الترتيب) مما يعكس بدوره نوعا من الاشتراك فى المفاهيم حيث يشترك الطلاب والطالبات فى تشبيه الكلية بالسجن أو بانها نوع من السجن والقيد، فان وجه الطرافة يتمثل فى التعبير الآخر حيث يقصد به ليس مجرد المعنى اللغوى الذى قد يفهم من " الضياع" وانما هو تعبير دارج يستخدمه افراد الفئتين دلالة على" تقدير ضعيف جدا" فى الامتحانات • وان كان مما له دلالة أيضا زيادة التكرارات بالنسبة لكلمة " السجن " بين الطالبات عنه بين الطلبة (٢٠٪ مقابل ٧٦ر١٨٪)، والعكس صحيح أيضا بالنسبة الى الكلمة الثانية" ضايع جدا" حيث ذكرتها الطالبات بنسبة ٨٣ر٥٪ مقابل ٤١ر١٠٪ للطلاب على ماسبقت الاشارة• فهنا مفهوم السجن اكثر ارتباطا بالنسبة للطالبات منه للطلبة وان لم يكن

ذلك بنسبة فارقةكبيرة ٠

الا أن الملاحظة الاخيرة بصدد هذا الجدول ايضا تتمثل فيما يمكـــن وصفه بأنه يعكس الوضعية الثقافية أو التوجه الثقافى الذى يعيشه الطلاب بوجـــه عام ، حيث تكرر تعبير" ناس فاضية" بنسبة لها وزنها فى الحقيقة (٤٠ر٢٦٪) كما ذكرها طلاب الفرقة الاولى وطلاب الفرقة الرابعة (٧٥ر١٨٪و ٦٨ر٢٩٪) ٠

انما وجه المقارنة ليس فيما تعكسه هذه النسب من دلالات وانما فيمـــا يتضمنه المفهوم نفسه حيث يقصد به ـ لوجه الغرابة ـ الاشارة الى" المتفوقين" من الطلبة على اعتبار انهم متفرغين أو " فاضين" وليس وراءهم مايشغلهم ســـوى الاستذكار ٠

ما الذى تعنيه هذه الاستجابات وهذه الالفاظ والكلمات بالنسبة الـــى الكلية والنجاح ؟ واذا كانت النظرة الى الكلية على انها " المخروبة" أو" الجبلاية" واذا كان التفوق يعبر عنه بأنه سمة الناس" الفاضيين" الذين لايشغلهم شاغـــل ، واذا كانت الكلية بمثابة " سجن" وأن الشهادة" حاتتعلق عالحيط" ٠ أفلا يعنـــى كل هذا وجود ماهو خطير بالفعل ذلك الذى ربط بين هذه المفاهيم وبين المثيـــر الذى أثارها ؟ وهو مايثير فى الوقت نفسه التساؤل عن مسئولية واضعى السياســات التعليمية والتربوية ومسئولية الجامعات وطبيعة العلاقة بينها وبين المجتمع الـــذى يضمها ٠



استنتاجات ومناقشة عامة لنتائج الدراسة الميدانيـــة

استنتاجات ومناقشة عامة لنتائج الدراسة الميدانية

لعل الدراسة قد كشفت بوضوح عن حقيقة ان أعداد المصطلحات العامية أو التعابير والكلمات الدارجة التى ترتبط بالموضوعات المختلفة التى تشتمل عليها ثقافة الشباب تختلف باختلاف الجنس كما تختلف أيضا باختلاف الفئة العمرية وباختلاف المستويات التعليمية تلك التى انعكست فى الفوارق بين طلاب وطالبات المستوى الاول والمستوى (أو الفرقة) الرابعة.

والواقع انه فى ضوء ذلك فان الاستنتاج الذى يمكن ان نستخلصه هو أن الالفة بالتعبير أو الاعتياد عليه وعلى الكلمة الغامية التى يثيرها المؤثر تبدو وكأنها مسألة يتم تنميطها وفقا لهذه الفئات العمرية والمشاركة فى بعض الادواروالجماعات التى تتضمنها هذه الثقافة الفرعية.

ومع التسليم بأن أنماط التغابر لاتخلو من التداخل والتشابك والتعقيد الا انه يمكن استخلاص بعض النتائج الهامة بالنظر الى الاختلافات الجنسية من ناحية والاختلافات العمرية من ناحية ثانية وماقد تسمح به الثقافة العامة المقررة اجتماعيا وبالتالى مايعتبر من وجهة نظر هذه الثقافة انحرافا عنها أو خروجا عليها حتى وان كان يجرى كشيء عادى ومألوف فى داخل النمط الثقافى الفرعى.

ولعل أول ماينبغى التوقف أمامه هو أن هناك من الكلمات والتعابير ما يظهر انه اكثر ترددا بين إحدى الفئتين المكونتين للعينة من الفئة الأخرى كأن يكون التعبير مثلا اكثر ترددا بين فئة الطلاب عنه بين الطالبات أو العكس، والشيء نفسه بالنسبة الى تردد وتكرار التعابير والكلمات فيما يتعلق بالموضوعات المحددة ذاتها ، اذ يبدو ان معدل التكرار يتزايد نسبة الى بعض التعابير دون بعضها الآخر وربما ارتباطا أيضا بالفئة العمرية وهو ما أكدته على أى الاحوال الدراسة الراهنة وبخاصة إذا مانظرنا الى بعض المثيرات التى استخدمت ، فقد كانت استخدامات الطلاب وتردد التعابير بالنسبة الى مثير " السجائر والتدخين" اكثر من استجابات الطالبات(١٣٣ استجابة مقابل ٩٠ استجابة) .

كذلك قدتزايدت التكرارات بالنسبة الى طلاب الفرقة الرابعة عن طـــلاب الفرقة الاولى بصفة عامة • وعلى العكس من ذلك كانت استجابات الطالبات لبعـــض الموضوعات الاخرى مثل " الزواج" و" الموضة" وحديثهم عن " الرجل " بوجـــه عام•

والتساؤل الملح بصددذلك كله هو : ما الذى بعنيه ذلك ارتباطا بثقافة الشباب وأنماطه اللغوية التى يعبر بها عن هذه الثقافة ؟

الواقع انه وان كان من السهل القول لأول وهلة بأن ثمة تغايرا فـــى الموضوعات Topics التى تجذب انتباه واهتمامات الشباب فى هذه المرحلـة العمرية ، فان هناك نوعا من التقارب الذى يجمع بين الفئات العمرية الواحـــدة أو المتقاربة حول الموضوعات الواحدة وبالتالى طرق تعبيرهم ومايتوافر ويتم تناقلـــه بينهم من الفاظ وكلمات وتعابير•

ولكن من الناحية الأخرى فانه يمكن فى الوقت نفسه القول بأن هـــذا التقارب يتدخل فى تحديده لا الفوارق العمرية وحدها ولكن الفوارق الجنسيـــة كذلك • فقد أوضحت لنا الدراسة كيف ان الطلاب قداستجابوا بشكل اكبر إلـــى " النقود" مثلا (على الرغم من ان النقودقد مثلت ايضا مثيرا له اهميته بالنسبـــة الى الطالبات كذلك) • والشيء نفسه بالنسبة إلى" السجائر والتدخين" وبالنسبـة الى" المرأة" وهى ظاهرة قد يمكن تفسيرها فى ضوء بعض قيم الثقافة الخاصـــة بوضعية الرجل ومكانته فى النسق الثقافى الاشمل ، حيث يسمح للرجل باشيـــاء لايسمح بها للمرأة ، بمعنى انها وضعية تتسم - مازالت - بكثير من ملامـــح السيطرةوهى مظاهر من البين ان لها مكانها فى ثقافة الشباب الخاصة حيث يريـــد الظهور بما قد يكسبه هذه الملامح (النقود والتدخين وحديثه عن المرأة) •

الا انه من الناحية الأخرى تبدو الطالبات (الانثى) عموما اكثر توجـهـا من الناحية اللغوية نحو تلك الموضوعات والامور الانثوية ومثلها تلك الموضوعـــات ذات الصبغة أو الطابع الاجتماعى الذى تعكسه الثقافة العامة • فهن أكثـــــر

حديثا عن الزواج وعن السجن (سجن الرجل للمرأة وسجن الكلية للطالبـــــة ورغبتها فى الزواج التى عبرت عنها بأنها حتى عندما تأخذ الشهادة فســوف " تتعلــق عالحيط") .

والحقيقة ان مثل هذه النتيجة لاتبدو غريبة بالنسبة الى النمط الثقافــى العام بل وبالنسبة الى ماذهبت اليه بعض الدراسات التى تمت فى هذا المجال .(١) فمازال النمط الثقافى الاجتماعى فى كثير من المجتمعات التى تعلى من شأن النمــط الثقافى (الذكور) يشجع على زواج البنت ويدفع اليه حتى ولو كان ذلك علـــى حساب اكمالها لتعليمها . ومازالت الفتاة (مهما بلغت فى مراحل التعليم) تـــرى غايتها النهائية فى الحياة المرتبط بالزواج وبالاسرة وبالرجل وبالابناء . وهنا يبـــدو لنا إنها فريسة لنوع من التناقض مابين رغبتها فى" التحرر" من القيدوكسر هـــذا القيدورغبتها فى الارتباط به والخضوع والاستسلام له . وكأنما يمكن القول بمعنى من المعانى ان عالم الرجل هو من الاتساع حتى ليضم العالم والكون بأكمله ، بينمـــا عالم المرأة لايكاد ، من حيث اهتماماتها الحقيقية ، يتجاوز حدود الزوج والولـــد والاسرة والبيت (السعيد) .

بيد أنه أيا ما كانت النظرة التى يمكن النظر بها الى هذه الدراسة والـــى ما أسفرت عنه من نتائج فلابد من أن تتضح أمام الاذهان حقيقة أساسية وهـــى أن الارتباطات التى تقوم بين مظاهر الاعتياد والألفة بالكلمات العامية والدارجة انمـا تقيس بوجه عام أصـداء ماهو معروف الى حد بعيد من تغايرات اجتماعية وثقافية فى الادوار التى يلعبها كل من الجنسين وكيف ان لغة معينة أو حتى كلمات أو تعابيـر بذاتها تمارس دورا ملحوظا فى تحديد كل من المشابهات والاختلافات التى تقوم بيـن الجماعات الفرعية والجانبية . وعلى ذلك فقد يكون من الصعب حقيقة الانتهاء الى مثـل

---

(١) D.Harris., Sex Differences in the life probl-emes and interests of Adolescents, 1955. and 1957, "child Development, xxx 1959. pp. 453-459.

تلك النتائج الحاسمة التى تؤكد بالضرورة وجود ارتباط مباشر بين مقياس الكلمات الدارجة والعامية وبين بعض الاساليب المستخدمة أو الواجب استخدامها فى عمليات التنشئة الاجتماعية وذلك لسبب بسيط هو أن معنى المقياس ودلالته لايمكن اختزالهما بمثل هذا التحديد بالغ التبسيط ، علاوة على ان اللغة وعمليات التطبيع الاجتماعى مما يرتبطان عادة بطرق جد متشعبة وجد معقدة.

واذا نحن سلمنا بذلك فيكون معناه التسليم أيضا بمحدودية نطاق هذه الدراسة وبالتالى محدودية نتائجها التى حاولنا أن نوضح منذ البداية انها لا تتعلق سوى بجانب واحد فحسب من الجوانب المتعددة للظاهرة اللغوية.

وفى ضوء كل هذا فقد يكون من المفيد تماما كى نرتاد عالم اللغويات من ناحية وعالم السلوكيات والافعال الانسانية (وهى ظاهرة اجتماعية ثقافية فى آن واحد) من ناحية ثانية أن نلتفت الى مايمكن ان تقدمه الروابط العديدة التى تقوم بين ميدان علم اللغة أو حتى بين ميدان علم الاجتماع اللغوى وغيرهما من الميادين الأخرى وثيقة الصلة كالانثربولوجيا الثقافية وحتى علوم النفس التى تمسك بطرف اللغة من ناحية وبالانسان من ناحية ثانية خاصة تلك المجالات المتخصصة كعلم النفس اللغوى أو علم النفس التجريبى أو سيكولوجية الشخصية.

وليس من شك فى ان مثل هذه البحوث التى يحتمل قيامها بتضافر جهود العلماء الذين ينتمون الى هذه الميادين جميعها قادرة على أن تثير العديد من المسائل ذات الطبيعة الجدلية العالية، ولكن المعتقد فى الوقت نفسه أنها قادرة أيضا على أن تلقى مزيدا من الاضواء على الكيفية التى تعمل بها اللغة فى الثقافة والمجتمع ، وعلى الكيفية التى قد ترتبط بها لغة ما أو لهجة ما أو حتى رموز بذاتها بأدوار اجتماعية فى داخل مجتمع معين وفى قلب اطار ثقافى معين. وهو ماتظهر اهميته وخطورته بالنسبة الى الثقافات الانحرافية بالذات أو الثقافات الخاصة عموما.

علاوة على هذا كله فان الشىء المؤكد هو ان مثل هذه الدراسات خليقة

ايضا بأن تلقى بمزيدمن الضوء على بعض المشكلات اللغوية المتأصلة مثل طبيعـــة العلاقاتبين الوضعية السسيواقتصادية وبين هذا النمط اللغوى أو ذاك. أو مـــا يسود فى منطقة معينة أو جماعة من الجماعات من تعابير ولهجات وكلمات وألفاظ.

ومهما يكن الأمر، فقد كشفت الدراسة عن وجود اختلافات هامة فـــــى الانماط الاجتماعية اللغوية التى تستخدمها جماعات الشباب، وان هذه الأنمـــاط وثيقة الصلة بكل من الأدوار والوضعيات التى تحددها مقولات الجنس والعمــــر والانتماءات الثقافية والطبقية إضافة لسائر المتغيرات ذات الدلالة كالتوجهــــات الفكرية أو الايديولوجية أو بالاصح التوجهات الثقافية العامة التى قد تروج لها وتعمـل على نشرها نظم وأساليب التربية والتعليم مما يجعل من هذه الانماط كلاما بالــغ التشابك والتعقيد، وجدير فى آخر الامر بمزيد من البحث والتعمق لابراز ماننطـوى عليه جوانبه المختلفة من حقائق خليقة بأن تزيد معرفتنا بالثقافة وبالشخصيـــة على السواء .

الملاحـــــق

- أداة البحث الميدانـــى
- قائمة المصطلحـــــات
- المراجع العربية والأجنبية ٠

أداة البحث الميدانــــــــي

عزيزتى الطالبة ...

عزيزى الطالب ..

فى هذه الدراسة نحاول ان نجمع الكلمات والمصطلحات والتعابير العامية (الدارجة) التى عادة مايستخدمها ويتحدثبها الافرادذوو السن الواحدة أو المتقاربة. والحقيقة اننا فى حاجة الآن الى عونك ومساعدتك بأن تقول لنا الكلمات العامية التى تعرفها (تعرفينها) والتى تتحدث بها فى مختلف الموضوعات.

ونحن نقصد بالكلمة العامية (الدارجة) تلك الكلمات أو المصطلحات فقط التى تستخدمونها بطريقتكم الخاصة فى لقاءاتكم وجلستكم العادية التى تعبرون بها عن المعانى التى تودون توصيلها بعضكم لبعض حتى دون أن يفطن إليها الاخرون فى حالة ما اذا كانوا قريبين من جلستكم. فالنقود على سبيل المثال قد تطلقون عليها عندما يربط الحديث بينكم" أرنب" أو" أهيف" كنموذجين للكلمات والمصطلحات الدارجة أو العامية ولكن لا تعتبر كلمة" جنيه " مثلا أو" القرش" أو (الدولار" من بين هذه الكلمات التى نقصدها.

وعلى ذلك فاننا نرجو - اذا كان الهدف قد اتضح - أن تسجل كل ماتعرفه او يخطر ببالك من هذه الكلمات التى نرجو ان تكون متأكدا من أنها مما تستخدمه جماعتك أو" شلتك" أثناء حديثها. ولا داعى أبدا لأن تضع اسمك على صفحات الاستبيان لأن كل مايهمنا فى الواقع هو التعرف فحسب على هذه الكلمات والتعابير العامية ، واكتشاف ماتستخدمه فئات للسن المتقاربة فى أحاديثها الخاصة.

وسوف نفرد صفحة كاملة لكل موضوع من الموضوعات التى نرجو أن تسجل (تسجلى) فى كل منها مايثيره الموضوع فى ذهنك من كلمات وتعابير. وسنكتفى بذكر اسم الموضوع فى أعلى الصفحة لنتركها لك بيضاء تستثير ذاكرتك وتنشطها.

ومع تمنياتى لك عزيزتى الطالبة (عزيزى الطالب) بالتوفيق ، آمل أن يتحقق باستجابتك مافيه الخير لنا جميعنا.

والله من وراء القصد.

١ ـ النقـــــــود

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

٢ـ السجائر والتدخيـــن

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

٣ـ الــــــــزواج

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

٤- الموضـــــــــة

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

٥- المـــــرأة

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

٦- الرجـــــــل

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

٧ـ الأبُ

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

٨ــ الأم

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

٩ـ الكليــة والنجاح

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

Glossary of Technical Terms — قائمة المصطلحات الفنية

Accent — لهجـــة ، شكلة ،نبرة ،تشديد

يقصد بها طريقة للنطق ،أو الكيفية التى يتم بها المركب من التشديد والتنغيـــــم الذى يسهل معه التمييز بين الناطقين من مناطق مختلفة

Affixation — اللصق أو الوصـــــــل

صياغة الكلمـــة عن طريق ما قد يلحق بها من سوابق أو لواحق

Affricate — وقف صامـــــت

ويتم فيه الوقف بطريقة بطيئة نسبيا أو رخوة

Akkadian — اللغات الاكاديـــــة

يقصد بها الشعبة الشرقية من مجموعة اللغات السامية القديمة وتشتمل على اللغات الآشورية والبابلية

Allophone — آلفـــون

عبارة عن التنوعات المتعددة الصوتية التى يتجسد أو يتحقق بها الفونيم وهو مـــا يتوقف على موقـــع الصوت فى الكلمة ٠

Altaic — آلتيـــك

عائلة لغوية تضم اللغة التركية والمنغولية

Analogy — تشابه ،قياس

عملية يتم بها تقديم صيغة لغوية تتوافق أو تتفق مع نسق لغوى قائم وهى عمليـــة تظهر بجلاء فى أصوات الصغـــار وصيغهم الكلامية ٠

Analytic — تحليلى

يشيع استخدام المصطلح فى المنطق وعلم الدلالة ٠وعلى ذلك تكون الجملة أو القضية

التحليلية صادقة فى ضوء تحليل المركب الذى تصاغ منه ووفقا للكلمات ومعانيهـــا ٠
بينما يتضح صدق الجملة التركيبية فى ضوء الحقائق الامبريقية

الانجلو سكسون Anglo - saxon
اسم قديم لتلك المرحلة التى كان يطلق فيها على اللغة الانجلزية القديمة

التضاد Antonymy
يراد به استخدام اللفظ بمعنيين متضاديين

موضع النطق Articu lation
يقصد به عملية اصدار الاصوات او الطريقة التى يتم بها تكوين الاصوات واصدارها

مقاييس النطق Articulatory parameters

يراد بذلك المتغيرات الفسيولوجية التى تحكم عملية تكوين الكلام٠

آرى Aryan
اللغات الآرية تمثـل شعبة من العائلة الهندوأوربية تتكـون من مجموعة اللغـات الهندية مثل السنسكريتيةوالهندية ٠٠الخ ومجموعة اللغات الآرية كالفارسية القديمـــة ٠٠٠٠٠ الخ٠

مماثلة Assimilation
تغير صوت تحت تأثير مجاورته لصوت آخر بطريقة تجعل الصوتين اكثر تشابها ٠

Assyrian لغة قديمة تنتمى الى فصيلة اللغات السامية

افيستية Avestan
شكل من اشكال اللغة الفارسية القديمة تم العثور عليها فى إفستيا Avesta أو مايعرف بالتعاليم والكتابة المقدسة لزرادشت ٠

البابلية Babylonian
اللغات البابلية إحدى لغات العائلة أو الفصيلة السامية القديمة

اللغة البلطيقية Baltic
نوع من العائلة الهندواوريــة تشتمل على لغة ليتوانيا Lithuania ٠٠الخ

شكل صوتى(بحسب موضع النطق) Bi -Labial
صوت صامت يحدث نتيجة لجعل الشفتين معا فهو صوت شفوى ويطلق عليه احيانا Labial ٠

مزدوج اللغة Bilingual
بمعنى الحديث بلغتين

اللغة السلتية (الكلتية) Celtic
مجموعة من اللغات التى تنتمى الى العائلة الهندوأوربيــة وتشــمل لغة ويلز والجاليس وبريتون

الرتبة Class
علاقة تشكف عن مواقع الاجزاء فى السياق حيث يدل هذا الموقع على المعنى٠

المعنى المدرك Cognitive meaning
يشير الى ما يمكن إدراكه من معنى الكلمات والجمل من خلال تركيبها وطريقة نطقها ٠

تلازم لغــــوى Collocation
اصطحاب لفظ أو كلمة لصيغة معينة مثلما نجد فى التلازم بين الصلة والاســـــم الموصول ٠

تغير صوتى مركب Combinative Sound - Change
تغير فى النطق يحدث عندما يكون الفونيم (الصوت الاولى) فى موضع معين ٠وقد يكون التغير الصوتى تغيرا مستقلا على العكس مما سبق ٠

مركب Compound
اتجاه أو مركب من كلمتين أو اكثر يبدوان من الناحية الفونولوجية أو التنظيمية كلمة واحدة

سياق الموقف Context of situation
مجموع الظروف الخارجية التى يقع فيها الحدث اللغوى

لهجة Dialect
نمط لغوى تستخدمه الجماعات الفرعية فى المجتمعات الكلامية المختلفة ٠وهى تتنوع الى لهجات اجتماعية أو طبقية أو اقليمية ٠ومن الصعب فى أحيان كثيرة وضع تمييزات واضحة بين اللغات واللهجات خاصة فى ظروف التغيرات الثقافية السريعة

ازدواجية لغوية Diglossia
تتشكل من اشكال الازدواجية اللغوية حيث تستخدم لغتان لتحقيق اغراض مختلفة أو فى مواقف اجتماعية مختلفة ٠

علم أصول الكلمات Etymology
مبحث فى اصول الكلمات فى لغة بذاتها ٠

اللغات الجرمانية Germanic
مجموعة من اللغات التى ترجع الى العائلة الهندوأورية وتشتمل على الانجليزية والالمانية والجوتية ومجموعة اللغات السكندنافية

فتحة البلعوم Glottis
تشير الى الفتحة بين الوترين الصوتيين

اللغة الجوتية Gothic
لغة قديمة من الشعبة الشرقية للغات الجرمانية

قانون جريم Grimm's Law

حامى (لغات حامية) Hamitic

احدى الفصائل اللغوية التى تشتمل على المصرية القديمة والبربرية والصومالية التى تعتبر بمثابة الشعبة الثانية فى الفصيلة السامية الحامية ·

العائلة السامية الحامية Hamito - Semitic

واحدة من اكبر العائلات أو الفصائل اللغوية تشتمل على مجموعة اللغات السامية ومجموعة اللغات الحامية ·

لهجات المانيا العليا High German

مجموعة من اللهجات فى جنوب المانيا تنتمى الى الشعبة الغربية الجرمانية

الاشتمال Hyponymy

عدد من المصطلحات النوعية التى تدرج تحت مصطلح اكثر عمومية وشمولا

لهجة فردية Idiolect

شكل من الاشكال اللغوية يتكلم به الفرد فى جماعة معينه بطريقة معينه تكون علامة عليه فهى من ثم أشبه بالمميز الفردى ·

هنداوربية (عائلة لغوية) Indo - European

أضخم العائلات اللغوية تشتمل على العديد من الشعب والفروع ·

الهندوجرمانية Indo - Germanic

يطلق الاسم احيانا على الفصيلة الهندوأوربية ·

تصريف Inflection

تغيير فى شكل الكلمة بغرض تحديد وظيفتها التركيبية فى الجملة

اقتراض داخلى Internal Loan

يشير المصطلح إلى الكلمات التى يتم اقتراضها من لهجة مغايرة تنتمى إلى نفس اللغة ·

التنغيـــم Intonation

نمط التتابعات الموسقية والايقاعية فى الكلام بمعنى الطريقة التى قد يرتفع أو ينخفض بها الصوت فى إيقاعات موسيقية.

حد لغوى Isogloss

خط على الخريطة اللغوية يوضح الحدود الجغرافية للملامح اللغوية النوعية أو الحدود بين ملمحين لغويين متناوبين .

عائلة (فصيلـــــة) لغوية Language Family

مجموعة من اللغات التى يجمعها أصل قرابى واحد بمعنى انها انحدرت جميعها مـــن أصل لغوى مشترك.

اللغة اللاتينية Latin

لغة الشعبة الايطالية فى الفصيلة الهندوأوربية كان يجرى الحديث بها فى رومـــا القديمة وفى انحاء الامبراطورية الرومانية وهى سلف اللغة الرومانشية .

السياق اللغوى Linguistic context

المحيط الذى يقع فيه الحد ث اللغوى بمعنى المحيط (السياق) الذى يعتمد علـــى عناصر لغوية لاجل تحديد المعنى.

لغة ليتوانيا Lithuanian

احدى لغات العائلة البلطيقية Baltic

اقتراض لفظى Loan word

كلمة يتم اقتراضها أو الاستعانة بها بواسطة لغة من لغة اخرى .

كيفية النطق Manner of articulation

مقولة يتم فى ضوئها تصنيف الصوامت وفقا لمواضع النطق .

تنغيم (نغمة) Melody

(انظر : Intonation)

قلب مكانى Metathesis

تغيير وضع الحروف او الاصوات فى الكلمة

الورفيم Morpheme

علامة تقوم بين المعانى المختلفة التى توجد فى الجملة

التجويف الانفى Nasal Cavity

ممر الهواء وراء الانف يربط بين فتحتى الانف بظهر التجويف الفمى

ضوضاء Noise

بوجه عام تشير فى نظرية الاتصال إلى أى شوشرة او تدخل فى نسق الاتصال يعوق أو يمنع وصول الرسالة أو الاشارة أو المعلومات عموما .

الانجليزية القديمة Old English

اللغة النجليزية منذ عهد الغزو الانجلوسكوفى لانجلترا حوالى سنة ١١٠٠

الفرنسية القديمة Old French

يطلق على اللغة الفرنسية حتى القرن الرابع عشر تقريبا .

لغة المانيا العليا القديمة Old High German

يقصد بها اللغة الالمانية القديمة حتى حوالى عام ١١٠٠

الايسلندية القديمة Old Icelandic

تطلق على اللغة الايسلندية حتى حوالى ١٣٥٠

الايرلندية القديمة Old Irish

تطلق على الايرلندية الجاليسبه حتى حوالى عام ١٠٠٠

اللغات الشمالية القديمة Old Norse

الاشكال الاولى لشعبة اللغات السكندنافية المتفرعة من الالمانية .

Old Persian — الفارسية القديمة

الشكل القديم للغة الفارسية وجدت نقوشهـا التى ترجع الى حوالى عام٥٠٠ق٠م

Old Saxon — السكسون القديم

اللغة الغربية الالمانية التى تعتبر سلفا للهجات فى المانيا الشمالية٠

Old Slavonic — السلافية القديمة

اقدم اشكال اللغات السلافية

Ontology — الانطولوجيا (مبحث الوجود)

أحدث المباحث الفلسفية التى تهتم بما هوموجود

Palate — سقف الفم

الجزء الامامى من سقف الفم وراء أصول الاسنان ويسمى أيضا الغار وهو صلب وغير متحرك

Parameter — بارامتر

متغير مستقل يستخدم فى المعادلات الرياضية والاحصائية

Persian — فارسى

اللغة الايرانية المنشقة من الآرية

Philology — الفيلولوجيا

فقة اللغة أو فلسفة اللغة ويعنى بالدراسة التاريخية للغات

Phoneme — الفونيم

أصغر وحدة صوتيه يسهل التميز فى ضوئها بين معانى الكلمات وهى صور ذهنية محدودة العدد على العكس من الالفونات التى هى الاصوات المنطوقة بالفعل٠

Phonetic context — سياق صوتى

تتابع الاصوات التى تحدث قبل وبعد المصطلح او اللفظ موضوع الاعتبار بما فى ذلك

مختلف النواحى المتعلقة بالتشديد والنبر والتنغيم ٠

الفونولوجيا (علم الاصوات التركيبى او علم الاصوات) phonology

يهتم بدراسة وظيفة الاصوات فى البناء اللغوى وما بينها من علاقات بمعنى النظام الصوتى٠

مكان (موضع) النطق Place of articulation

الموضع الذى يحدث عنده الاعتراض فى مجرى أو ممر الهواء الذى ترجع اليه الاختلافات فى شكل الاصوات نسبة الى الموضع الذى تخرج منه (المخارج) ٠

تعدد المعنى Polysemy

ان يكون للكلمة الواحدة اكثر من معنى

انجليزية ما قبل التاريخ Prehistoric old English

تطلق على اللغة الانجليزية القديمة فى فترة ماقبل ايه كتابة مدونة اى منذ قبل عام ٧٠٠ تقريبا ٠

لغات مشتركة Related Languages

وهى اللغات التى تطورت عن لغة واحدة تعتبر كسلف مشترك لها جميعا ٠

اللغات الرومانسية Romance Languages

تطلق على اللغات التى انحدرت من اللاتينية من اللغة الفرنسية والايطالية والاسبانية

لغة رومانش Romansch

وتتحدث بها بعض اجزاء ايطاليا وبعض المناطق فى سويسرا ٠

اللغة السنسكريتية Sanskrit

لغة مميزة فى الهند القديمة الى الشعب الهندية ضمن الفصيلة الآرية

علم (مستوى) الدلالة Semantics

يهتم بدراسة معانى الكلمات والعبارات والعلاقات الدلالية المختلفة وكل مايطرأ على هذه النواحى بفعل التغيير ٠

Sino - Tibetan
الصينية التبتيـــة
عائلة لغوية تشتمل على الصينية والتبتية

Slavonic
السلافية
تشتمل على الروسية والبولندية وهى ضمن الفصيلة الهندوأورية

Sonority
الوضوح السمعى
قمة فى السماع تقع بين حدين اقل منها وضوحا ٠

Spectrograph
السبكتروجراف
جهاز يستخدم فى علم الاصوات التجريبى لاغراض التحليل السمعى acoustic للكلام فهو بيان مرئى لمختلف عناصر الصوت وتوزعة

Speech community
مجتمع كلامى
يشتمل كل الاشخاص الذين يتكلمون لغة معينة أو لهجة معينة

Standard Language
اللغة المنضبطة
لهجة بذاتها فى لغة معينة لها مكانتها الخاصة

Sumerian
سومرى
احدى اللغات التى سادت الدولة السومرية ويصعب القول بانتمائها الى أية لغـــة معروفة أخرى ٠

Syllables
المقاطع الصوتية
الوحدات الاساسية فى الكلمة ومفردها مقطع،عبارة عن مجموعة الاصوات المتتابعة التى تمثل وبخاصة فى علم الاصوات التشكيلى الفونولوجيا سلسلة من النبر والطول تعتبر وحدة للتحليل الصوتى

Synoymy
الترادف
تكثر أو تعدد الاسماء لمسمى واحد ٠

علم التنظيم (السينتكس) Syntax

ويهتم بالبحث في اقسام الكلمات كأسماء وافعال وحروف ٠٠وانواع كل قسم ووظائفه ٠٠٠الخ٠

التأميل Tamil

احدى اللغات الدراقيدية Dravidian في جنوب الهند٠

تاهي Thai

لغة تايلاند وسيام وتنتمي الى العائلة(الى مجموعة)اللغات الصينيةالتبتية٠

تنميط Typology

وتقصد به تصنيف اللغات وفقا لانماطها البنائية أو الصوتيه او في ضوء اى معيار مما تصنف في ضوئه اللغاتسواءاكانت لغات اصلية و أساسيه او فرعية٠

اللهاة Uvula

قطعة متحركة من اللحم تتدلى من أقصى الحنك وتعمل كصمام للهواء الخارج من الحنجرة فيغلق الهواء عند ارتفاعها حتى يتيح ذلك الفرصه امام دخول الهواء الى الفم

سقف الفم Velum

الجزء الخلفي بالذات من سقف الفم ويطلق عليه ايضا acoustic الطبق الرخو٠

الأحبال الصوتية Vocal cords

وتران صوتيان متصلان بجدار القصبة الهوائية وهما متحركان فقد يكونا متقاربين أو منفرجين مما يؤثر في نوعية الاصوات مهموسة أو مجهورة٠

الصوت Voice

عملية حركية منغمة تنتج عن حركة الهواء من الرئتين اللتين يختزن فيهما الهواء اللازم لاصدار الصوت عند مروره بالوترين الصوتيين ٠

اصوات مجهـــورة Voiced sounds

صوت يهتز معه الوتران الصوتيان ويحدث عندما يكون الوتران متقاربان

اصوات مهموسة Voiceless sounds

تطلق على الصوامت التى تكون نتيجة انفراج الوتران وتباعدهما مما يدفع بالهواء القادم من الرئتين عبر التجويف الحلقي دون ان يتذبذبا ، فيصدر الصوت مهموسا •

لغة ويلز Welsh

تطلق على إحدى لغات الشعبة السلتية Celtic او الكلمتين كما يطلق عليــــه أحيانا •

المراجـع العربيـة والأجنبيـــــة

"نكتفى هنا بالاشارة الى أهم المراجع العربية والأجنبية التى اعتمدنا عليها والتى يمكن للقارىء الرجوع اليها".

أولا : المراجع العربيـة :

١- أحمد ابو زيد، ماوراء التاريخ (مترجم) دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٥.

٢- ـــــــ ،الغصن الذهبى (الترجمة العربية) الجزء الاول ،الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ،القاهرة ١٩٧٠.

٣- بول شوشار ،اللغة والفكر (الترجمة العربية) المنشورات العربية ،بيروت ١٩٧٨.

٤- زكريا ابراهيم ،مشكلة البنية ،مكتب) مصر، ١٩٧٦

٥- على عبد الواحد وافى،علم اللغة ،دار نهضة مصر ،الطبعة السابعة ،القاهرة ١٩٧٣.

٦- قيس النورى ،طبيعة المجتمع البشرى فى ضوء الانثربولوجيا الاجتماعية مطبعة السعد ،بغداد ،١٩٧٠.

٧- محمد محمود الجوهرى، (وآخرون) مقدمة فى الانثربولوجيا العامة،الجزء الثانى (الترجمة العربية) دار نهضة مصر للطبع والنشر١٩٧٧

٨- محمود ابو زيد ،المعجم فى علم الاجرام والاجتماع القانونى والعقاب،دار الكتاب ،القاهرة ١٩٨٧.

٩- محمود السعران ،اللغة والمجتمع، ١٩٧٠

ثانيا : المراجع الأجنبية:

١ــ الكتب والمؤلفات:

1- Abercrombie,D.,Elements of General Phonetics.Edinburgh.Edinburgh University Press.Chicago:Aldine 1967.

2-Barber,C.L.,The Story of Language,The English Language Book Society London.2nd Printing.1975.

3-Bassnett.Mc Guire,Susan.,Translation London.1987.

4-Bernstein,R.,Social Structure,Language and Learning,in J.De Cecco,ed.the Phychology of Language,Thought and Instruction.N.Y:Holt, Rinehart and Winston.1967.

5-Black,M., The Laybrinth of Language.A Pelican Book.1972.

6-———— ., Problems of Analysis.Cornell University Press.Ithaca.N.Y.1954.

7- Block,N.,(ed.),Readings in Philosophy of Language.Harvard University Press.Cambridge,Mass.1980.

8- Bloomfield,Leonard.; Language.N.Y.Holt Rinehart and Winston.1933.

9-Borko,H.,(ed.),Automated Language Processing.N.Y:Wiley.1967.

10-Bossard,J.,The Sociology of Child Development.N.Y.Harber.1948.

11-Brake,M.,The Sociology of Youth Sub-Culture and Youth Sub-Cultures.1980.

12-Brown,R.W.,Words and Things.N.Y.The Free Press.1958.

13- ———.,Social Psychology.N.Y.The Free Press.1965.

14-———., Psycholinguistics:Selected Papers by Roger Brown.N.Y. The Free Press.1970.

15-Carroll,J.;The Study of Language.Cambridge,Mass,Harvard University Press.1953.

16- ———, Language and Thought,Englewood Cliffs.N.J.Printice Holl.1964.

17-Chomsky.N.,Syntactic Structures.The Hague Mouton.1957.

18- ———, Topics in the theory of Generative Grammer.1966.

19- ———, Language and Mind.N.Y.Harcourt. Brace & World.1968.

20- ———, Reflections on Language.N.Y.Pa-

nthenon.1975.

21-Cloward,R.and Ohlin.;Delinquency and Opportunity:A theory of Delinquent Gangs.1960.

22-Cohen,A.K.;Delinquent Boys:The Culture of the Gang.Chicago.1955.

23-Corder,S.P.(ed.),Edinburgh Course in Applied Linguistics.4.Vols.(1973 - 1977).

24-Cromer,R.F.,The Development of Language and Cognition:The Cognitive Hypothesis"In New Perspectives in Child Development" ed..B.Foss. Pinguin Books.1974.

25-David,Crystal.,Linguistics,Language and Religion.Barnes & Oates.London. 1965.

26-Empson,Willian.,Seven Types of Ambiguity. Chatto & Windus.London 1974.

27-Fant,Gunner.,A Coustic Theory of Speech Production.The Hague.1960.

28-Fodor.J.F.,The language of Thought.Cambridge.Harv.Univ.Press.1979.

29- ———&Garrett.,"Some Reflection on Competence and Performance.1966.

30-Frisch,Von.,Bees:Their Vision,Chemical Sence and Language.1956.

31-George,F.H.,Semantics.London.1964.

32-Gleason,H.A.,An Introduction to Descriptive Linguistics:Holt,Rinehart & Winston.Inc.N.Y.1955.

33-Greenberge,Joseph.;Universals of Language. Cambridge.Mass:The M I T.Press 1963.

34-Gumperz,J.J."On the Ethnology of Linguistic Change"In Bright.1960.

35- ———— & Hymes,D.(eds.)Directions in Linguistics.N.Y.Holt Rinehart &Winston.1978.

36-Hall,R.A.,Linguistics and Your Language.Doubleday & Co.,Inc.Gardes city.N Y.1960.

37-Harris,D.; Sex Differences in the life Problems and Interests of Adolescents. 1959.

38-Hockett.C.F.;A course in Modern Linguistics.The Mcmillan Company.N.Y.1960.

39-Hymes,D.;The Functions of Speech"In.J.De Cecco.ed. The Psychology of Language,Thought and Instruction.N.Y. 1967.

40-Jackobson,R.;Child,Language,Aphasia and Phonological Universals.The Hague: Mouton.1969.

41-Jacobson,M.;Developmental Neurobiology.N.Y. Holt,Rinehart & Winston.1970.

42-Jespersen,O.;Language,its Nature,Development and Origin.London.1922.

43-—————;Language,George Allen & Unwin:London.1933.

44-Katz,J.J.,Language and Other Abstract Objects.Rowman & Littlefield, Totowa.N.J.1971.

45-Kluckhohn,C.,"Culture and Behavior"in G.Lindzey,ed.Handbook of social Psychology.(Reading,Mass:Addison-Wesley).1954.

46-Labov,W.,The Effect of social Mobitity on Linguistic Behaviour.In Lieberson.1967.

47-Ladefoged,Peter.;Three Areas of Exprimental Phonetics London.Oxford University Press.1967.

48-Lewis,M.;Language,Thought and Personality

in Infancy and Childhood.N.Y. Basic Books.1963.

49-Lorenz,K.;Man Meets Dog.London.Methuen, 1954.

50-Lunneberg,E.H.,Biological Foundations of Language.N.Y.Wiley.1967.

51-―――――,A Biological Perspective of Language.In Lunneberg,E.H.(ed.)New Direction in the Study of Language.Cambridge,Mass:M I T.Press 1968.

52-Lyons.J.;New Horizons in Linguistics(ed), Penguin Books.1973.

53-――――& Wales,R.;Psucholinquistics papers Edinburgh.Edinburgh University. Press.1966.

54-Malinowski,B.,The Problem of Meaning in Primitive Languages.In C.K.Ogden and I.A.Richards(The Meaning of Meaning)1930.

55-Marler,P.,Communication in Monkeys and Apes.In Devore,I.(ed.), Primates Behaviour:Field studies in Monkeys and Apes.N.Y.1965.

56-Marshall.J"Psychological Linguistics:Psychological Aspects of Semantic Structure.In Meetham,A.R(ed.), London.Pergamon.1969.

57-Marx,O.,The History of Biological Basis of Language.In Lunneberg.1967.

58-Mc Neill,,D.,The Development of Language. In Nussen.P.A.(ed.),Charmichael's Manual of Child Psychology. N.Y.Wiley.1969.

59-Paget,Sir Richard.,Human Speech.London 1930

60-Piaget.J.,"Language and Thought From the Genetic Viewpoint"In Six Psychological Studies.(ed.),D.Eckind.Randow.House.1968.

61-————;Hdaptation Vitale et Psychologie de l'intelligence:Selection Organrque et Phenocopie.Paris:Hermann.1974.

62-Piattellipalmarini,M.;Language and Learning(The Debate between Jean Piaget and Noam Chomsky)Harvard University Press.1980.

63-Postal,P.M.;Aspects of Phonological Theory Harper& Row.1968.

64-Sapir,E.,Language.N.Y.Harcourt,Brace and World.1921.London:Hart.Davis-1963.

65-————,"The Status of Linguistics as a science in Language .1921.

66-Saporta,S.,(ed.),Psycholinguistics: A Book of Readings.N.Y.Holt, Rinehart & Winston.1961.

67-Saussure,F.de.;Course in General Linguistics.N.Philosopical Library.1959.

68-Sebeok,T.A.,Goals and Limitation of the study of Animal Communication.In Sebeok T.A.(ed.),Animal Communication,Bloomington,Indiana University Press.1968.

69-Smith ,F & Miller,G.A.,(ed.)The Genesis of Language.Cambridge.Mass.M.I.T. Press.1966.

70-Solbin,D.,(ed.),The Ontogensis of Grammer: Some Facts and Several Theories N.Y.1970.

71-Sussan,K.Langer.;Philosophy in a New Key. Harvard University Press.Cambridge.Mass.1963.

72-Tinbergen,N.,the Study of Instincts.London

Oxford University Press.1951.

73-Trudgill,Peter.,Sociolinguistics:An Introduction.Penguin Books 1975.

74-Wardhaugh,R.,Introduction to Linguistics. N.Y.1972.

75-Wenner,A.M."Honey Bees"In Sebeok T.A.(ed) Animal Communication.1968.

76-Whorf,B.Lee.,Language,Thonght and Reality Cambridge: Techonology Press.N. Y.Wiley.1956.

77-Winston,Patrick.;The Psychology of Computer Vision.N.Y.Mc Graw-Hill.1975.

78-Wittgenstein,L.;Philosophical Investigations-Trans by Anscombe.Oxford. 1963.

٢ ــ المجلات والدوريات العلمية :

-Bossert,W.H.& Wilson,E.O."The Analusis of Oi-factory Communication among animals.journal of Theoretical Biology.1963.

-Broca,P.,Location des Fonctions Cerebrales. Siege du Langage Articule.Bulletin of Social Anthropology.

Hazlett,B.A & Bossert,W.H.,A Staistical Analysis of the Aggressive Communications Systems of some Hrmits Crabs-Animal Behavior,1965.13.

Kellog,W.N.Communication and Language in the Home raised chimpanzee.science. 1968.

Labov,W.,Phonological Correlares of social stratification American Anthropologist.Minasha.Wisc.1964.

Lerman,P.,"Argot,Symbolic Deviance, and Sudcultural Delinquency.A.S.R.xxx II .1967.

Schwartz,G.and Merten,D.,The Language of Ad-

olescence:An Anthropological Approach to Youth Culture.A.S.R.L. xx II.1967.

Tinbergen,N.,Drived Activities,Their Causation,Biological Significance,Origin and emancipation during evolution.Quarterly Review of Biology.27.1952.

Zippel,B.,"Semantic Differential Measures of Meaningfulness and Agreement of Meaning.Journal of Verbal Learning and Verbal Behavior.VI.1967.

The Lexicon Webster Dictionary.The Delair Publishing Company.N.Y.1983.

The New Encyclopaedia Britannica.Vols.22.23. Encyclopaedia Britannica,Inc. Chicago.1986.

الفهرســــــــــت

الموضوع	الصفحة

رقـــم الايـــــداع
١٩٨٨/ ٢٠٧٠٠

